





مذكرات

مدحت باشا

تعريب

يوسف كمال بك حتاته

﴿ حقوق النشر محفوظة لطابعه ﴾

اميين همدية

﴿ الطبعة الاولى ﴾

مطبعة همدية بالموسكى بمصر

﴿ مقدمة ناشر الكتاب ﴾

قال علي حيدر بك نجل المرحوم مدحت باشا وناشر الكتاب في مقدمة الجزء
الاول منه ما ستأتي ترجمته بالحرف الواحد

﴿ بعض كلمات ﴾

أقدم الى أبناء وطني في يوم عيدنا الملى أثر والدي وقد ذكروه بعض الذكر
أو لم يذكروه ليكون عبرة لهم
لما تمايل الوطن الى السقوط في دركات الحضيض لفقدان العدل وسوء الادارة
حاول تخليصه بتأسيس حكومة الاخوة والمساواة فجاهد ٤٥ سنة الى أن أفنى حياته
وسكن لحده

هذا الكتاب هو أول خطوة أخطوها لاثبات براءته التي سأسمى لتحقيقها رسمياً
كتب والذي هذا الاثر في قلعة الطائف امام الف مشكل وهو محاط
بالجواسيس فكان يكتب السطر او السطرين ويترك الكتابة اذا سمع وقع قدم
او صوت انسان

كتبه وليس معه رفيق يستشيريه او كتاب يلجأ اليه ورغمما عن فقدان كل
الوسائط اللازمة لكتابة التواريخ خدم به وطنه أيضاً في أواخر أيامه وأودعه وقائع
حياته السياسية والادارية وبرأ نفسه من لحكم الذي ألصقه به الملك المستبد
واعوانه الاراذل الجبناء وكان قد أرسل قسماً من هذا الاثر الى عائلته في ازмир
فحفظته عندي كتذكار مقدس واستخرجت منه الكتاب الذي قد نشرته في أوروبا
وعدد صفحاته (١٤٣) وزدت عليه بعض المواد المأخوذة من غيره

وكان رحمه الله قد صرف النظر عن ارسال متمامه لانتجاع الرسائل المنبثة
بوصول ما بعث به من مقدماته ومع كل ذلك فقد رأى وجوب ايجاد نسخ متعددة
منه فاستكتب خير الله أفندي نسختين وحفظ النسخة الاصلية في بعض خبايا

السجن ولكنه أخرجها قبل قتله بلبلة لسبب لا أعلمه فأخذها الجلادون ولعلمهم أرسلوها الى عبد الحميد وأرسلت احدى النسخ المكتوبة بخط خير الله أفندي الى كمال أفندي شيخ تكية (بلاط) بواسطة طوغله جى زاده مصطفى أفندي فلم يسلمها الاول الى الثاني لليوم وسلمت الصورة الثانية الى وصفي أفندي مدير أوراق الطائف بواسطة فخري بك فوضمها في صندوق من الحديد ودفعها الى يوم اعلان الدستور

أنشر اليوم أثرًا كتب بهمة عالية وحفظ بشجاعة نادرة . أنشر منه اليوم (تبصرة وعبرة) وأذيله بملحق فمن المحررات المرسله الى عائلته يعلم القارئ ما قاساه المرحوم في سجنه وقد أضفنا الى هذا القسم ما التقطناه من أفواه رفاقه الذين لا يزالون في قيد الحياة

اعتمدنا في تفصيل مسألة خنقه على رسالة لرفيقه في سجنه خير الله أفندي (شيخ الاسلام الذي اصدر فتوى خلع عبد العزيز) وعلى أقوال المايننجي الثاني للسلطان عبد العزيز الذي قد رافق الفقيده وعائشه في سجنه وخلص من الاسر وعاد بعد اعلان الدستور

اليوم أنشر أثر رجل قد خنق بأمر السلطان عبد الحميد في غياه سجن الطائف لاعيد ذكره المنسي بين محافل سرور الشعب . وأشرك روحه في فرح الامة التي كان يحبها ويفديها بالنفس والنفس

علي حيدر مدحت

في ١٠ تموز سنة ١٣٢٥

مقدمة مدحت باشا

قال المرحوم عن نفسه في مقدمة كتابه المكتوب بخط يده طلب الكثيرون من محبي الوقوف على نشأة مدحت باشا ترجمته فنشرها مراراً باللغتين التركية والعربية ولكنها لم تكن وافية لان قسماً منها كتب عن أحوال سنة ١٢٨٢ والقسم الثاني كتب عن أحوال سنة ١٢٩٠ على ان خدمات مدحت باشا المشهورة قد ابتدأت بعد ذلك الزمان وخصوصاً سنة ١٢٩٣ أي من

خلع السلطان عبد العزيز الى سنة ١٢٩٩ ففيا بين هذين التاريخين تنحصر أهمية صحائف أحواله ولذلك قد طلب منه العديدون من رفاقه في سجن قلعة الطائف كتابة هذه الاسطر فلبى طلبهم وكتب ترجمته من يوم ولادته سنة ١٢٣٨ الى سنة ١٣٩٨ وضمن هذه الترجمة وقائع الدولة السياسية وسمي الكتاب المحتوي على التفاصيل الشامل لاعظم الوقائع السياسية تبصرة وعبرة

فالوقائع المسطورة في هذا الكتاب يعرفها الواقفون على حركاته وأحواله وهم الى اليوم في قيد الحياة والاوراق الرسمية الموجودة الى يومنا في سجلات الحكومة تثبت ما له من الايادي في خدماته المشهورة التي قد خدم بها الحكومة ٤٥ سنة بلا فاصلة فمن اشتبه في بعض محتويات هذا الكتاب فليراجع الاورق الرسمية ليظهر له الحق

وهنا مسألة يجب النظر اليها وهي ان ما كتب في السجن لم يحتو على النمر الرسمية والتواريخ بالضبط لان الاوراق الرسمية كانت اذ ذاك بعيدة عن الكاتب وليت الخطب قد بقي عند هذا الحد فقد كانت الكتب الدينية وأمثالها ممنوعة عنه وعن رفاقه وكانت محاربة أولادهم وعائلاتهم ممنوعة أيضاً فضلاً عن التضييق والتعذيب فليعذر القارئ اذا وقف على بعض الخطأ والقصور

أوائل حياة مدحت باشا

مدحت باشا هو ابن القاضي الحاج حافظ محمد أشرف وحفيد الروسجقلى الحاج علي افندي . ولد في الاستانة في شهر صفر الخير سنة ١٢٣٨ وسماه والده أحمد شفيق وحفظ القرآن وهو في العاشرة وصار اسمه لاجل ذلك حافظ شفيق وفي سنة ١٢٤٩ في أيام ولاية حسين باشا لودين عين والده قاضياً لها فتوجه مع والديه اليها وعادوا منها سنة ١٢٥٠ وقد تعلم حافظ شفيق مبادئ الانشاء فأدخله عا كف باشارئيس الكتاب وناظر الخارجية الى الديوان الهابوني فتعلم الخط الديواني للخصوص بهذا القلم في ستة أشهر وكانت العادة جارية بتوسيم الذين يتخرجون من هذا القلم باسم خاص فسمى حافظ شفيق باسم مدحت ولما لم يكن بين رفاقه من

يشاركه في هذا الاسم صار اسمه الجديد قائماً مقام القديم فكان ينادي ويذكر به
 وفي سنة ١٢٥١ عين والده قاضياً لقضاء (لونجه) ورافقه عائلته وتوجه معه
 ابنه مدحت الى مقر وظيفته وبعد سنة عاد مع والديه أيضاً وكان قد اشتغل بالعلوم
 العربية في ودين وفي لونجه وصار أهلاً لتحصيلها في الجوامع الشريفة فكان يقضي
 بعض أوقاته في أحد أقلام الحكومة ويصرف قسماً منها في جامع الفاتح لتحصيل
 اللغتين الفارسية والعربية فلم يفارق حلقة تدريس العالم الطائر الصيت الطويراني
 محمد أفندي ولا الزغرهلى شريف أفندي ولا الشيخ محمد أفندي واماثلهم فأتقن النحو
 والمنطق والمعاني والفقه والحكمة بفضل هؤلاء الاماجد وأتقن الفارسية بواسطة
 أساتذته كتبها اذاده ومراد ملا ولما أنشئت مدرسة (عرفانية) وأرسلت اليها
 الحكومة بعض أذكى الشبان من الباب العالي كان بينهم مدحت أفندي ايضاً
 سنة ١٢٥٤ ولكنه رأى ان الذين يتخرجون على أساتذة هذه المدرسة لا يكونون
 من انداده ففارقها وواظب على الدرس ولم يفارق حلقة تدريس الخوجه حسام الدين
 أفندي الى سنة ١٢٥٧

وفي كل هذه المدة لم يترك مدحت أفندي ملازمة احد اقلام الحكومة وفي
 سنة ١٢٥٦ نقل الى قلم مكتوبجي الصدارة وتحصل على مرتب زهيد فألجأته الضرورة
 الى اختيار وظيفة خارج الاستانة وحصل له مطلوبه في سنة ١٢٥٨ اذ عين رفقاً
 لكاتب تحريرات الشام بمرتب ٢٥٠٠ قرش وبقي في هذه الوظيفة وفي صيدا سنتين
 ونصف سنة وعاد الى الاستانة وقضى فيها شهراً وفي سنة ١٢٦١ عين كاتباً لديوان
 سامي باشا بولاية قونية وفي سنة ١٢٦٣ توجه مع سامي باشا ايضاً الى ولاية قسطنوني
 وفي سنة ١٢٦٤ عاد الى الاستانة وتزوج

وكانت رتب الدولة في ذلك الوقت ذات اعتبار وقيمة فحصل المترجم في سنة ٥٩
 على رتبة خوجه وعلى الرتبة الرابعة بعدها بسنة وتحصل على الثالثة بعد هذه ايضاً
 وبعد عودته من قسطنوني لم يفارق قلم مكتوبجي الصدارة فنقل الى دائرة المضابط
 التابعة لمجلس الولا لان رئيس المجلس رفعت باشا عرف له فضله سنة ١٢٦٥ وبعد

مدة قليلة نال الرتبة الثانية وعين مميّزاً للقلم (أي في سنة ١٢٦٦) وفي سنة ١٢٦٧ نال رتبة المتمايز وعين رئيساً للخلفاء

وفي هذه الاثناء حصل خلاف بين ابن الجزائرلي مقرديش والصراف ميثاق بسبب احتكار جمارك الشام وحلب وملحقتهما وسرى سوء تأثير الخلاف الى الخارج وعظمت أهميته وتأخر للحكومة مبلغ خمسين كيساً من النقود فتوجه مدحت افندي الى تلك الاصقاع لكشف أسرار المسألة وللإشراف على أعمال مشير فيلق بلاد العرب محمد باشا القبرصلي والوقوف على أحواله التي كانت تروى غير خالية من المبالغة فتوجه الى وظيفته وبعد ستة أشهر عاد بعد ان أسترده مبلغ ألف وأربعمائة كيساً من مال الحكومة المسلوب في مسألة احتكار الجمارك وأظهر بتحقيقاته ان الصراف ميثاق قد سرق خمسة آلاف كيساً وأثبت أيضاً ان المشير محمد باشا قد ارتكب خطأ لا يغفر في مسألة الدرور ف عزلته الحكومة

وقد قدر نظار الدولة خدمات مدحت حق قدرها واثني عليه الصدر الاعظم رشيد باشا وفي سنة ٦٩ عين المرحوم رشيد باشا مدحت لرئاسة مجلس الولا فأثبت في هذه الوظيفة كفاءته وجنده رشيد باشا وعالي باشا ورشدي باشا وأمثالم من أقطاب الدولة ووزرائها فكان الوزير منهم يدعوه لكتابة خلاصة مذاكرات اللجان التي تجتمع تحت رئاسته ولما حضر البرنس (منجيقوف) الى الاستانة لحل مسألة (القريم) كان مدحت افندي حاضراً لكتابة الاتفاقات بمنزل رفعت باشا ناظر الخارجية على ان العادة قد جرت أن يكتب في مثل هذه الظروف احد كتاب قلم (الامدى) ولما اتسمت أمور مجلس الولا الكتابية في زمن رياسة شكيب باشا ووجهت الى مدحت افندي الرتبة الاولى وعين كاتباً ثانياً لقسم الاناطول وفي سنة ١٢٧٠ تولى مهام الصدارة محمد باشا القبرصلي وكان حاقداً على مدحت افندي لتسببه في عزله من مشيرية بلاد العرب بالأحتة المعلومة فأراد محمد باشا الانتقام وصمم على

اخراجهم من خدمة الحكومة بعد اثبات معجزه عن القيام باعباء وظيفته وكانت عصابات الاشقياء قد ملأت ولايات الروميلي وكثر تعديها على الاهلين فرأى الباب العالي وجوب ارسال رجل مدير حازم اليه فاختر الصدر الاعظم مدحت افندي واعطاه سلطة تامة واستصدر ارادة سنوية قاضية بتوجهه الى البلقان وكانت نية الصدر الاعظم معلومة ولكن لاسبيل الى عدم اطاعته ولذا قد توجه مدحت افندي الى مقر وظيفته الجديدة في شهر نيسان سنة ١٢٧١ واستصحب معه قوة من العساكر وقضى ستة أشهر في اكنان الجبال وقبض على ٢٨٠ من الاشقياء وأثبت اداة اربعة منهم واعدمهم بجهات (اسليه) و(جمعه) و(شمخى) بلا اذن من حكومة الاستانة لان الاوهر المعطاة له قبل السفر قد خوت له هذا الحق واستصدر حكماً بحبس ٨٠ وارسلهم الى سجن الاستانة وعامل الباقين بما يحتمه القانون فعاد الامن الى نصابه في الروميلي واقطعت حجة الاجانب الذين كانوا يتخذون اختلال الامن في البلقان وسيلة للقيام والقتال وثبت لرجال الاستانة ان مدحت افندي قد اعاد السكنينة الى ربوع تلك الولايات وكان الصدر اذ ذلك قد عزل وقام مقامه رشيد باشا وعين عالي باشا ايضا لانتظار الخارجية فعاد مدحت افندي من الروميلي وقدم لائحة عن احوالها فأحلها الباب العالي محل الاعتبار وعين في كل ولاية مجلس احكام وحاول تعيين المترجم بوظيفة في الروميلي فحال بينه وبين تنفيذ هذا الغرض تغير احوال البلقان وتبدل الوكلاء

وحصلت زلازل في الولايات فأصاب الكثيرين باضرار جسيمة فارسل رشيد باشا مدحت افندي الى ولاية بروسه للنظر فيما لحق اهلها من الخطوب وبعد عودته كانت الحكومة قد وحدت امور تحرير مجلس الوالافعينت مدحت افندي كاتباً ثانياً للمجلس

توجه رشيد باشا الى مصر بعد عزله وقام مقامه عالي باشا وتوجه الاخير الى اورو بالنظر في شؤون المسألة الحربية ووكل عنه محمد باشا القبرصلي ووجه همه لمحاربة مدحت افندي فأعان خصومه واصفى الى وشاياتهم وعزم على ابعاده عن الباب

العالي منتهزا فرصة سفر هؤلاء وغياب كامل باشا واخذ يعزي اليه ما هو منه براء في المجالس الرسمية ولا مانع من ذكر ما عزاه الرجل الى مدحت افندي فقد ادعى عليه انه كان يتداخل في امر الاعشار ويبيح لاقاربه اخذها ويشترك معهم وكان هذا الامر فاشيا بين الموظفين فلم يلاحظ على مدحت افندي وحده إلا انه قد ربح بعض الربح من غلاء الاسعار ام لانه قد تعرض لتجارة مباحة لم تمنعها الحكومة الا في سنة ١٢٦٩ وقد امتنع اذ ذاك مدحت افندي عن التعرض لالتزام الاعشار عملا بأوامر الحكومة و بعد امتناعه ادعى عليه الباشا القبرصلي انه قد اخذ اعشار جهة (البالقانة) التابعة لدار السعادة وأذاع في طول الاستانة وعرضها ان مدحت افندي يلتزم الاعشار وشكل مجلساً من الوكلاء (النظار) فاجتمع المجلس وحاكم مدحت افندي

احضر المجلس ملتزم الاعشار وقرأ اوراقه ليقف على حقيقة الشركة فاتضح له ان مدحت افندي بريء مما عزی اليه وثبت له ايضاً انه لم يتداخل في شيء من امور الاعشار واضطر المجلس اخيراً الى معرفة مضيع هذه الاشاعة فأحضر بعض الصيارف وسألهم فتعلم بعضهم ولم يقدر على ابداء كلمة وادعى بعضهم انه سمع هذه الاشاعة ولم يذكر الراوي وانخلاصة ان التحقيقات قد استمرت يومين في مجلس الوكلاء فثبت انها مفتراة وفي اليوم الثالث حضر خالد بك احد الملتزمين وقال بعض كلمات ضد مدحت افندي و بعد هنيهة قال « والله لقد كذبت فيما قلته ولم أقل كلمة صحيحة وقد طلب مني بعضهم عزو هذه المفتريات الى الرجل البريء » واعترف امام المجلس انه قد حضر لافتراء الكذب فأظهر الحاضرون تأسفهم وغيظهم وتفرق المجلس بعد ان اصدر حكمه على خالد بك لارتكابه شهادة الزور وارسله الى السجن

و بعد فترة من الزمن عاد رشيد باشا وكامل باشا وعالي باشا واشتغلوا بوظائفهم وعرفوا لمدحت افندي قدره وفي سنة ١٢٦٣ انتهت المسألة الحريية واشتغلت الوزارة بالاصلاحات الداخلية

ومن هذا التاريخ كثرت الاشاعات من سوء سيرة الولاة فرأى الوزراء وجوب تحقيق تلك الاذاعات وأرسلوا الازميرلي امين افندي الى حلب لتحقيق احوال واليها وأرسلوا مدحت افندي لتحقيق ما ارتكبه ميرزا سعيد باشا والي سلسرة ومعمر باشا والي ودين وكلفوا مدحت افندي ايضاً بتحقيق حوادث البلغار في طرنوي واصلاح شؤونهم

اما ميرزا سعيد باشا فقد ظهرت فظائمه واشتهرت قبائحها في انحاء الولاية وتحدث الناس بافعاله وافعال الدفتر دار وثبتت تلك الفضائح بعد التحقيق فعزل وعزل أعوانه وقدمت اوراقهم الى مرجعها وتوجه مدحت افندي الى طرنوي وحل مشكلة البلغار وتوجه الى ودين وعرف ان معمرباشا هو المسبب لسوء احوال الولاية وان الافسادات الحاصلة في جهات (عدلية) و (بلغرادجق) و (لوم) قد حصلت بسبب دسائس البلغار ولم يبق للحكومة نفوذ بل لم يبق لها نفر من انفار الضابطة في جهة (عدلية) فتوجه مدحت افندي الى هذه البلدة وتجول في القرى التابعة لها ووفق لاعادة الموظفين الى وظائفهم وارجاع الامن الى نصابه

﴿ سياحت مدحت افندي الى اوربا ﴾

(وأسبابها)

قام مدحت افندي بوظيفته الاخيرة خير قيام وعاد الى دار السعادة وصدق مجلسا الولا والوزراء على الاوراق التي أرسلها قبل عودته وقدر المجلسان خدماته وصداقته وكان ينتظر المكافأة ولكن ميرزا سعيد باشا المعزول من ولاية سلسرته وقامتأما ابراهيم باشا كانا من رجال السراي فقامتعضوا من مدحت افندي ورفعوا أمرهم الى السلطان عبد المجيد فلم يقبل الماين تحقيقات مدحت افندي وردها وأرسل سعيد بك احد رجال الدولة المدعو فخري بك لاعادة التحقيق واعطاه مرتباً ضخماً ومصاريف سفر لا تعطى لثله ولكن فخري بك قد توجه وعاد ولم ينقض حرفاً واحداً مما كتبه مدحت افندي ففعل الباب العالي ما كان قد صمم عليه بأعادة تحقيقات مدحت افندي وظهر سر العبارة الآتية (الحق يعلو ولا يعلى عليه) ولكن

حصول ما حصل قد أثر في نشاط مدحت افندي وثبط همته وتوفى المرحوم رشيد باشا فتأثر مدحت افندي لوفاته ايضاً وعزم على السياحة في اوربا فاستحصل على رخصة وتوجه اليها سنة ٧٤

كان مركز حكومتنا يقضي على القائمين باعباء وظائفها بمعرفة اللغة الفرنسية واذا كان الموظف في الباب العالي مشتغلاً بالسياسة تحتمت عليه دراستها ولما كان مدحت افندي في زمن الدراسة كان الناس لا يعلقون على اللغة الفرنسية كبر أهمية ولذا فانه لم يتعلم هذه اللغة ولم يعرف كلمة واحدة من مفرداتها الى أن وصل الى الخامسة والثلاثين من عمره وبعد مسألة (القريم) رأى مدحت افندي وجوب تعلم تلك اللغة فكان يدرسها ويشغل بوظيفته في الباب العالي وساعدته السياحة على ترقية هذا اللسان

أقام مدحت افندي في اوربا ستة اشهر زار في غضوننا باريس ولوندره وفيينا وبلجيكا ووقف على اسرار ترقى الفرنسية وتقديمهم وعاد الى الاستانة وفي سنة ٧٥ ترقى الى رئاسة مجلس الوالا

﴿ ترقى مدحت افندي الى رتبة الوزارة وتعيينه والياً لولاية نيش ﴾

وبعد مدة عاد محمد باشا القبرصلي الى مركز الصدارة ولكنه لم يشتغل في هذه المرة بما كسبه مدحت افندي بل سألته ووثق به واستعان بذكائه وكانت روسيا تدس الدسائس في بلاد البلغار فتوجه الصدر الاعظم بنفسه الى (روسجق) و(ودين) و(نيش) وعزل بعض الموظفين لسوء سيرتهم وعين رؤوف باشا زاده عثمان باشا والياً لولاية نيش وكانت الدسائس تتزايد والامور تزيد تعقيداً فاختر الباشا مدحت افندي لهذه المهمة وطلب من السلطان عبد المجيد توجيه رتبة الوزارة اليه فلبى السلطان طلبه ونال المترجم رتبة الوزارة وعين والياً لولاية (نيش) سنة ٧٧

﴿ ثوران الافكار العمومية ﴾

(صدارة رشدي باشا - خلع عبد العزيز وجولوس السلطان مراد)
توات على الدولة الغوائل الخارجية والداخلية وانواع الظلم والجور وكثر الضغط

على الامة وقال الناس ان نديم باشا الوزير الاكبر هو سبب كل المصائب ولكنهم كانوا يجزمون بأن مثل هذه الفظائع لا يتجاسر اي وزير عليها الا برأي السلطان ورضاه خصوصاً وانه قد ظهرت مثالب الرجل في صدارته الاولى ورغماً من ظهورها اعيد الى منصب الصدارة وكان السلطان يعضده فاختلفت الاقوال وفكر الناس في وجوب خلع السلطان للخلاص من محالب الاستبداد فكنت اذا رأيت خمسة من أفراد الامة مجتمعين وذكرت لهم احوال الحكومة وما صارت اليه اظهروا لك اليأس والحيرة وقالوا ان دوام هذا الحال سيودي بحياة الشعب ويوقع الحكومة في ما لا تحمد عقباه ولم يتجاسر احد على تحذير عبد العزيز ولو خاطبه مخاطب في تلك الشؤون فانه لا يصغى الى نصيح النصحاء ولذلك اتحدت الافكار على وجوب خله وانتشرت هذه الفكرة بين صغار موظفي الحكومة وكان الناس قد أصيبوا بأزمة مالية بسبب مسألة السهوم العمومية وتضاعفت احمقاهم لان محمود نديم باشا كان يعمل بأشارة الجنرال (ايغتاتيف) وشعروا ايضاً بسعي الحكومة في عقد قرض قدره ٤ ملايين من الليرات وفضلا عن كل هذا وذاك فقد كانت عيوب الرؤساء ظاهرة وفظائعهم شائعة فاشتد غيظ الناس وغلت مرآجل صدورهم بظهور مسألة الهرسك التي لم تكن سوى نتيجة اغفال الحكومة لمصالح الامة وزاد حنقهم ايضاً حينما سمعوا بامتداد الثورة الى (فلبه) و(ادرنه) وامتناع الحكومة عن ارسال مقدار من عساكرها لاطفائها وعزها عدداً من الموظفين لاشتغالهم بتسكين الثورة وانتهاز البلغاريين فرصة امتناعها عن ذلك وذبحهم المسلمين فتأثر العموم من جراء فظائع البلغار وكان تلامذة جامع الفاتح من سكان الروميلي قد حضرت الى عدد منهم مكاتيب تنبئهم بان البلغار قد قتلوا اباة بعضهم واخوة فريق منهم واخوال الفريق الآخر وان اموال بعضهم قد نهبت فتركوا الجامع وعرضوا امرهم على المسابن فلم يحظوا بجواب فظهر لهم ان للسلطان ضلعاً في هذه المصائب وقرروا فيما بينهم وجوب الذهاب الى الباب العالي لمقابلة الصدر الاعظم وارسلوا قسماً منهم الى باب المشيخة

لمقابلة شيخ الاسلام وكان محمود نديم يشتغل بانهاء مسألة القرض فلما رأى تألب
الجموع لجأ الى الفرار

وتسبب عن هذه الحادثة عزل نديم وعزل حسن افندي شيخ الاسلام فخفف
الاول رشدي باشا الكبير وخلف الثاني خير الله افندي وصدرت ارادة السلطان
ايضاً قاضية باحضار حسين عوفي باشا من مدينة بروسه وتعيينه بوظيفة (سرعسكر)
وتعيين مدحت باشا في الوزارة بوظيفة عضو في المجالس العالية

وكان يغلب على الظن أن تغيير الوزارة يسكن غليمان الرأي العام ولكن السلطان
عبد العزيز في السنين الثلاث الاخيرة لم يسمع نصيحة مخلص وكان يفعل ما يوحى به
اليه ضميره ويأخذ المبالغ الطائلة من مال الحكومة بلا وازع وكانت كبرياؤه تضطره
الى عدم ترك القديم

اما محمود نديم باشا فقد استحوذ على القناطير المنقطرة من الاموال واستمال بها
رجال السراى ووصل نفوذه الى الحرم فكان السلطان لا يثق بغيره ولكنه قد
اضطر بحكم الضرورة الى عزله لذر الرماد في عين الامة مصمماً على اعادته الى منصبه
في اول فرصة

عرف رجال الحركة الوطنية ان محمودا سيعود الى الصدارة وينتقم لنفسه منهم
لا سيما بعد ان تظاهر الجنرال (ايغنايف) بالخوف على حياته واحضر مائة رجل
من رجال الجبل الاسود شاكى السلاح لحراسة السفارة مدعياً ان الفوضى قد
ضربت أطناها في الاستانة بعد عزل نديم وأشاع بواسطة أعوانه في جهات (غلطة)
(بك أوغلي) و(بيوك چارچو) اشاعة لا نصيب لها من الصحة وهي ان المسلمين
سيقتلون المسيحيين ولم يكن غرضه من مقترياته غير القاء الرعب في قلوب الاهالي
ولكن تدمر أهل الاستانة كان يزداد كلما رأوا انخياز سفير روسيا الى نديم وزاد
حقدهم بعد ما أذاع أحد أعوان السفير ان الثورة قد بدت طلائعها فاعتلق النصارى
حوانيتهم وصمم الناس على خلع عبد العزيز اذ علموا ان الخلاص من هذه الاحوال
لا يتم الا بخلعه

على هذا النمط انتشرت اشاعة عزم الامة على خلع الرجل ووصل صدى
ترديدها الى السراي فهاله أمرها وأرسلت والدته جوهر أغا الى مدحت باشا
تطلب منه ابداء رأيه فيما يجب عمله لتسكين سورة غضب الشعب فأسرع بكتابة
لائحة ضمنها الاسباب التي أوقعت الدولة في مأزق الازمات وختمها بوجود اصدار
قانون يكفل للامة حق المساواة ويجعل النظار مسؤولين عن أعمالهم لتلافي وقوع
الثورة المنتظرة البادية علاماتها من الحركات التي يظهرها أفراد الشعب فلم تؤثر
محتويات اللائحة على فكر عبد العزيز وبقيت نتيجتها عقيمة

أما حسين عوني باشا فقد تسبب نديم مرة في نفيه فأعاده السلطان من منفاه
وعينه وزيراً للحربية ثم رفاه الى مسند الصدارة ولكن نديم اضطرت السلطان
الى ابعاده عن الاستانة وتعيينه والياً لولاية (بروسه) فامثل للامر وكان قد لزم
الفراش منذ مدة لمرض اعتراه فطلب الاذن بالبقاء الى ان يقوى على السفر فلم يصدر
له الاذن واستعملوا القوة في ارساله الى منفاه فكان من الناقلين على عبد العزيز
الناظرين الى حالة الحكومة بعين السخط القائلين بوجود خلعه لتخليص البلاد
من براثن استبداده وكان أكثر أقرانه أيضاً قد نالهم شبه ما ناله فاتفقوا على
وجوب الخلع

عاد عوني باشا من منفاه (بروسه) ورأى الرأي العام متمسكاً فتأهب لانهاد
أمر الخلع وأوقف عبدي باشا ورديف باشا قيصرلى احمد باشا وبعض كبار ضباط
العسكرية على نيته

وكان الناس يودون سقوط عبد العزيز ويوافقون على خلعه ولكن الاحوال
كانت تحتم وجوب كتم المسألة عن العامة فاتفق رشدي باشا ومدحت باشا وخير الله
افندي على احضار ولي العهد في التاسع من جمادى الاولى الى الباب الهابوني عملاً
بالاصول القديمة لاجلاس على العرش وقبل الموعد بيومين ارسل عبد العزيز رسولاً
الى عوني باشا يدعوه للحضور الى سرايه فتنصل ببعض الاعذار وظن ان السلطان

قد وقف على جلية الأمر فأرسل الرسل ودعا الى محل مصيفه شركاءه غلساً واحضر
العساكر لتنفيذ الاوامر اللازم اجراءها لتنفيذ أمر الخلع

رأينا من اللازم ان يكون اجلاس ولي العهد على عرش أجداده في باب السر
عسكرية وفي ليلة الثلاثاء استصحب عوني باشا قيصري احمد باشا ورديف باشا
وحسن باشا وتوجهوا الى جوار سراي (طولمه بانجه) في وقت الشفق لمقابلة العساكر
المحضرة لتنفيذ أوامر الامة اما رشدي باشا فقد توجه معي الى باب السر عسكرية
رأساً (الناقل لهذه العبارات هو المرحوم مدحت باشا) وكانت نفوس الافراد تنوق
الى التخلص من ربة الاستعباد فانتشر الخبر بسرعة عجيبة وتألبت الجموع فحضر
بعض الموظفين وقسم من الاهالي الى باب السر عسكرية وحضر ايضاً بعض من
يعنيهم ذلك الامر قبل ان يصلهم امرنا القاضي بحضورهم فاكثظ ميدان باب السر
عسكرية ورجبة بايزيد بوفود الاهالي وصار الناس يهني بعضهم بعضاً قبل وصول ولي
العهد واعلان خبر جلوسه ومبايعته وعم الفرح واستبشر الجمهور المحتشد بدخول
الدولة في عصر جديد بخلاصها من برائن عبد العزيز بلا ثورة وبلا سفك دم

وبيناهم في محافل السرور حضر السلطان الجديد ومعه حسين عوني باشا
وتمت بيعته بحضور الملايين وحررت التلغرافات الى اوربا والى الولايات لاخبارها
بأمر توليته ونادى المنادون في الاستانة معلنين جلوسه كما جرت بذلك العادات
القديمة فأقام الاهالي ورجال الحكومة في الاستانة وفي الولايات الزينات ثلاث ليال
ورفعت سفن الدول الاجنبية الرايات وانارت المصابيح ولكن السفن الروسية لم ترفع
راياتها الا بعد يومين

واستاء الروس من عزل نديم باشا وزادهم خلع عبد العزيز ضعفاً على ابالة
فاجاب امبراطورهم على تلغراف تعيين مراد بتلغراف ارسل منه صورة الى سفارة
الروس في الاستانة واخرى الى نظارة الخارجية العثمانية اظهر فيه تأسفه من جرأة
قائد على خلع السلطان بقوة الجيش

خلع عبد العزيز لسوء ادارته باتفاق الامة ولم يتعرض احد لشخصه بل بقي

معزراً وكان السلف يسجنون السلطان المخلوع وكنا نعلم ان عناصر الدولة وسكان الولايات المسيحيين وغير المسيحيين غير راضين عنه ولا يتصور عاقل ان فردا او جماعة يقومون بنصرته وكنا نهدد الطريق لاعلان الدستور وهو لا يجيز حبس حرية شخص ولذلك قررنا قبل خلعه تخصيص سراى (بكر بك) لاقامته واقامة عائلته وقال البعض يجب ان نصرح له ولعائلته بالتوجه الى اوربا اذا اراد ولكن التعميل بخلعه قبل اليوم المحدد قد اضطرنا الى تأخير تخصيص محل اقامته لاستصدار أمر من خلفه بالنقل في المستقبل واكتفينا باقامته في سراى (طوبقوبو) هو وتوابعه أتمنا امر البيعة في باب السر عسكرية وانتقل السلطان الى سراى (طولمه بجه) وتبعه النظار واجريت رسوم التبريك المعتاد اجراؤها ورأى السلطان تألب الجموع فحصل له وهم اضطره الى اصدار ارادة سنية قاضية ببقاء النظار فبقيت انا وحسين عوني باشا وخير الله افندي ورشدي باشا ثلاث ليال في السراى امتثالاً لارادة السلطان

وكان مركز باشكتابه الماين يقتضي وجود رجل امين على اسرار الدولة فاتفقنا على تعيين سعد الله بك لهذا المنصب وعينت انا رئيساً لمجلس شورى الدولة اما محمود نديم باشا فقد تظاهر بالحياد ولزم محل مصيفه ولكن اخلاقه المعلومة كانت تضطره الى دس الدسائس وكان الناس ناقلين عليه فرأينا بعد التشاور وجوب ابعاده عن الاستانة وارساله الى محل يختاره هو لالتقاء نمائمه وحفظ حياته من اهل الاستانة وسألناه فاختر الاقامة في (چشمه) وتوجه اليها

وكتب عيد العزيز الى مراد مكتوب تبريك بخط يده ذكر له فيه رغبته في الانتقال من سراى (طوبقوبو) فعرضنا عليه اسماء سرايات مختلفة فاختر من بينها دائرة (فرعية) فصدرت الاوامر الى من يلزم لغرشها واشتغل العمال ليل نهار لاعادها لاقامته هو ووالدته وأولاده وتوابعهم وعددهم يربو على ٣٠٠ وفي يوم الجمعة تم نقلهم والتحق بعبد العزيز رجال معيته وبقوا في سرايه مدة ولكنا قد اتفقنا على استبدالهم ببعض رجال معية السلطان الجديد لاننا لم نر لزوماً لبقاء رجال

التشريعات والكتاب وغيرهم في معية سلطان مخلوع

﴿ الشروع في اعلان القانون الاساسي وانتحار السلطان عبد العزيز ﴾

لم تقصد بمخلع السلطان والدخول في المآزق الحرجة سوى تخليص الدولة من أزمته واتخاذ مسلك ثابت للإدارة والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورى بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها افراد الامة احرارا متساوين وكانت هذه المسألة قد ارتسمت في فكري حين كنت والياً في (الطونه) فكتبت قانوناً موافقاً لروح العصر وحن وقت العمل به ولكن اعلازه كان يقتضي موافقة اقراني على محتوياته فتباحثنا في مواده في اللبالي التي قضيناها في السراي فقال حسين عوفي باشا ان القانون الذي سنعمل به سيعتقد هذا القانون في بعض مواده الاساسية فيجب ان نهمل ذكره في الخط الهايوني الذي سنشره فاكتفينا بتنزيل مرتبات السراي السلطانية الى ٦٠ ألف ليرا وألحقنا معدن فحم (اركلى) وبقية المعادن والاراضي المسماة بالشفالك الهايونية بنظارة المالية و باجراء بعض مقدمات الاصلاح ولكن الاساس الذي يجب النظر اليه هو اختلال ادارة الحكومة واذا استمر الحال على هذا المنوال فلا يتم البرء من الداء الا بالشورى التي ينتظرها الناس بفروغ صبر وقد جلس السلطان على تخت اجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية فزاد انتشار فكرة الشورى بين الاحرار وقررنا تشكيل مجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب اجراؤه لاعلان الشورى

انتهينا من اتعاب حفلات التويج وتوجه الموظفون الى مناصبهم واشتغل كل بعمله فتغلبت الكبرياء على عبد العزيز وانتحر في يوم الاحد وهو اليوم السادس لخلعه وذلك انه طلب من احد خازنداراته مقرضاً وقطع به شرياني ذراعيه فمات وانتشر خبر انتحاره بين الناس ولكنه لم يصلني الا بعد زمن لاني كنت اقيم في مصيفي وهو بعيد عن الاستانة

كان عبد العزيز يقيم مع والدته ونسائه وجواريه وعددهم يربو على ٣٠٠ وقد انتحر وهم محيطون به ومن العيب ان يتقول احد في مسألة انتحاره ولكننا رأينا ان

نجري ما اعتدنا اجراءه فيما اذا مات احد موتا فجائياً وقررنا باجماع الاراء احضار اطباء السراى السلطانية واطباء سفراء الدول الاجنبية فعينه تسعة عشر طبيباً وتقلت جثته الى سراى (طوبقوبو) اتباعاً للعادة القديمة وبعد غسله وورى التراب في مدفن السلطان محمود

﴿ مرض السلطان مراد وواقعة حسن الشركسي ﴾

ذكرنا ان السلطان الجديد قد حصل له وهم تسبب عن تألب الجموع التي لم ير مثلها في حياته وظهرت عليه علامات مرض عصبي ولما وصل اليه خبر انتحار عمه اشتد عليه المرض . وفي اليوم الثامن من جلوسه ظهرت عليه علامات تشابه الجنون فاعتم أعضاء البيت المالك ورجال الدولة ولكن لامرد تقدر الله . ولما كانت علة الجنون لا تشابه غيرها من العلل كتمنا أمر مرضه عن الجمهور فلم يعلم به غير الاطباء وأعضاء البيت المالك ومضت مدة خمسة وعشرين يوماً ولم تحف فيها وطأة المرض بل اشتدت وكان حراسه يمشون معه في بستان القصر فرمى نفسه في حوض البستان وانتشر الخبر في الاستانة

تأخرت مصالح الشعب بسبب اشتغالنا بمخفلات الجلوس وكانت الفوضى قد ضربت أطناها في بلاد الروميلي فزادت نارها تأججاً وخالف رؤوف باشا والي كريت النظمات التي سنها المرحوم عالي باشا لادارة الجزيرة فاختل نظام الجزيرة واختلط فيها الخابل بالنايل فاشتغلنا باعادة الامن الى نصابه في الروميلي وفي الجزيرة ولم يكفنا شغل النهار فكنا نجتمع في منازلنا وكان النظار قد حضروا الى محل مصيفي في ليلة الاربعاء بعد جلوس السلطان بأسبوعين وبينما نحن نتذاكر في المسألة الكريية بعد تناول الطعام أنا وخير الله افندي شيخ الاسلام وصفوت باشا وجميع الوكلاء ما عدا الصهر محمود جلال الدين باشا ناظر التجارة اذ دخل علينا المدعو حسن الشركسي أحد ضباط العساكر النظامية الحامل لرتبة (قول أغاسي) وذلك بأنه قد خدع البواب مدعياً انه يريد عرض أمر ذي بال على (سر عسكر باشا) وصوب احد المسدسات التي قد احضرها معه الى معدة حسين عوني باشا ورماه

برصاصتين ولما لم يكن معنا سلاح ندافع به عن أنفسنا التجأ أكثرنا الى الهروب
ولكن قيصرلى احمد باشا ناظر البحريه قد حاول القبض على الرجل فجرحه
جرحين احدهما في ذراعه والآخر في أذنه فخرج احمد باشا من الحجرة وتبعه القاتل
فأغاثة خادمى احمد اغا وقبض على ذراعى القاتل من وراه فتملص منه ورماه برصاصة
في رأسه قضت على حياته

فحف خدام النظار وياورانهم للقبض عليه وكان قد أحضر معه خمسة مسدسات
وكان يحسن الرماية فوقف على أعلى سلم وصوب مسدساته فخرج بها خمسة من أفراد
العساكر فلم يتجاسر احد على القرب منه وبعد ان قتل القاتل وجرح احمد باشا
وخسة غيره عاد الى الحجرة ورأى راشد باشا وقد أغمى عليه فقام الباشا حين رآه
فرماه برصاصة اصابت رأسه وأجهز عليه فذبحه بخنجر كان معه وكان يحاول احراق
الحجرة باشعال النار في بابها فحضرت فرقة من العساكر النظامية وقبضت عليه وبينما
هى سائرة به رأى شكري بك من حاملي رتبة (قول أغاسي) بنظارة البحريه واحد
ياوران الصدارة فاخرج مسدساً كان قد خبأه في حذائه ورماه برصاصة قتله ايضاً
ولما سئل القاتل عن سبب جنائته قال انه لم يقصد سوى قتل حسين عوفي
باشا ولكن بقية المقتولين قد صادفوه عرضاً وحاولوا منعه او القبض عليه فاضطر الى
قتلهم وتقول الناس في هذه المسألة فقال بعضهم انه قد اراد الاخذ بثأر عبد العزيز
وذهب بعضهم الى انه مدفوع بموثرات خارجية والحقيقة هي ان القاتل هو ابن احد
بكوات الشراكسة الذين يقطنون الروميلي وهو من أقارب المحظية الثالثة في السراى
أو من المنتسبين اليها ولهذا الاسباب اندمج في سلك تلاميذ المكتب العسكري
وبعد اتمام الدراسة نال رتبة الملازم وكانت المنظمات تقضي بأن الذين يخرجون
من المكتب برتبة الملازم ويذهبون الى الفيلق السادس يرقون الى رتبة اليوز باشى
فطلب صدور الامر له بالذهاب الى بغداد (مقر الفيلق السادس) ونال رتبة اليوز باشى
ولكن قوة انتسابه للسراى دفعته الى محاولة البقاء في الاستانة فخبسه عوفي باشا غير
ان السراى قد حتمه فبقى في الاستانة وبعد مدة قصيرة وعد بالذهاب الى بغداد

ونال رتبة (قول أغاسي) بواسطة السراي وتعين يوراً ليوسف عز الدين افندي وهو شاب صعب المراس جريء المقدم . وقد استدعاه عوني باشا مرة وأمره بالذهاب الى بغداد فهجم عليه وكان السردار عبدي باشا حاضراً فمنعه وصحب عوني باشا عز الدين افندي مرة قبل الخلع بأسبوعين في جهة (كوكسو) وحاول حسن رميه بالرصاص فمنعه أصحابه وبعد مسألة الخلع صدر أمر السر عسكريه بارساله الى بغداد فامتنع عن الذهاب وصدر الامر بحجسه وقبله وطلب مهلة لتدارك لوازم السفر وكان مصمماً على اجراء الجناية فتوجه الى محل مصيف عوني باشا فاخبروه بأنه في المجلس فحضر وقتله

قد يكون الجنائي صادقاً في ادعائه بأنه لم يقصد سوى قتل عوني باشا ولكن الاحوال كانت تدعو الى الشبهة وتفرض جدلاً انه قتل بعض المقتولين لانهم حاولوا القبض عليه فلم قتل راشد باشا والياور شكري بك بلا سبب ولا أدنى تعرض ولم حاول دخول الحجرة التي التجأ اليها رشدي باشا الصدر الاعظم ورفيقه قيصرلى احمد باشا وحاول احراق ستارة بابها . وبعد ان قتل حسين باشا واحمد اغا اسودت الدنيا في عينيه وصار كالوحش المفترس ولو صادفه اذ ذاك طفل لقتله

وبعد هنيهة مات احد انفار الضبطية المجرحين بمذوفات مسدسات هذا الوحش فبلغ عدد المقتولين خمسة وعدد المجروحين عشرة فكانت جنايته من اكبر الجنايات لا سيما وقد اعترف هو وقبض عليه رجال الحكومة متلبساً بالجناية فقرر مجلس الوكلاء باتفاق الآراء الحكم بصلبه

وكان حسين عوني باشا من رجال العسكرية المعدودين واشتهر راشد باشا ايضاً بمواهبه العقلية ووقوفه على غوامض السياسة الخارجية ففقدت الامة بقتلها رجلين من عظمائها في موقفها الحرج لانها كانت محتاجة الى لاول تسكين ثورة الروميلي والى الثاني لاتمام نفس المسألة من الوجهة الخارجية والامة تعرف قدر الرجال والله يعلم مقدار تأثير هذه المسألة الفظيعة في أفرادها الصادقين وكم فرح اعداء الدولة بقتل هذين العظميين والناس لا يتعجبون من فرح الاعداء بموت اهل الحزم وانصار

الام اذا كان الاعداء من الاجانب ولكنهم يتميزون غيظاً اذا رأوا سرور بعض أفراد الامة مثل محمود نديم باشا وأشياعه وغيرهم من الذين يعيشون بمال الامة ويرفلون في أثواب عزها

لان حسين عوني باشا قد نشأ من قسم (أركان حرب) المدرسة الحربية وفاق أقرانه بالشجاعة والاستقامة وتمرن على الاعمال العسكرية فترقى بجده ونشاطه مرات الى مقام السر عسكرية فانتظام العساكر وترتيبهم وتعليمهم في زمن عبد العزيز لم يحصل الا بجد عوني باشا واجتهاده وكان موضع ثقة العموم فلو مد الله في عمره وبقي في منصبه لخلصنا من ورطة حربي الصرب والجبل الاسود ولم تجسر روسيا على محاربتنا ولو حار بناها لئلا الظفر بتدبيره ومهارته العسكرية التي يقدرها العامة والخاصة قدرها فقتل رجل بهذه الصفات بيد أئيم غادر خائن رذيل كحسن الشركسي لا يعد انتقاماً كما يزعم بعض الخونة لانهم يكونون قد جنوا على الامة بضياح قسم من أملاكها وسفك دماء عدد من العساكر الارباء في الحرب الاخيرة (يريد الحرب الروسية الاخيرة) ولكن جرت الاقدار وقضى الامر فأصيب السلطان بهذا المرض وانهد ركنان عظيمان من أركان الدولة فاختلفت أمور الحكومة ولكن أرباب الحل والعقد قد عجلوا بتعيين السردار عبدي باشا وكان قد سافر الى (ادرنه) لمهام تتعلق بالمسألة البلقانية فوكل عنه رديف باشا وعينوا صفوت باشا لنظارة الخارجية وكانت مسألة الجبل الاسود ومسألة الصرب ومسألة البلقان وغيرها قد اشتعل لهبها فأرسل المرحوم عوني باشا عبدي باشا كما أسلفنا الى (ادرنه) وسير مختار باشا الى قومندانة الفرقة التي أحدثناها لولاية الهرسك وأرسل أحمد ايوب باشا لرئاسة العساكر المحتشدة بجبهة (نيش) وأرسل الفريق عثمان باشا الى (ودين) ومحمد علي باشا الى (يكي يازار) وارسل العدد الكافي من العساكر الى اشقودره والى بعض المواقع ولكن الجنرال (جرنايف) قد حضر مع عدد من ضباط الروس واعان الصربيين على اكمال اللوازم الحربية فأعلنت صربيا الحرب ضدنا عقب وفاة حسين عوني باشا وابتدأت عساكر الجبل الاسود بمناوشتنا في جهات (الهرسك) و(اشقودره)

وثار نأثر ثورة البلغار فامتدت في طول البلاد وعرضها ولكن (السر عسكر) عوفي باشا الذي رتب الخرائط العسكرية وناظر الخارجية الذي قد وقف وقوفاً تاماً على نيات الدول وخابرها في شأن هذه المسائل قد توفيا فبقيت هذه المشا كل بين يدي الباب العالي ولم يكن فيه من الوكلاء (النظار) غيري أنا ورشدي باشا وصفوت باشا وكان تكالب الكوارث يشغلنا من جهة وفقدان المال يزيد الازمة اشتعالاً فلم نوفق الى عقد قرض بسبب الازمات الداخلية والخارجية فجبنا باصدار اوراق مالية بثلاثة ملايين من الليرات (هذه الاوراق هي التي يسميها عارفوها باسم القائمة) وكنت أوذي وظيفتي بالباب العالي نهائياً وأرى الشؤون الحربية بالاشتراك مع رشدي باشا ليلاً وطالماً توجهنا الى الطوبخانه وقضينا الليالي في شغل شاغل الى الصباح وكنا لا نعجز عن القيام بهذه الاعباء ولا تكمل عزائمنا من طول الكد واجهاد الفكر

أما القوة العسكرية فكانت كافية لمقابلة هذه الصدمات ولكن أهل الروميلي وأهل الاناضول وطلاب العلوم في جوامع الاستانة قد جمعوا جموعهم وطلبوا منا قبولهم كجند متطوعين فرأينا من الواجب حثهم على قبول النظام العسكري والتزني بالزي الجهادي والاذعان لاوامر الضباط وتعهدت أنا ومحمود جلال الدين باشا باخراج هذا القرار الى حيز الفعل واحضرتنا رئيسهم وافهمناه وجوب التعليم العسكري وتعيين العدد اللازم من الضباط لقيادتهم واشترينا لهم السلاح والكسوة من المال الذي جاد به المتبرعون لان الدول المسيحية ومسيحي الروميلي كانوا يعززون ما حدث في الولايات البلقانية الى رجال الدين ولا يصح أن نرسل المعممين الى تلك الولايات قبل تغيير زعيمهم وتعيين عدد من الضباط لمنعهم عن اجراء ما يغير شعار الانسانية. اما تدريبهم على الحركات الحربية فكان برحبة (بكقوز)

وقد انطنا أمر هذه المهمة بشاب حائز لرتبة الميرلاي يقال له هدايت بك (هدايت باشا الآن) فاجتهد الشاب وجد في تعليمهم وأشرف عليه محمود جلال الدين باشا فتمرنوا في مدة تقل عن شهرين وبلغ عددهم اثني عشر طابوراً فأرسلناهم الى

فرقتي (ودين) و (نيس) واشترطنا على من يحب الالتحاق بهم من سكان بلادهم التزبي بالزي العسكري والاذعان لاوامر الضباط وقد أظهروا شجاعة غير متظرة في الحرب الصرية

على هذا النسق ظهرت اثار حب الوطن في المسلمين ولما سمع المسيحيون ان الحكومة ستصدر قانوناً يوجب المساواة بين المسيحي والمسلم واليهودي وغيرهم من العناصر بدت على وجوههم علام المييل الى حب الوطن . وكان المسيو اينغنايف (سفير الروس) يشغل بإيجاد القلائل فتارة يثير العصابات في الروملي وطوراً يسعى في افتراء الا كاذيب بواسطة الجرائد المأجورة ونشر (الكونت اندراسي) ناظر خارجية النمسا مذكرات في اوروبا ذكر فيها مسيحي البوسنه والهرسك وقال ان الهلال والصليب لا يجتمعان في راية واحدة فأردت أن أكذب روايته وشكلت فرقة عسكرية من متطوعي المسيحيين وأمرت ان يرسم على راياتها الصليب والتجم والهلال وبعد ان رأى أهل الاستانة تلك الفرقة أرسلناها الى فيلق (نيس) فلم يتأخر أفرادها عن المسلمين في حروبهم وأظهروا مهارة فائقة برهنوا بها على صدق وطنيتهم ولم ينج منهم الا نفر قليل

أما خطبة السلطان فقد ذكرنا فيها ان الحكومة تفكر في احلال الشورى محل الاستبداد وان افراد رعايا الدولة العلية سيتساوون في الحكومة الدستورية والدستور يعلنه الملك ولكن السلطان قد أصيب بمرضه المعلوم فلم يتمكن من اعلان الدستور ورغماً عن كل هذا فقد اشتغل موظفو الحكومة بالتخلص من الكوارث الداخلية والطارئة وكنا نعلم ان الخلاص من المشاكل متوقف على وضع القوانين الدستورية . وكان النمسيون قد سدوا فرضة (قلق) فاجتمعنا في الباب العالي للتشاور فيما يجب عمله في شأن هذه المسألة وانضم اليها كل الوزراء وعدد من العلماء فانتهزت فرصة اجتماعهم وأخرجت من جيبي صورة القانون الاساسي وعرضتها عليهم فقرروا باتفاق الآراء تبديل بعض مواده وجعلها موافقة لروح العصر وناطة أمر تبديلها لجنة تكون

تحت رئاستي وكان بعض اعضاء البيت المالک حاضرين فأعطينا لكل واحد منهم صورة من هذا القانون

﴿ جلوس السلطان عبد الحميد ﴾

عينا بعض نطس الاطباء لمراقبة سير مرض السلطان المريض واحضرنا له طبيباً من (فيينا) قد اشتهر بين اقرانه بمهارته في مداواة هذه العلة فأفرغ جهده ولكن العلة قد تغلبت وطال المطال فكثير المتقولون في الاستانة وفي الخارج وكنت أنا ورشدي باشا نشغل بدقائق الامور ونحلها ولكن الحل النهائي في الحكومة يتوقف على المرجع الاخير وهو السلطان ذو الرأي النهائي الذي اذا فقدت وسائل الكمال وبقيت الامور بترأه وكان قد مضى على جلوس الخليفة شهران ولم تقدم له اوراق اعتماد سفراء الدول الاجنبية اما ولاية العهد فكانت قد انتقلت الى عبد الحميد فقرر النظار والعلماء بالاتفاق اجلاسه على تخت الخلافة في يوم الخميس الحادي عشر من شعبان سنة ٩٣

وكان عبد الحميد قد قرأ نسخة القانون الاساسي (الدستور) وقال ان الدولة لا تلخص من مشاكلها الحاضرة الا اذا عملت حكومتها به فلما جلس على التخت جلس وهو مصمم على اعلانه كالسلطان مراد وحوله على مجلس الوكلاء لتدقيق مواده واعلان احكامه في أول فرصة

اما مواد القانون الاساسية فكانت قاضية بمساواة عناصر الدولة واتحادها تحت العلم العثماني ونوال كل فرد حريته التي يبيحها له القانون وترقية قوة الدولة وعظمتها والمقارنة بين دخل الحكومة وخرجها فكان محبوبو الدولة ينتظرون اعلان القانون بفارغ صبر ولكن أرباب الغايات الذين قد اعتادوا الاستفادة من الاستبداد كرجال السراي الهايونية وغيرهم من ذوي المآرب لم يحبذوه قائلين انه يحو استقلال السراي ويقلب الحكومة الى جمهورية فانقلت اقوالهم الى المعمين فروجها الاعداء وكادت تنتج ثورة في الاستانة في أواخر رمضان لولا تيقظ رجال الحكومة وقد ظهر المحرضون بعد العيد وهم القاضي عسكر (شريف افندي) ومحيي الدين افندي

ورامز باشا وبعض الطلبة ورضا بك احد رجال محمود نديم باشا وكان الاول راغباً في الحصول على وظيفة مشيخة الاسلام اما محي الدين افندي فقد كان استاذاً ليوسف عز الدين افندي وبهذه الوسيلة رقى الى رتبة (قاضي عسكر) وتقم على الحكومة بعد خروجه من السراي السلطانية ففعل ما فعله هو ورفاقه وجاراهم بعض العوام وكنا نعرف ان اعداء الدستور سينقلبون الى اصدقاء اذا اعلن ووقفوا على فوائده وان هؤلاء النفر القليل لا يؤثرون على افكار العقلاء ولكن وقوع الحكومة في الازمات قضى علينا بعدم تركهم فأبعدنا قسماً منهم الى جزائر بحر سفيد وارسلنا المعممين الى بلادهم بعد صدور قرار مجلس الوكلاء واقترانه بالارادة السنية

اما عسكرنا فقد انتصر نصراً ميبناً في نيش وفي ودين واستولوا اخيراً على قلاع (علكسنيجه) وهزموا جيوش الصرب هزيمة قضت عليهم القضاء الاخير وتقدموا الى قرب بلغراد (عاصمة الصرب) فعرف الناس ان استيلاءهم عليها محقق وخالف الروس عاقبة انتصاراتنا فحضر الجنرال (ايغنايف) الى الباب العالي وطلب منه الهدنة لمدة ستة اسابيع وكان طلبه يخالف قواعد الانصاف ولا ينطبق على القواعد الدولية ولكن الضرورات قضت على الباب العالي بقبوله وأصدر الامر للقومندان بالتوقف عن الحرب

﴿ جلوس السلطان عبد الحميد ومؤتمر دار السعادة ﴾

رتب الروس فتنة البلغار وجعلوا مسألة الهرسك كمقدمة لها وتوسعوا في دسائهم بالتدريج فاتبعوها بمسألة الجبل الاسود فالمسألة الصربية ولما دارت دوائر الحرب على الصرب اضطرهم الاحوال الى تبديل طرق دسائهم فتعللوا بمسألة ثورة الروميلي ومسألة السهوم المالية ولبعض اسباب وطلبوا من اوربا عقد مؤتمر لمصلحة بلغاريا منتهزين فرصة تغير الافكار العمومية فعيّنت الدول الست ستة سفراء ووصلوا الى الاستانة

وضع اعضاء المؤتمر في اول شرط من شروطهم مسألة استقلال بلغاريا الداخلي

واحالة أمر انتخاب الموظفين الى البلغاريين وتنظيم عسكر بلغاري من طائفة (المليس) واعطاء قسم من ايرادات البلاد البلغارية الى الحكومة العثمانية
وصرف القسم الاعظم في نفس الولاية وابعاد العساكر العثمانية عن البلاد البلغارية ما عدا العساكر المقيمة في القلاع واجلاء الشراكسة عن الاراضي البلغارية بنقلهم الى جهة الاناضول وغير ذلك وهي نفس مطالب سفارة روسيا التي طلبتها في زمن صدارة محمود باشا للمرة الثانية وكان قد عزم على تنفيذها ولكن الوكلاء لم يوافقوه وكانت الاحوال تضطرننا الى الاذعان لتلك الطلبات وكنا نلاحظ من جهة أخرى ان بلاد الصرب قد نالت اقل من هذه الامتيازات قبل اربعين سنة ثم تدرجت بنواها الى الاستقلال فاذا قبلنا ما طلبه البلغاريون خرج أكثر من نصف الروميلي من يد الدولة ومن العبث ان نوافق على تلك المطالب . ولذا قرر مجلس الوكلاء باتفاق الآراء وجوب تعديلها وابلغ قراره الى صفوت باشا وادهم باشا مرخصي الدولة

﴿ صدارة مدحت باشا الثانية في ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٧٦ ﴾

بينما كان المؤتمر مشتغلاً بالمذاكرات عزل رشدي باشا ووجه اليّ مسند الصدارة للمرة الثانية

شمرت عن ساعد الجد ونظرت الى أحوال الحكومة وقد اتابتها مسألة الروميلي من جهة ووقفت موقف اليأس بين غوائل تكاليف المؤتمر من الجهة الثانية وزادها تعقيداً تكاليف الكوارث الداخلية والخارجية وفراغ المالية من الاموال لان ما أحدثناه من الاوراق المالية (القائمة) في زمن رشدي باشا قد صرف على العساكر فتعطلت أعمال الدولة لفقدان النقود فرأينا من الواجب علينا البدء باخراج أوراق مالية بملوني ليرة على شرط ان نبقى قيمة الاوراق محفوظة بجمع قسم منها في كل سنة واعطاء فائدة لحاملها وهذا لا يتم الا بتخصيص ضمان مالي ولذلك قد خصصنا من ايراد اعشار أزمير وبعض الولايات مبلغاً سنوياً قدره أربعمائة الف (كيساً) وبهذه الوسيلة حفظت الاوراق قيمتها مدة من الزمن

اعلان القانون الاساسي (الدستور)

كامل تحوير مواد القانون الاساسي الموضوع على بساط النقد بين أيدي الوكلاء
 فاجتمع المجلس العمومي المركب من الوكلاء والعلماء والاعيان وصدق عليه بعد قراءته
 وأرسل الى جلالته السلطان لتصدر به الارادة السنية فصدر الخط الهايوني القاضي باعلانه
 فأعلن في السابع من ذي الحجة سنة ٩٣٣ في ميدان الباب العالي بحضور الجموع المحتشدة
 ووزعت نسخة في اطراف المملكة فأعلن الاهالي سرورهم وأقاموا الزينات والافراح
 اجتهد مندوبو الدولة في تخفيف بعض المواد في المؤتمر ولكن طلباتهم لم تقترن
 بالقبول لان سفراء الدول الست كانوا يروجون السياسة الروسية وقد تقابلوا معي
 مراراً خارج المؤتمر فاتفقت معهم على تبديل بعض المواد من ذلك انهم قد صرفوا
 النظر عن اخراج الشركسة من الروميلي واشترطوا علينا عدم اسكان مهاجرهم
 من جديد في تلك البلاد واشترطوا ايضاً عدم استخدام عساكر الباشبوزق والغاء
 الويركي واستبداله بضرائب تقسم على الاراضي وان يكون الموظفون من المسلمين
 والمسيحيين وارسال بعضهم من الاستانة عند اللزوم ومع ما تقدم فهذا لا يعد تعديلاً
 لان مسألة الاستقلال الداخلي ومسألة عساكر (المليس) ومسألة استخدام الاجانب
 في البوليس ومسألة عدم ايجاد عساكرنا الا في القلاع وأمثالها لم يمكن تعديلها وهذه
 هي المسائل الاساسية واذا وافقنا على انفاذها انفض المؤتمر وكانت النتيجة من
 اصعب النتائج على الدولة ولا يقدر السلطان ولا الوكلاء على تنفيذ مثل هذه المطالب
 ولذا قد رأينا لزوم عقد مجلس عمومي من الوكلاء والوزراء المعزولين والعلماء وأمراء
 العسكرية والرؤساء الروحانيين وغيرهم فجمعنا المجلس ووضعنا المسألة على بساط
 البحث وقرأنا أوراقها وشرحناها من كل الوجوه وقلنا لهم ان رد هذه المواد سيدعو
 روسيا الى اعلان الحرب لان هذه التناقض هي نتيجة عداوتها فهي التي دبرتها
 لاعلان الحرب ضدنا وستكون الثانية شرراً من الاولى اذا رفضنا كل هذه المطالب
 وقد قلت لهم أنا ان عند الدولة من العساكر والاسلحة ما يساعدها على الحرب ولكن
 الدول الاجنبية كلها ضدنا وهي تساعد الروس بكل قواها وأحوالنا المالية معلومة

والمال أول لوازم الحرب ولا يمكننا تداركه الآن وقد سقطت قيمة الاوراق (القائمة) فاذا أعلننا الحرب وحصلنا المال من الاهالي بالقوة أوقعنا بهم اضراراً داخلية أكثر من اضرار الحرب الخارجية والسلاح موجود عندنا أما البارود فيجب ان نجلبه من أوروبا واذا صادره العدو او منعه عنا وقعنا فيما لا تحمد عقباه قلت ما قتلته فأجاب الحضور قائلين ان تسليم قطعة كبيرة من ملك الدولة اذعاناً لمطالب روسيا يعد فشلاً واحتقاراً للدولة فنحن نحارب لان روسيا لا ترجع عنا الا اذا هزمتها في حرب طاحنة. بلغنا هذا القرار الى اعضاء المؤتمر بالباب العالي وأفهمناهم ان الدستور كفيل باجراء الاصلاحات التي طالما طلبتها منا اوربا

أما الجنرال (ايغنايف) فقد قال لأعضاء المؤتمر ان السلطان يصدر الارادات تلو الارادات فتبقى جبراً على ورق وسيكون الدستور غير نافذ المفعول كغيره من اللوائح والقوانين الاصلاحية في تركيا

ولم يكن الوقت الكافي لاطهار مفعول الدستور قد اتقضى ليفهم اعضاء المؤتمر اننا قد شرعنا في الاصلاحات الفعلية وكانت الاوامر قد صدرت اليهم من دولهم فودعونا وسافروا وسافر ايضاً سفراء الدول الست وأبقى كل واحد منهم وكيلاً في سفارته

كانت نتيجة سفر السفراء الستة وقطع علائق دولهم معنا بسبب مسألة المؤتمر وخيمة ولا ننس ان دولتي انكلترا وفرنسا قد ساعدتنا مساعدة مالية وجسمية في حرب القرم لا لسبب غير منع اطاع روسيا الاشعبية ومسألة اليوم ناتجة عن ترويج فكرة (البانسلاويزم) والسعي في تكوين قوة سلاوية وجعل البلقان حداً فاصلاً بيننا وبين روسيا وهذا مما لا توافق عليه دولة من الدول ولكن أسباباً كثيرة قد غيرت افكار الدول وقلبت علينا قابوب ساستها لان روسيا كانت تدس الدسائس في الروميلى وتاقى تبعتها على عاتقنا فكثرت الشكايات ورأت أوروبا وجوب تشكيل المؤتمر لارضاء روسيا وكان سالسبورى (مندوب انكلترا في المؤتمر) يروج مطالب

الروسيا لانه قد قرأ ما كتبه الجرائد ضدنا ولم يقابل في الاستانة سوى الجنرال
(ايغنايف)

اما وزارة انكلترا التي كان يرأسها (بيكونسفيلد) فكانت تميل اليها ولكن
انفضاض المؤتمر بلا نتيجة قد أحفظها وبدل افكار ساسة أوروبا فاستحسنوا رد
مطالب روسيا الجائرة واثنوا على شجاعة الاتراك وغيرتهم الوطنية ووقوفهم امام دول
أوروبا الست بعد اصرارها على تنفيذ رغائب الروس

وصدر الامر الى سفيري انكلترا وفرنسا من دولتيهما بالسفر أيضاً فسافرا
وأردت ان اعيدهما وارسلت (أوريان افندي) مستشار النافعة بحجة السعي في
عقد قرض من مصارف انكلترا لجلس نبض رجال السياسة في باريس ولندن فقابل
اللورد (بيكونسفيلد) رئيس الوزارة واللورد (دربي) ناظر الخارجية مقابلة خصوصية
وكتب اليّ برقية قال فيها انهم متفقون على تسكين حدة روسيا لخراج الدولة
العثمانية من هذه المازق بلا خطر وارسل برقية اخرى قال فيها انهم يقولون بوجود
مصالحة (الصرب) و(الجيل الاسود) والمواقفة على بعض مطالب البلغاريين ويجذون
الاحكام الدستورية في تركيا ولكنهم يشيرون الى الاسراع بانفاذها

فلما وردت البرقية الاخيرة شمرت عن ساعد الجد وارسلت الى (الطونه)
والى (ادرنه) والى (صوفيه) بعض نزهاء الموظفين فعينوا نصف رجال البوليس من
البلغاريين ونصفهم من المسلمين وعينوا ايضاً عدداً غير قليل من البلغار في وظائف
القائماتين والمتصرفين وعفونا عن مسبي الثورة واعدنا لهم مجلسهم العمومي الملحق
في زمن محمود باشا والغينا الاعشار وأحللنا محلها ضريبة قدرناها على مقدار الاراضي
وخابرننا حكومة الصرب فأجاب البرنس ميلان مظهرها برغبته في الصلح فأرسلنا اليه
موظفاً كبيراً عقد معه شروط صلح رسمية وورد جواب من برنس الجبل الاسود قال
فيه انه ميل الى الصلح ولكن أراضيه بلاده غير صالحة للزراعة وانه لا يقبل الصلح الا
اذا أعطيتاه مقداراً من اراضى الدولة الواسعة فقرر الباب العالي اعطائه مقداراً من

الاراضي بجهة (سوترينه) ولكن أهالي النمسا لم يوافقوا على اعطائه فوضعت هذه المسألة على بساط البحث في مجلس الوكلاء

ابتدأت انتخابات النواب في الولايات وأعدنا محلاً لمجلس المبعوثين ولم تتأخر عن جمع العساكر واعداد العدد لان نية روسيا كانت غير معلومة وكان الاهالي يظهرون رغبتهم في الدفاع عن الوطن فتطوع عدد غير قليل من المسلمين والمسيحيين في الولايات فاهتمنا بتعليمهم وحضرت فرقة متطوعى سلانك فوجدناها مدربة على الحركات العسكرية وخف أهل الاستانة الى كتابة أسمائهم في دفاتر المتطوعين وشككت كل ولاية طاورين فأحيا العثمانيون عهد أجدادهم بغيرتهم وشهامتهم

﴿ نفي مدحت باشا الى أوربا ﴾

اتهبج الناس بالانتخابات وتطلعوا الى مجلس المبعوثين وسرت اوربا بانقسام مسألتي الصرب والجبل الاسود والاهتمام بالمسألة البلغارية ولو خرجنا من هذه المشاكل وانعقد مجلس المبعوثين لعادت الينا ثقة اوربا وتمتع الاهلون بالحرية والمساواة وتقدمت الدولة الى الامام لان المصارف الاوربية لا تتأخر عن اقراضنا ما يلزم لنا من النقود اذا شرعنا في اجراء الاصلاح الحقيقي فلهذه الاسباب كنت احصر الفكر في انفاذ الاصلاحات المنوية وكان مجلس النظار قد قرر اعطاء سكان الجبل الاسود الاراضي اللازمة في جهة (ايسيج) فاذا رفضوا قبولها أعطيناهم غيرها في (تشيك) وبينما نحن منتظرون ورود جواب برنس الجبل الاسود بالرفض او القبول سنة ٩٤ دعيت الى سراي (طولبه بجه) وأخذمني خاتم الصدارة واركبت وابور عز الدين لابعادي الى اوربا فتحرك بي قبل ان أرى افراد عائلتي ووجهته (برندزي) وذلك في يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني

تحملت متاعب تفوق القدرة البشرية من يوم جلوس السلطان مراد وخلصت منها بهذه السياحة التي كانت غير متظرة فكنت أعد شخصي سعيداً ولكن هذه الحياة ليست لي بل هي للامة وقد وقع الوطن في مصائب داخلية وخارجية وأوصلته بعون الله الى درجة كان يسهل معها تخليصه من مخالب الدمار ولا يمكن ان اشبه

بلادي التعسة الابريض حضره نطس الاطباء وأبل من مرضه فسقاه عدوه سما
 قضى به على حياته . كنت أتأسف على وطني عالماً انه سيقع في محال العدم
 ولما بلغني سعيد باشا احد رجال المايين خبر عزلي ذكرت له ما تقدم وسألته
 عن سبب ابعادي فتوجه الى مولاه وعاد فقال لي ان المادة ١١٣ من القانون
 الاساسي (الدستور) تخول السلطان حق ابعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء
 حالهم الى خارج البلاد العثمانية وقد قدم (عمر فوزي باشا) نائز الضابطة الى جلالة
 السلطان جرنالين وقع عليهما ما بخاتمه وقدمهما لي وقد نظرت الى تاريخهما فوجدتهما
 قد حررا قبل صدور أمر ابعادي بيوم وخلاصة احدهما ان احد الجواسيس سمع
 ضابطاً يقول لرفيقه في احدى القهوات اني سأكون رئيس جمهورية اما الثاني فقد
 احتوى على نفس هذا المعنى فلم أر لزوماً لقراءته بل لم أمدد اليه يدي
 لنفرض جدلاً ان شخصاً قال لرفيقه في احد الكازينات ان مدحت باشا
 سيكون رئيساً للجمهورية العثمانية فهل يصح نفي صدر اعظم في مثل هذه الظروف
 لمجرد قول احد الافراد اللهم ان هذا لا يوافق عليه عقل عاقل
 ان الناظر الى ما حدث في عاصمة الخلافة من التغيير والتبديل والعزل والنصب
 والاقدام والاحجام لاصلاح احوال الدولة وايصالها الى أوج الكمال يرى ان ما حصل
 تعجز عن معرفة أسراره قدرة المخلوق ولعل في هذه المسألة ايضاً سرّاً أستعيذ
 بالله منه

فقد قال تعالى « واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »
 وفي قوله جل شأنه عبرة للمعتبر تثبت ان حياة الام ومماتها لا تقوم باتعاب الفكر
 ومواصلة العمل

كانت هذه الخواطر تجيش في صدري وكنت أتدفع بالصبر موكلاً أمري الى
 مدير الكائنات ثم رأيت ان من الحكمة والسداد سرعة تنفيذ أمر السلطان فقامت
 وودعت الحضور وبينما انا على تلك الحال حضر سعيد باشا (الصدر الاعظم الآن)
 وبلغني سلام السلطان قائلاً ان جلالتك يעדك بالرجوع الى الاستانة في القريب

العاجل فشكرت له وقلت : انى أتأسف لاني اذا عدت لا أرى السلطان في هذه القصور ولا أرى جلال الملك وعظمته الحاضرين ولا أتمكن من رد المفقود فأرجوكم ان تبلغوا اقوالي بنصها وفصها الى جلالة السلطان قلت هذا وركبت الوابور وفي اليوم المذكور وجه مسند الصدارة الى أدهم باشا رئيس شورى الدولة وحل محله قدرى باشا واشتغل الناس في الاستانة وفي الولايات وفي الخارج بمسألة نفى وخافوا على القانون الاساسى لاني أعلنته بعد الجهاد الطويل ولما رأى المايين تطلع الشعب الى استجلاء الحقيقة اعلن بواسطة جرائد الاستانة انه قد ضبط أوراقاً أثبت بها خيائتي فعزاني وابعدني عن الاستانة

ولم يتعود الاهالي قراءة الاكاذيب الرسمية في الجرائد الى ذلك اليوم فخدعتهم الاباطيل وصدق ذلك أكثرهم ولكن جرائد أوربا الشهيرة نشرت الخبر على علاته حيث قالت ان مدحت باشا لم يخدم افكار السلطان فابعده عن دار الخلافة فذاع الخبر بين سكان عاصمة الخلافة ورأى المايين ان مصلحته تقتضي اختلاق فرية جديدة ليشغل الناس بها فاستكتب مدحت افندي الصحفي (مدحت افندي حي لليوم) مقالة أمره فيها ان يقول انه سمع منى ما يثبت طمعي في رئاسة الجمهورية وكتب الشاعر كاظم باشا الفريق قصائد هجاء أرضى بها المايين وتقرّب الكثيرون الى السراى بذي

والعاقل لا يحلم بقلب الحكومة الى جمورية ولكن مدحت افندي الصحفي قد تربى منذ نعومة أظفاره في بيتي فاعتنيت بأمر معيشته وتعليمه وأخذته معي الى بغداد والى (الطونه) فكيف نسى نعمي عليه واخلق هذه الاكاذيب التي لا تنطلي على احد فالناس واقفون على حقيقة المسألة والكذب لا ينفع في مثل هذه الظروف والذي يضحك التكللى هو ان جرائد الاستانة كانت قبل أربعة أيام تصوغ لي المدائح فانقلبت بين يوم وليلة الى صحائف هجاء فاذا كان مدحها قد نفعت بالامس فهجوها يضرني اليوم أما مدحت افندي فقد باع شرفه ببعض الدراهم وكان الشعراء يتوقون الى النضار فهدوا هديه

وتوجهت الى برندزى ومنها الى نابولى وبعد شهر زرت اسبانيا واقمت بها شهرين وعدت الى باريس ومنها الى لندره واقمت في الاخيره مدة من الزمن وصل خبر عزلي وابعادي الى بترسبورج فارسلت حكومة روسيا الجنرال (ايغنايف) الى لندره لفتح باب جديد للمطالب البلغارية فلم ينظر الباب العالي الى المسألة بعين الاهمية والنفى بعض المواد المنفق عليها وعزل الموظفين الذين قد عينتهم ورفض اعطاء الاراضى المنفق عليها لسكان (الجبل الاسود) فاصروا على عنادهم ونظرت حكومة الصرب الى أحوال الجبل الاسود والى مطالب البلغار فندمت على الصلح

فرح الجنرال (ايغنايف) بابعادي واصبح الباب العالي يأتمر باوامره اما الحكومة الانكليزية فقد تأثرت غاية التأثير وحاول الجنرال ايغنايف تنفيذ مطالب المؤتمر فلم تساعده الظروف لان اجتماع مجلس المبعوثين قد أثر في الافكار العمومية في انكلترا فعدلت حكومتها مطالب الروس وقدم الروس بروتوكولا الى الباب العالي وأعلن مراراً في الاستانة

طلبت روسيا في هذا البروتوكول من تركيا الاسراع في ارسال سفير الى بترسبورج بعد ان عدت مطالبها وجعلتها قابلة للاجراء وطلبت ترك اراضى (نيقشيك) للجبل الاسود ولم يكن تنفيذ بقية مطالبها بعيد الامكان ولكن الاستانة قد رفضتها فاضطرت روسيا الى اعلان الحرب

كانت قوة الدولة العلية في ابتداء الحرب أكثر من ٥٠٠.٠٠٠ مقاتل كاملي العدد والعدد وكان عندنا غير القوة السالفة الذكر عدد غير قليل من المتطوعين المدربين على حمل السلاح فلما أعلنت الحرب وحمل علينا الروس من جهة نهر (الطونه) وصدرت الارادة السنية قاضية بعزل عبدي باشا قومندان جيشنا المحارب ورديف باشا (السرعسكر) اختلط الحابل بالتابل لانهما كانا قد رسما الخطة الواجب اتباعها والنفى السلطان ايضا طوابير المتطوعين وكانت خزينه الحكومة فارغة والمال من لوازم الحرب الاساسية والحكومة عاجزة عن ايجاد ما يلزمها منه للقيام بالنفقات

الحرية خصوصاً بعد ان سقطت قيمة الاوراق المالية (القائمة) لاني كنت قد خصصت لها ضمناً مالياً من ايرادات معلومة فصرفت الحكومة الايرادات في غير وجهها وحصلت الاموال من الاهالي بانواع التهديد والوعيد

اما الاوامر الحرية فكانت تصدر من أما كن متعددة وزاد الطين بلة سرعة تبديل القواد ونظار الحرية فكان الناظر الجديد يتبع غير خطة سلفه ومثله القومندان وتعرض بعضهم للحركات الحرية وهو لا يدري عن أمور الحرب شيئاً فكان اجتماع هذه الامور وغيرها مقدمة انتصار للاعداء وعند تجاوز الجنرال (غرقون) البلقان خفت العساكر الموجودة تحت قيادة سليمان باشا من جهة (زغره) وانتصرت وانتصر عثمان باشا على العدو مرات فحامت حوله الامال ولكن تعدد الاوامر واختلافها عرض سليمان باشا للخطر في جهة (شبكة) وأرسل الروس جيشاً جراراً الى بلاونه وتوجه اليها امبراطورهم بنفسه لان انهزامات عساكرهم المتوالية لم تثنهم عن الحرب بل اضطرتهم الى جمع عددهم وعددهم للقضاء على القوة العثمانية وهذا ما كان يجزم به رجال الحرب في أنحاء العالم

اشتغلت بعد ايامي من اسبانيا بالوقوف على أفكار ساسة باريس ولوندره فرأيت الناس في البلدين يميلون الى تركيا كل الميل بيد أنهم يقولون ان الواجب كان يحتم على الدولة العلية ارسال سفير للروسيا لتخفيف مطالبها قبل رد البر وتقول واعلان الحرب

وكانت الحكومة الانكليزية تحتج بما قدمته قائلة انها لا تساعد تركيا في الحرب اما فرنسا فكاننا لا ننتظر منها مساعدة فتأثرت وأيم الله غاية التأثر اذ علمت ان الحرب ستجر على قومي رزايا ومصائب لا قبل لهم بها وعزمت على التوجه الى المانيا مع ان خدماتي لدولتي قد قدرها الفرنسيون والانكليز حق قدرها وقابلوني بالحفاوة وكان يدور في خلدي ان ساسة المانيا والنمسا سيقابلوني بكل رعاية أيضاً ولكن وصمة النفي المتصقة بي كانت تمنعني عن عقد محالفة رسمية مع دولة من الدول

فأرسلت الى المايين تلغرافاً طلبت به تخليصي من هذا الاسم وركبت الوابور متوجهاً الى (فيينا)

وهذه هي صورة تلغراف آخر أرسلته من فيينا

قد اشتغلت مدة اقامتي في عاصمة بلاد الانكليز بما يعود على دولتنا بالنفع ويرفع شأن حكومتنا وحاولت السعي لعقد صلح يحفظ شرف الدولة وعظمتها وافتخر لانني قد وقفت بعض التوفيق وأنا اليوم في فيينا أبذل الجهد لترويج نفس المساعي فأرجو ان حركاتي وأفعالي ترضى جلالة ولي نعمتي الاعظم وآمل اخباري بما يوافق مصلحة الامة لاستمعين به على أميتي الوحيدة وقد وقفت حياتي لتخليص حكومة الخلافة من ورطتها وانا قادر على القيام باعباء ما يطلب مني لان مصلحة الوطن يضطرني اليه

ركبت القطار متوجهاً الى فيينا فوصلني جواب المايين قبل وصولي بالقرب من «استرازبورغ» بامضاء باشكاتب المايين قال فيه ان جلالة السلطان سيرسل التفصيلات بالارقام الى سفير الدولة في فيينا وبشرني بان جلاته سيقوم بأداء كل مطالبي فقابلت بعد وصولي الى فيينا ناظر خارجيتها الكونت (اندراسي) وأخذت فكره في مسألة البوسنه والهرسك ونيات حكومته في شأنهما وحررت الى المايين تلغرافاً بالارقام شرحت له به المسألة وحررت عنها مكتوباً أرسلته الى الصدر الاعظم كان توجهي الى (فيينا) لاثارة خواطر المجريين ضد روسيا والاستفادة من أهالي (لهستان)

وقد وعدني الكثيرون بالمساعدة وكانت النمسا عازمة على أخذ البوسنه والهرسك غير انها كانت تعاوننا اذا انسحنت بلغاريا وصربيا عن جسم الدولة لان انسلاخها يعود عليها بالضرر والمجر قد اشتهروا بيبغض روسيا ولو اتهمزوا فرصة وجود فيالق الروس وامبراطورهم على شاطئ الطونة وامام استحكامات (بلونه) وأرسلوا فياتهم الى جهة (الافلاق) لقطعوا عنهم الامداد وكانوا قد وعدوني بالاقدم على هذا الفعل قبل اليوم فقابلت عضاءهم وطلبت منهم التعميل بانجاز الوعد فاحضروا

ما يلزم من العساكر والمدافع وانتظرت جواب الاستانة عشرين يوماً فلم أحظ بطائل واشتد الحصار على (بلونه) فانقطع جبل رجائي وودت بنحفي حنين الى نابولي وأقت بها مدة

وبعد أيام استولى الروس على (بلونه) وأسروا عثمان باشا فقال الناس ان جيش العدو سيصل الى الاستانة

وكان الانكليز مصممين على عدم مساعدتنا ولكن حب الوطن ألجاني الى مغادرة (نابولي) والتوجه الى لندره

وهنا أصرف النظر عن ذكر وصول العساكر الروسية الى استامبول وارسال الاسطول الانكليزي الى مياه الاستانة ومعاودة سان استغانو لانها من الوقائع التي يسجلها المؤرخون

وقد سمعت بنجر عزم الدول على عقد معاهدة برلين لتصحيح مواد معاهدة (سان استغانو) فاردت ان اخدم دولتي واخلص مسلمي بلغاريا من الدخول تحت حكم حكومتها الجديدة بابقائهم تحت سيادة الدولة العثمانية فكتبت كتاباً شرحت به عدالة سلاطين آل عثمان وحسن معاملتهم للمسيحيين من اول ظهور دولتهم الى اليوم ونشرت الرسالة باللغتين الانكليزية والفرنسية ووزعت نسخها في اوربا واعطيت واحدة منها لرئيس المؤتمر (بيكونسفيلد)

من يوم سفري الى اوربا وانا أتقل من بلد الى بلد وكان الانكليز قد قابلوني بالحفاوة فعولت على الاقامة في لوندرد ولكن اشتياقي الى أولادي كان يتزايد على تهادي الايام فكنت لا أرى لذة للحياة وفي شهر أغسطس دعاني (الدوق دي سادولاندى) الى مصيفه في (اسكوسيا) وبينما انا في ذلك المصيف صدر لي العفو السلطاني فحضرني سفير الدولة موسروس باشا وبلغني تلغراف جلالة السلطان وخلاصته ان جلالتة قد أجرى لي مرتباً شهرياً قدره ٢٠٠ ليرا وامر ان اقيم في جزيرة كريد مع عائلتي وانه احسن الي بألف ليرا وان عائلتي ستسمل على وابور مخصوص الى كريد وان جلالتة قد أحسن عليها بمبلغ خمسمائة ليرا فشكرت السلطان

على نعمه ووصلت الى خانيا في غرة شوال من سنة ٩٥ ووصلت اليها عائلتي على
وابور مخصوص فوجدنا منزلاً خارج المدينة واقمنا بها شهرين كاملين وفي هذه المدة
أرسل المايين تلغرافاً فحواه ان احد رجاله سيحضر الى كريد لاعطيه التأمينات
اللازمة فتعجبت غاية العجب وبعد هنيهة وجهت الى ولاية سوريه

﴿ مدحت باشا في ولاية سوريه ﴾

كنت لا أميل الى الوظائف لاني قد وصلت الى سن الشيخوخة وتعب فكري
وانتهكت قواي فطلبت من السلطان اعفائي من هذه الوظيفة فاجابني (صفوت باشا)
الصدر الاعظم قائلاً ان هذه الوظيفة قد اختارها لك جلالة السلطان وأرسل لك
وابوراً مخصوصاً فقبلت الوظيفة تادباً وتوجهت الى سوريه

أصلحت ولايات الطونه وبغداد ولكني قد هرمت وضعفت ومع كل هذا
فقد عولت على اصلاح ولاية سوريه لان حب الاصلاح قد اختلط بدمي
فكان كالمرض المزمن وولاية سوريه هي من الولايات المشهورة بذكاء سكانها
وخصب أراضيها

وأول ما وقع عليه نظري في تلك الولاية هو أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل
ما عدا العلماء والسبب في ذلك سياسة الدول الاجنبية في مصر وفي الشام لان تلك
الدول تفتح المدارس بأموالها وتمدها بقوتها فيتعلم فيها أبناء المسلمين فكان عدد
طلاب العلوم في مدارس بيروت ١٠٦٠٠٠ من الذكور والاناث وكانت مدارس
الافرنج تقدم كل يوم تقدماً يمس باليد وليس للحكومة سوى بعض مدارس
ابتدائية يقرأ فيها الاحداث القرآن فكنت أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين
واصلاح مدارسنا

قدمت اصلاح المدارس على كل اصلاح وشكلت جمعية من العلماء وجمعت
الاعانات من ذوي المروءة فأصلحت بها بعض الجوامع وجعلتها مدارس للاحداث
وأدخلت في كل مدرسة ١٥٠ تلميذاً أو ٢٠٠ وقررت ان يجازي ولي الطفل اذا

بلغ ولده السادسة ولم يرسله الى المدرسة وخصصت عدا الاعانة جزءاً من ايراد
الاقواف وعمت المدارس في المحقات وكان أهالي الشام يميلون الى بث روح التعليم
فألفوا جمعية سموها (جمعية المقاصد الخيرية) وانتشرت شعبها في أنحاء الولاية
واشتغلت ايضاً باصلاح المدينة وترقية التجارة والزراعة . وبينما كنت مشغولاً
باصلاح احوال الولاية كانت الاستانة قائمة قاعدة لان السلطان قد أبعده الصهر
محمود باشا عن عاصمة الخلافة وعينه والياً لطرابلس الغرب ونفى رشدي باشا الكبير
الى (مغنيسا) ونفى شيخ الاسلام الاسبق حسن افندي الى الحجاز ونفى القاضي
عسكر قاسم ملا الى كوتاهيه وأمين افندي الى قونيه وحسن افندي زاده قيصر ملا
الى اطنه وسيف الدين افندي الى حلب وشرواني زاده احمد افندي الى ديار بكر
وعينهم قضاة في البلاد التي أرسلهم اليها أما شيخ الاسلام الاسبق فقد عينه شيخاً
للحرم الشريف وأرسله الى المدينة وأرسل بعض رجال العسكرية الى جهات مختلفة
وأغلق مجلس المبعوثين والنقابة الاساسي (الدستور) وكان ناقماً عليّ مع اني
قد قضيت ثلاث سنين خارج الاستانة واشتغلت طول المدة التي أقمته في أوربا
بما يعود على الدولة بالنجاح ولم يكن ثمة ما يوجب الحقد عليّ وقد عدت من سياحي
بعد ان أحسن اليّ والى عائلتي ولم يبق ما يوجب سوء الظن بي
وكان محمود نديم باشا قد اشهر بمعادة الوكلاء (النظار) اذ ذاك وصدرت
ارادة سنية الى الصحفي مدحت افندي (مدحت المذكور هنا حي ليوم) فطبع كتاباً
اسمه (اس الانقلاب) ونشره وعدد فيه مثالب الصهر محمود باشا وكان يقيم في
جزيرة مدالي فأرسل اليه السلطان احد الموظفين واحضره الى الاستانة وعينه ناظراً
لداخلية وعين جودت باشا المشهور بذي نظراً للعدلية وعين سروري افندي الذي
قد عزلته من وظيفة قضاء (روسجق) بينما كنت والياً لولاية الطونة معاوناً لناظر العدلية
ورئيساً لمحكمة الاستئناف ومن هؤلاء أيضاً الدلي نصرت (كلمة دلي معناها المجنون)
باشا وهذا قد قربوه من السراي وقدموه على غيره ولم يتركوا أحداً من أعدائي
بعيداً عن المابين

كان نديم باشا قد أصدر قراره المختص بمسألة السهوم العمومية ولما عاد الى الاستانة كان اول همه القاء تبعة القرار على عاتق الوكلاء (النظار) والصاق الجريمة بي فخر مضبطة وختمها بخواتم رفاقه ونشرها بواسطة جريدة الصحفي مدحت افندي ولم يقف الامر عند هذا الحد بل قدم نديم أيضاً أوراقاً الى المايين قال فيها ان سفراء الدول قد واقفوه على اصدار القرار فخدع بما كتبه السلطان وهيئة النظار ونشر التقرير في الجريدة ولم يفتن الى هذه النقطة هو ولا صاحب الجريدة ولا غيره فوقع نديم في مصيدة كبيرة لانه حاول التخلص من جريمته فوقع في أكبر منها بارتكابه هذا الكذب الفاضح وفهم الناس سر المسألة بعد ان كان اكثرهم يجهلها ولكن الرجل قد انتصر على بقوة منصبه الجديد. وقد جرت العادة في بلادنا ان العدو يعاكس عدوه في وظيفته فاستعمل نديم نفوذه في نظارة الداخلية وعرقل مساعي الاصلاحية في ولاية سوريا وجعلت نتائج أعماله تظهر في أنحاءها وانتشرت الارجيف والاكاذيب المفتراة على مرة أخرى

كنت لم أدخل الاستانة منذ ثلاث سنين فانقطت اشاعات القائلين بأنى سأكون رئيساً للجمهورية وانى سأقلب الملكية الى جمهورية وأشاع اعدائى عنى انى سأستقل بولاية سوريا ونحو هذا من الاشاعات وكان بهابك مكتوبى بولاية سوريا قد كتب على باب المدرسة الصناعية سطرين ذكرني فيهما بأنواع المدح وذكر قبل كلمة التاريخ لفظة خديو (كلمة خديو معناها الصاحب او المالك وهي فارسية وتستعمل في التركية للتعظيم) فأذاع اعدائى انى أريد الاستقلال واحاول ان اكون خديويًا لسوريه وأشاعوا الخبر في الاستانة ونشروه أيضاً بواسطة الجرائد الاجنبية والاجانب لا يعرفون ان كلمات (خديو) و(آصف) و(داور) تستعمل للتعظيم الوزراء لان الاولى تستعمل للقب ملك مصر فغلب على ظنهم ان كتابة كلمة خديو على باب مكتب الصنائع تعد كاعلان رسمي لاستقلال الولاية وتولييتى خديويًا ولذلك قد خبطت الجرائد الافرنجية في هذه المسألة خبط عشواء وكتبت الفصول المضحكة وكنت قد أنشأت حديقة عمومية فتوجه اليها بعض الاجانب ونادوا باعلى

صوتهم قائلين (ليحيى مدحت باشا) وكان احد الضباط حاضراً فسل سيفه وهددهم وهو في حالة السكر وقال ان كلمة (ليحيى) لا تستعمل الا في مقام الدعاء للسلطان وبينما هو يضرهم قبض عليه البوليس وسلمه للمعسكر وكان الضابط من ارباب السوابق فسجنه رؤساؤه وبعد ثلاثة ايام حضر من الاستانة تلغراف توبخ الى احمد باشا وطلب الملازم الى الاستانة لمكافأته

وهذه المسائل ولو انها من الامور العادية ولكن تكرارها وارسال عدد من الجواسيس لمراقبة حركاته واتهامه موت أحد الجرا كسة في السجن لانه أكل جنناً من اناء نحاسي قديم قسم وقد أثبت الاطباء موته بسم النحاس ولكن جودت باشا انهز فرصة موته وأجرى تحقيقاً معي فعلمت أن الاستانة تصر لي الشر وتثبنت همي وبينما كنت في حالة اليأس أقدم الفرنسيون على أمور غير محمودة لان الحكومة العثمانية كانت قد أعطت جبل لبنان امتيازاً وخصصت له موقفاً خمسة وعشرين ألف جنيه من ايراد جمارك الشام فخررت مكتوباً الى الصدارة طلبت به قطع هذا المبلغ فثار ثائر الفرنسيين

وكان نشر التعليم وانشاء المدارس قد أثر في نفوذهم الادبي وصادف ذلك أن رسمت باشا متصرف لبنان قد توجه الى الاستانة وعاد وأذاع اني احاول تبديل نظام الجبل واحواله فأثرت اشاعته أيضاً في افكار الفرنسيين . وصدر أمر الاستانة باعطاء المبلغ ٢٥ ألف جنيه من أموال الولاية ولكن فراغ الخزينة قد اضطرني الى تأخيره فقال أعدائي انه يريد تقهر أمور الجبل وكانت الحكومة قد أبتت لنفسها حق استغلال مقدار من الاراضي وقدرت قيمتها بخمسين ألف جنيه ولم تدخلها في نظام الجبل بل أبتتها تحت تصرفها ولكنها قد نسيتها ولم تحصل ايرادها السنوي البالغ قدره ٤٠٠٠ جنيه وكتبت الى الباب العالي طالبا المحافظة على حقوق الحكومة فوصل الخبر الى سفارة فرنسا وتعرض رئيس احد الاسا كل لاحد انوابورات الفرنسية لان قبطانها قد ارتكب أموراً لا يساعد عليها نظام البحرية فادعت حكومة فرنسا اني قد امرته بما كسة مصالحها على ان الموظف قد اجري ما اجراه بغير علمي

وكان احد الفرنسيين قد اشترى من الحكومة مقداراً من الاراضي بمائة الف قرش ورفع دعوى على الحكومة وربحها فاخذ جودت باشا اراضيه أيام كان والياً لسوريا واعطاه ما يساوي عشرة آلاف ليرة من الاراضي جهة نابلس وكانت تلك الاراضي في يد اصحابها فمنعت تنفيذ هذا القرار فرفعت السفارة الفرنسية امر تلك الاراضي الى الباب العالي

فاجابها بان الحكومة تأمر ومدحت باشا يؤخر اوامرها لاغراضه فوجت الحكومة الفرنسية مقتربات اعدائي واوجدت اشخاصاً لرفع الشكايات توالى عليّ هجمات الاعداء في الاستانة وفي سوريا وفي الخارج فرأيت ان ترك الوظيفة وحده يخلصني من مخالهم وقدمت استعفائي الى المايين وقلت فيما كتبه ان وصولي الى سن الشيخوخة وضعف قواي يمنعي عن القيام باعباء الوظيفة فاجاب علي فؤاد بك باشكاتب المايين قائلاً انك في السن الذي يمكنك من خدمة حكومتك ولذا فان جلاله السلطان لا يوافق ابداً على استعفائك فيتحمم عليك البقاء في وظيفتك وبلغني ايضاً ثناء السلطان

وكانت الدسائس تدس ليل نهار وجرائد فرنسا تساعد اعدائي على نشر الاراجيف وصادف ذلك ان موسيو (لايرد) قنصل انكلترا قد حضر الى سوريا بقصد السياحة فاتخذ اعدائي حضوره فرصة بنواعليها الاراجيف وامتعض الفرنسيون وعزمت اذ ذلك على تقديم استعفائي مرة ثانية ولكن حدوث مسألة الدرور قد اضطرني الى التأخير

وبينا انا مشتغل بهذه الامور ارسل اليّ المايين تلغرافاً قال فيه ان خديو مصر الخلوع اسماعيل باشا قد توجه الى اوربا وارسل ولده الى الاستانة فقدم الاخير طلباً الى الحكومة راجياً منها الترخيص له بالاقامة مع عائلته في دار السعادة وقصد الرجل دخول الاستانة للفساد وقد قرر مجلس الوكلاء المنعقد تحت رئاسة السلطان رفض الطلب وقرر ايضاً اخذ رأي الصدر العظام المعزولين فاذا كان عندكم رأي غير الذي قرره الوكلاء فاكتبوه وارسلوه الى المايين

وكان يجب على موافقة الوكلاء على قرارهم لارضاء السلطان لانهم قد فعلوا ما امرهم به فامثل اسماعيل باشا اوامرهم واخذ اولاده ونساءه وتوجه الى ايطاليا واقامة نساء المسلمين في اورو بالاييحها الشرع ولذا فقد اتبعت الصراحة في قولي وكتبت للمابين مكتوباً قلت له فيه ان ابعاد الرجل عن الاستانة خطأ لان القائلين انه سيشتغل بالفساد قد بنوا قولهم على مجرد الوهم وستكون اقامته في اوربا سبباً للقليل والقال ولنفرض ان اسماعيل سيسلك مسلكاً مغايراً لمقاصد السلطان فوجوده في الاستانة تحت رقابة دائمة خير للدولة من بقائه في اوربا على ان احتراس الحكومة العثمانية من امثاله لا يتفق مع عظمة الملك وهيبته . فاسخط هذا الجواب جلالة السلطان لانه قد ظن ان لي مقاصد أخرى وما اردت الا الخير

وظهرت حادثة الدرروز وخلاصة هذه الحادثة هي ان بعض سكان جبل الدرروز قد هاجموا قرية (بصر الحريزي) وقتلوا بعض القرويين فحاولت الحكومة القبض على الجانين وطلبهم من رؤسائهم وأمرت العساكر بتنفيذ أوامرها وكانت حوران معمورة ذات اراض منبثة وكان عدد القرى التابعة لها ٨٠ وكان اهلها مشتغلين بالزراعة ولكنهم كانوا يغيرون على اهل القرى المجاورة ويفتكون بسكانها وهكذا فعلوا باهالي قرية بصر الحريزي وكان ما فعلوه بأمر رؤسائهم فامتنع الرؤساء عن تسليم الاشقياء لعساكر الحكومة ووقفوا في وجهها فاضطرت الى القبض على الجانين بالقوة وأرسلت من الشام عدداً من الطواير فاستعد الدرروز للدفاع وكبرت المسألة

أما قبيلة الدرروز فقد اشتهرت بالشجاعة وهم منتشرون في أطراف الولاية قسم منهم يسكن الشام وقسم يسكن لبنان وقسم منهم يسكن حوران ويحافظ على عوائد سكان لبنان وغيرها ولكن سكان جبل الدرروز يعتمدون على ارتفاع جبلهم واحاطته بالحل المشهور باسم (الجبّة) ويخالفون أوامر الحكومة ولما كانوا تحت ادارة (المصري) قابلو القوة المرسلّة اليهم واتحدوا مع أهالي الجبّة وانتصروا على أعدائهم ولما توجه اليهم محمد باشا القبرصلي بقوة عسكرية هزموه أيضاً وقد اغتروا بقوتهم في هذه

المرّة وجمعوا جموعهم وقابلوا الحكومة فأرسلت إليهم جميل باشا بطوابير متعددة
 وقلت لمشير الفيلق اني مسئول عن كل تبعه تحدث
 وكانت فرنسا تحاول دائماً كسر نفوذ انكلترا فكانت تحمي جماعة الموارنة
 وكانت انكلترا تحبب للدروز فقام قنصل انكلترا بوظيفة الدفاع عن الدروز وكتب
 الى المايين والى الباب العالي فكانت الاوامر التلغرافية تردني كل يوم قاضية
 بحسب هذه المسألة وكان قنصل الدولة الانكليزية يلج عليّ في كل يوم فشخ الدروز
 اذ رأوا هذه الحركة فامرت العساكر باستعمال السلاح وامرت القومندان فشتت
 شمل الدروز بعد معركة قتل فيها ٦٠٠ من افرادهم وحضر رؤسائهم الى مركز الولاية
 واحضروا معهم اربعة اشخاص من الجناة وهكذا انتهت هذه المشكلة بعون
 الله وعنايته

وبعد اعادة الامن الى نصابه عين سعيد بك اللحوقي احد اعيان لبنان قائماً ما
 لجبل الدروز وعين له مأمورو الشرع والضابطة وكنت عازماً على بناء قشلاق للعساكر
 وتعيين من يلزم لجباية الاموال وانشاء الطرق ولكن دسائس اعدائي كانت مستمرة
 فرضيت بوصول المسألة الى هذا الحد وكنت قد كتبت الى الاستانة جملة بريقيات
 فلم يصلني عنها جواب واحد

ولما وصل خبر انهزام الدروز الى الاستانة نشر الصحفي مدحت افندي في
 جريدته ترجمان حقيقت (وهي تصدر لليوم) يقول ان مدحت باشا قد فتح باب
 حرب على الدولة واثار الدروز بلا سبب ولما علم ان باب الثورة لا يرنج عزم على
 الاستعفاء فلم يقبل استعفاؤه فلما قرأت هذه العبارة عرفت انهم قد اوحوا الى
 مدحت افندي بكتابة ما كتبه في جريدته فقدمت استعفاؤي واجاب المايين بان
 محاسن توجهات السلطان التي يحتمها كمال لطف جلالته ومرحمته قد اقتضت ارسال
 رجل اليّ عند ما كنت في جزيرة كريت وهذا الرجل لليوم مشغول ببعض
 امور الدولة في الخارج فيجب على ارسال رجل امين الى السراي السلطانية ليعطيه
 بعض اوراق ليوصلها الي وكان سبب استعفاؤي معلوماً ولم يؤثر في تأخير حضور

الشخص ولكن الادب قد اضطرني الى ارسال رائف افندي متصرف بيروت ولما وصل رائف افندي الى الاستانة كانت الاشاعات الرسمية وغير الرسمية تنبئ بان حسين فوزي باشا مشير الفيلق السادس السابق واحد ياوران السلطان قد توجه الى ولاية سوريا ليبلغ مدحت باشا بعض الاوامر وبعد اسبوع وصلت اليّ اخبار من بعض اخصائي خلاصتها اني اتظاهر بمعادة احمد ايوب باشا (مشير فيلق الشام اذ ذاك) وانه يتظاهر بعداوتى للغير مع اتفاقنا باطناً وقد قدم بعض الجواسيس بذلك تقريراً الى جلالة السلطان فصدق اقوالهم وارسل حسين فوزي باشا فقابل الاخير رستم باشا متصرف جبل لبنان واجرى التحقيقات اللازمة ولما وصل الى الشام صدر الامر بعزل احمد ايوب باشا واحلاله محله لتسهيل امر عزلي بعد الاستيلاء على القوة العسكرية

وكانت هذه الاقوال تخالف العقل والمنطق فنظرت اليها بعين الاستهزاء وكانت متفقة مع الواقع لان حسين باشا قد وصل الى بيروت وتوجه الى دير القمر تواءم لمقابلة رستم باشا واشتغل في دير القمر وفي بيروت ببعض الامور العسكرية ولكن العاقل لا يصدق روايات الاستانة ولا يحلم بها

وبعد وصول حسين باشا الى الشام يوم قابلني وبلغني سلام جلالة السلطان وطلب مني تقديم عهود ومواثيق لجلالة السلطان ثم قال ان هذه هي وظيفته التي قد ارسله لاجلها جلالة السلطان فأسفت وتحيرت ثم قصصت عليه ما اجرته من يوم جلوس السلطان الى الآن وقلت له ان هذه الامور لا تحتوي على ما يوجب اخذ التأمينات واذا كان فيها ما يوجب التفكير فاخبرني عنه فقال لي انك ستحول ولاية سوريا الى حكومة مستقلة وقد اجريت ما يحقق هذا الظن ولما ساه المسيو (لايرد) في الولاية قابلتموه باكرام وحفاوة زائدين ويقولون انكم تريدون اطلاق جبل لبنان بسوريا فقلت له ان جلالة السلطان قد طلب مني التأمينات قبل هذه الاذاعات يوم كنت في اوربا وبعد وصولي الى جزيرة كريت وهذه الاكاذيب قد انتشرت بعد حضوري الى سوريا وهي عبارة عن خيالات وخزعبلات لا اصل لها ولا

يوافق عليها من عنده ذرة من الانصاف فقال لي انه لا يعرف ايضاً ما هو سبب طلب هذه التأمينات ثم افترقنا وفي اليوم التالي ورد امر تعيينه مشيراً للفيلق الخامس وعزل احمد ايوب باشا وبعد ثلاثة ايام جاءني تلفراف من الاستانة فحواه اني قد عينت والياً لازمير وان واليها حمدي باشا سيخلفني في وظيفتي وان حسين باشا (مشير الفيلق الخامس المرسل من المابين للتحقيق) سيقوم باعباء امور الولاية الى يوم حضور حمدي باشا وان الاخير قد تحرك من ازمير على وابور مخصوص فيجب على الاستعداد لركوب الوابور الذي سيحضره الى بيروت للتوجه الى ازمير وقد ارسل المابين ياوراً خصوصياً لتنفيذ هذا الامر

فعمت من الشام وقابلت حمدي باشا في بيروت وركبت الوابور متوجهاً الى ازمير فوصلت اليها في اواسط رمضان سنة ٩٧

﴿ مدحت باشا في ولاية أيدين « ازمير » ﴾

كنت اريد التخلص من الاشغال ولكن استعفاي لم يصادف قبولاً فكنت أمنى النفس قائلاً ان استعفاي من ولاية سوريا سيوقف اعدائي عند حدهم ولا بد من انتهاز الفرصة الملائمة لتقديم الاستعفاء وستكون مدة اقامتي في ازمير غير مقرونة بالمتعاب كما كانت في سوريا ولكن حب الاصلاح قد امتزج بدمي كالعلة والعلة لا يقدر المريض على التخلص منها وكانت ولاية ازمير محتاجة لاصلاحات كثيرة اولها تطهيرها من الاشقياء وقطاع الطريق وخصوصاً نفس المدينة فقد كثر فيها اشقياء الاجانب والوطنيين ولم تكن هناك وسيلة لاعادة الامن الى نصابه غير ايجاد عدد من عساكر الضابطة فأحدثت فرقاً من البوليس والجاندرمة واستعنت بهذه القوة على اعادة الامن في مدة قصيرة في مدينة ازمير وفي ملحقاتها

وكان حمدي باشا قد بذل الهمة في انشاء مدارس ابتدائية واحداث مدرسة للصنائع فامتت نواقصها وفتحت جادة كبيرة عرضها عشرون ذراعاً وأسست شركة ترام برأس مال قدره ٦٠٦٠٠٠٠ جنيه واستحصلت على رخصتها وفتحت طريقاً من ازمير الى (أورله)

وبينا كنت مشغولاً باجراء هذه الاصلاحات في ازمير كانت الجمعية المعلومه في الاستانة تواصل الليل بالنهار لاذاعة الاكاذيب والمفتريات وأخذ بعضهم يذم أعمالي في ازمير واستردت الحكومة فرمان الطريق والترام المزمع انشاؤهما في ازمير وأرسلت السراى عدداً من الجواسيس لمراقبة حركاتى وحركات رشدي باشا المقيم بجهة (مغنيسا) وكانت جرائد اليونان قد شنت الغارة على تركيا فادعى مدحت افندي (مدحت افندي صاحب جريدة ترجمان حقيقت) في جريدته ان مدحت باشا قد أوعز الى تلك الجرائد بكتابة ما كتبه ثم أردف اشاعته بنخب فخواه انى قد جننت فنشرت كل جرائد الاستانة هذا الخبر

وقد عرف العقلاء ان القصد من هذه المفتريات تعويد الناس على سماع الاكاذيب والمفتريات ولكنهم كانوا يألمون من هذه الارجيف عالمين انها تغير آداب الامة وتؤثر في اخلاق الافراد لاسيما وانى كنت قد اشتهرت بالغيرة على الوطن ولا يصدق عاقل في داخل البلاد ولا في خارجها انى اشارك اعداء الدولة كالليونان وكيف يصدق وقد عينت والياً لولاية كبيرة كولاية ازمير وكل ما يلصق بي من التهم يعود على الحكومة ايضاً وكان الصدر الاعظم سعيد باشا (هو الصدر الحالي) يحمي جريدة ترجمان حقيقت فكتبت اليه مكتوباً ولكنى لم احظ بجواب

كانت هذه الهجمات تحصل في شهر نيسان وانتشرت في ازمير حوادث منشأها الاستانة وخلصتها ان السلطان عبد العزيز لم ينتحر ولكن البهلوان مصطفى ورفاقه المرسلين من سراى السلطان مراد لخدمة عبد العزيز قد قتلوا الاخير وانهم قد اقروا بجنايتهم عند استجوابهم وان الصهر محمود جلال الدين باشا والصهر نوري باشا واحد ما ينجية عبد العزيز وغيرهم قد وقفوا على جليلة الامر وعاونوا الجناة على فعلتهم وقد سجنهم السلطان في سراى يلدز

قطع عبد العزيز شريانا من شرايين ذراعه بينا كان مقياً في سراى (فرعيه) بين افراد عائلته وقد علم انخاص العام كيف اتحر ولم يشك احد في امر اتحاره فكيف بعثت هذه المسألة من قبرها بعد خمس سنين

تعجب الناس من هذه الاشاعة وتأسفوا وكانوا ينتظرون النتيجة بفروغ صدر
 وكتب الي أحد أصدقائي يقول ان السلطان قد ابعثنى عن الاستانة وابعث أيضاً
 محمود جلال الدين باشا ورشدي باشا لانه يشك في اخلاصنا ومع هذا وذلك فسيحوا
 اثرنا ويخدع الناس مدعيًا اننا قد ارتكبنا جناية كبرى وان محمود نديم باشا وجودت
 باشا واللى نصرت باشا وسروري افندي ومحمود بك احد اعضاء شورى الدولة
 وغيرهم من رجال السلطان قد ألفوا لجنة لترتيب هذه الفرية وقد آن أوان العمل
 ولذا فقد نقلوا سروري افندي من رئاسة محكمة الجنايات الى السراى للتحقيق
 وجلبوا مصطفى البهلوان ورفاقه الى يلدز فقالوا ان التهمة لا أصل لها ولكن
 سروري افندي ورفاقه أعضاء الجمعية قد أمروا بتعذيب مصطفى ورفاقه وغري بك
 الماينجي فتركوهم اياماً بلا نوم ووضعوا على رؤوسهم الحديد المتهب وتحت
 أباطهم البيض المحمى في النار وفعلاو بهم ما لم نسمع به في الاعصر الخالية فلم يغيروا
 اقوالهم ولكن مصطفى البهلوان لم يتحمل شدة العذاب وجاراهم على افكارهم قائلاً
 ان السلطان المرحوم قد قتل بامر الصهر محمود باشا ورفاقه فاذا عوا بين الناس انه
 قد اقر بالحقيقة وبعد هذا المكتوب كانت الاشاعات تتلو الاشاعات وكان الاجانب
 وغير الاجانب يحضرون من الاستانة الى ازمير على الواوورات مزودين باخبار هذه
 المسألة مفصلة

وكنت تعجب من اختيار السلطان لعمله رجالاً يشك في اخلاصهم وكيف
 يفترى عليهم الكذب مع قدرته على ابعادهم وحبسهم بل كيف يتخذ قصر السلطنة
 سجناً للجنة ويعذب الناس في سرايه ويأمر باجراء ما يخالف القوانين ويحط من
 قدر الدولة. وكنت لا أصدق ما احتوت عليه المكاتيب ظاناً ان السلطان لا يرضى
 بمثل هذه الامور وصادف ذلك ان وقع زلزال في جزيرة ساقر فجمعت مقداراً من
 الاعانة وأرسلته لاهلها البؤساء فارسل السلطان الي يظهر امتنانه وكانت رسائل
 الثناء والمدح ترسل الي من الماين كل يوم فكنت اظن ان الاخبار السالفة الذكر
 غير خالية من المبالغات

و بعد أيام أرسل الي احد اصدقائي المقربين من السراى الواقفين على اسرارها رسولا يقول ان رجال الحركة الحالية في الاستانة يرومون ايقاعى أنا ورشدي باشا في فخ وان بعض ذوي الضمائر الحرة لا يؤيدونهم ويبدل لي النصيح قائلاً (فاخرج اني لك من الناصحين)

وحضرتني احد اصدقائي الاجانب وقال لي انى قد أحضرت وابوراً مخصوصاً لركوبك وارسالك الى اوربا فرفضت طلبه غير مكترث بهذه الاشاعات الكاذبة وقلت ان ذهابي الى اوربا يكون كحجة قوية لاعدائي وكيف ارتكب جريمة الفرار لمسألة لانصيب لها من الصحة ومع هذا فاذا كانت مسألة قتل عبد العزيز تتعلق بي وورشدي باشا فلم لم يسألنا أحد عن أسرار هذه المسألة لليوم ولم لم يجلبونا الى الاستانة سوالنا عن التهم المرتبة ضدنا

وفى يوم الاثنين ٤ مايس و ليلة الثلاثاء بينا كنت نائماً في دار الحكومة في دائرة الحرم بين أفراد عائلتي احاطت بدار الحكومة ثلاثة طواير من العساكر بعد نصف الليل

(المترجم) لم يدر احد كيف اخذوا المرحوم مدحت باشا الى السراى وكيف حكموا عليه وعلى رفيقه المرحوم محمود جلال الدين باشا ولذا فسنترجم كتاب محاكمته ونشره بين قراء العربية ليقفوا على أسرار المسألة تمام الوقوف ونشرح اليوم قصة خلع عبد العزيز تقلاً عن مذكرات المرحوم

﴿ لم خلع عبد العزيز ﴾

ان خلع السلطان عبد العزيز قد تم باتفاق افكار الامة اسلامة الدولة وكان جالس السلطان عبد الحميد نتيجة طبيعية لهذا الخلع وبعد ان جلس جلالته على تخت أجداده عزل الوكلاء (النظار) الذين قد سببوا خلع عبد العزيز لسبب لاعلمه واسقط مدحت باشا من منصب الصدارة ونفاه من الاستانة الى اوربا ولكن تدمر الشعب وتطلعه الى اسباب عزل مدحت باشا وابعاده قد اضطر

عبد الحميد الى تخدير أعصاب الامة فأذاع بواسطة اعوانه وجرائدهم ان اوراق مدحت باشا قد ضبطت وانه ضد أعضاء البيت المالک وانه قد النى الارادات السنبة

وبعد هنيهة ارسل رشدي باشا الى مغنيسا (هى بلدة قرية من ولاية ازمير) وارسل خير الله افندي الى الحجاز وكان قد ارسل السردار عبدي باشا ورفيقه رديف باشا الى رودس بغير حكم قانونى وظهرت له براءة سليمان باشا وادانة رؤوف باشا ولكنه قد اصدر الحكم على الاول ونفاه ونفى عدداً كبيراً من الضباط وطردهم من الجيش

وعلى كل حال فان عبد الحميد لم يبق في الجيش ولا في وظائف الحكومة رجلاً تداخل في خلع عبد العزيز فابعد بعض العلماء وبعض رجال الجيش وبعض رجال السراى في مدة قصيرة فعرف الناس قصده

وكان يريد بهذه الافعال تسكين افكار رجال السراى ولكن سوء نتيجة الحرب الروسية قد أ كثر التقلبات بين الناس وانتشر ايضاً خبر شفاء السلطان مراد وظهرت واقعة السعاوي فوقع رجال السراى الحميدية في كارثة وظنوا ان رجال الحركة الوطنية المسيبين خللع عبد العزيز وسجن مراد لا يتركون السلطان الجديد حراً ما داموا في قيد الحياة وكان رؤوف باشا قد توجه الى روسيا بعد جلوس السلطان وعاد وقد حمل وصية من امبراطور الروس فخواها وجوب ابطال القانون الاساسى (الدستور) للمحافظة على استقلال السلطان ونصح لعبد عبد الحميد اخصاؤه ايضاً باتباع هذا الرأي والانتقام من مسيبي خلع عبد العزيز ولكن اتحار عبد العزيز قد حصل في وسط نساته وجواريه وخصيانه ولا سبيل الى عزو امر قتله الى اساطين الدولة وعظماؤها الا بتصنيعه بمسوغات قانونية وتنفيذها بواسطة قضاة المحاكم الحديثة العهد اذ ذاك لان رجال سراى عبد العزيز قد علموا انه اتحار ولا يتصور احدهم انه قد قتل بأمر السلطان مراد ولكن جودت باشا ناظر العديلية قد تعهد

باسناد هذه الجناية الى مسبي الخلع واثباتها بواسطة القوانين الجديدة ورجال
القضاء الاحداث

ولما كان التزوير باسم الحكومة يصغرها في أعين اهل الانصاف أحضر
محمود نديم باشا جماعة الى الاستانة من جزيرة مدلى ومن الخارج اذ لم يجد في
الاستانة من يساعده على تزيف البهتان وافتراء الكذب على أرباب الشرف
واهل الانصاف وكون منهم جمعية

وقد اشتغلت الجمعية تحت ستار الخفاء سنة في الاستانة وهيأت الاسباب
ورأت الفرصة سانحة وقال افرادها ان الصهر محمود باشا لم يشترك في أمر خلع
عبد العزيز ولكن محوه خير من وجوده لان باب الاتهام واسع ولا بأس من
ادماجه في زمرة المتهمين وادخلوه مع غيره من الابرياء وفي الختام أصدر قومسيون
الفصل المضحك - المجتمع في السراى تحت اسم قومسيون التحقيق - قراره باعدام
احد عشر شخصاً منهم السلطان مراد ووالدته والبشوات رشدي ومدحت ومحمود
ونوري وحبس شخصين عشر سنين وصدر الحكم باسم نظارة عدلية الدولة (المترجم)
وسأشرح أسرار هذه القضية في كتاب محاكمة مدحت باشا بالتفصيل :

عرف الوكلاء أن هذه الاحكام غير صحيحة فلم يوافقوا عليها فبقى في الاستانة
من المحكوم عليهم السلطان مراد ووالدته ولم يتحمل رشدي باشا تهديدات
الحكومة بعد هذا الحكم فمات على الاثر وأرسلت الحكومة بقية المحكوم عليهم
الى الطائف وألحقت بهم خير الله أفندي (وكان قد أرسل الى مكة) قبل أن توجه
اليه سواً ولا جواباً . قضى الامر وجف القلم وانتهت المسألة التي اشتغل بها
المابين زمناً طويلاً وحصل له المطلوب وصدقت المحكمة الرسمية على القرار
وأصدرت حكمها طبق ارادة المابين بانية اسبابه على جناية كبرى لا يتصور ابن
آدم اجترأح أكبر منها ولم يبق لاحد مجال قول خصوصاً بعد ان صدر على الجناة
حكم الاعدام واشفق السلطان عليهم فخفف الحكم وحوله الى النفي المؤبد
ولكن هذه الظواهر لم تخدع الرأي العام لان تهديد البهلوان مصطفى ورفاقه

في محكمة يلدز قد ذاع وملاّت اخباره الاسماع ووقف القاضي والداني على ما هنالك من الاسرار خصوصاً بعد المحاكمة وقد ملاّت جرائد اوربا اعمدها بذكر تلك الاعمال الوحشية فشوهت سمعة الحكومة بين أهل الاستانة وبين الاجانب وندم مرتبو المسألة فلم يجسروا على اعلان صورة الحكم ومنعوا صحف الاستانة عن الخوض في جزئيات المسألة وكلياتها ولم يسمع احد من يوم خلقه آدم الى ذلك الوقت أن محكمة تقترى الكذب وتصدر أحكاماً على رجال أبرياء من العطاء قاضية باعدامهم ولذا فان الاجانب لم تساعدهم قلوبهم على اخفاء تلك الاهوال

وقد ضيقت الحكومة الخناق على المحكوم عليهم بالنفي الى الطائف واستعملت معهم أنواع الشدة وضروب التعذيب ومنعت عنهم عائلاتهم رغماً عن وعود السلطان بارسالها وليت الامر قد بقي عند هذا الحد فقد خافوا افتضاح أمرهم فحبسوا كل واحد في مطبورة بقلعة الطائف ووضعوا على باب الحجره عدداً من الحراس ومنعوا المحبوسين عن مكاتبة اولادهم وقد جرت العادة من قديم أن يخبر السجين أهله وأصدقائه بعد صدور الحكم عليه ولم تمنع قوانين أي دولة المجرم السياسي من مخابرة أهله بعد نفيه واجلائه عن بلاده ولكن رجال السراي كانوا يريدون اخفاء جنائيتهم عن الجمهور وقد عرف الشعب خفياهم ولم تخدعه ظواهرهم وكان عبد الحميد يركب عربته ويذهب الى بعض منتزهات الاستانة في كل عام مرة او مرتين فلزم سرايه بعد هذه الحادثة واتسعت شقة الخلاف بينه وبين الامة

غلت مراحل الصدور فلم يفه رجال السراي بينت شقة فعلم الناس ان المقيمين في سجن الطائف قد ابتلعتم الغول التي قد فغرت فاهاً في الاستانة وسكت رجال السراي وحظروا ذكر اسم مسجونى الطائف على العامة وبخاصة ولم يبيحوا لاحد ذكر اسم السلطان مراد ثم عزوا الى مسجونى الطائف بواسطة جرائدهم وسماستهم أموراً لا تدخل تحت حصر لذر الرماد في أعين البسطاء قائلين ان مدحت باشا قد حاول تحويل الحكومة من ملكية الى جمهورية وأراد الفتك بأعضاء البيت المالك ليكون رئيساً للجمهورية وكرروا الاشاعات التي قد أشاعوها قبيل ابعاده الى اوربا

وأردفوها بمفتريات جديدة قائلين ان مدحت باشا قد سبب حرب الروس ووقع الدولة في كوارث لا طاقة لها باحتمالها ولم يتركوا في دوائر الحكومة سبباً او خطأ الا وقد ألقوه بمدحت باشا ولم ينسوا الصهر محمود باشا اذ اختصوه بقسم من هذه المفتريات

ونشرت جريدة الجوائب العربية في سنة ٩٩ هجرية مقالة بايعاز السراى قالت فيها ان غوائل الدولة الداخلية والخارجية هي نتيجة سوء تدبير الصهر محمود باشا ورفيقه مدحت باشا لان الاول كان يصدر في زمن الحرب الروسية الاوامر الى الفيالق وهو في سريره ففشل بسبب أوامره القواد وأما الثاني فقد حاول تحويل الدولة الى جمهورية واتفق مع الاول فوقع الدولة في كوارثها الحالية

لجأ عبد الحميد الى جريدة الجوائب العربية لنشر مفترياته لان جرائد اوربا قد عجمت عوده ووقفت على سر المسألة فلم تنخدع باقوال السراى ولذا فقد نشر هذه المرة مقالة طويلة في الجوائب ووزع أوفاً من نسخها على عربان البوادي

ومن العجيب ان قواد الفيالق وضباطها كانت الاوامر تصدر لهم من السراى السلطانية وقد نشرت هذا الخبر جريدة زبدة الحقائق فكيف يلبصقون هذه التهمة بمحمود جلال الدين باشا ويقولون ان القواد قد انهزموا بسبب الاوامر التي اصدرها لهم ولم ينشروا أمراً واحداً من الاوامر التي اصدرها

أما مدحت باشا فكان قد سافر الى اوربا قبل اعلان الحرب بأربعة أشهر وبقي هناك الى ان انتهت فكيف يكون مقبلاً في اوربا ويتحد مع الصهر محمود باشا في الاستانة ويشير عليه باعطاء الاوامر للقواد سبحان الله

اذا اختلف اثنان من الافراد وعجز أحدهما عن اثبات حجته عزا الى رفيقه أمورا تافهة ظاناً انه يتبرأ من تبعة جريمته بعزو الجريمة الى غيره وقد رأينا أمثال هذه الوقائع من الافراد فلم نتعجب ولكننا لم نرد دولة تفتري الكذب ولا قرأنا مثل ذلك في أساطير الاولين لان الدولة يتكون مجموعها من جماعة الرؤساء والعطاء والوكلاء وهم مسئولون عن احوال الملة واذا قام فرد او فردان بعمل ينتج اقراض الدولة

فكيف يسكت العطاء والا كابر وأي عجز يضطرهم الى السكوت وما الذي يمنع الحكومة عن مجازاة الجناة وما الذي اضطر الحكومة الى جلب مدحت باشا من اوربا بأنواع الاعزاز اذا كان قد ألقى الدولة في أزمة هو والصرير محمود جلال الدين باشا وكيف سلمت اليه الحكومة ولاية كبيرة كولاية ازوير وسلمت الى رفيقه ايضاً ولاية طرابلس الغرب وكيف احتاجت الدولة اليهما وفي أية حكومة تلقى تبعة خطأ الحكومة على عاتق شخصين غائبين وقد عرف صبيان المكاتب براءتهما مما عزي اليهما فهل برأت الحكومة نفسها من وصمة العار وظهرت مرفوعة الرأس امام الشعب بعد الحكم عليهما

عزوا الى الصبر محمود باشا والى مدحت باشا ما وقع في أمور الدولة من الخطأ منذ سبع سنين وفتحوا باب الوشايات وبذلوا الاموال للشعراء ولارباب الصحف الذين لا شرف لهم

فأذاع بعضهم ان مدحت باشا قد عامل البلغار بقسوة أيام كان والياً لولاية الطونة فاغضب بمعاملته الروس ولولا قسوته لتخلص العثمانيون من غائلة الحرب وقال بعضهم ان مدحت باشا قد أنشأ الطرق فسهل للرسول دخول الاستانة وذهب بعضهم الى ان مدحت باشا سبب الحرب برفضه طلبات اعضاء المؤتمر المنعقد في الاستانة

وكانت مثل هذه الاقوال تؤثر في عقول البسطاء وكان مدحت باشا ورفاقه اذ ذاك في قلعة الطائف محرومين من وسائل الدفاع عن أنفسهم ولم يكن احد يجسر على التلغظ باسمائهم في الاستانة ولا في الولايات

ولنبداً الآن بتزييف أقوال اعداء الحقيقة الذين قالوا ان مدحت باشا كان يقصد تحويل الحكومة من ملكية الى جمهورية وكانت نفسه طامحة الى رئاسة الجمهورية . فكيف تحول الحكومات اذا كان المراد من التحويل اعلان القانون الاساسي (الدستور) فهو فكر وجيه لان الدستور يحول ادارة الحكومة من الاستبداد الى الشورى وينقل رعايا الدولة من الامر الى الحرية ويحدد وظائف

رجال الحكومة و بذلك يغير شكل الحكومة وهيئتها وقد أعلن عبد الحميد الدستور لتحصين حالة الامة واصدر ارادته القاضية باعلانه

أما الجمهورية فلا سبيل الى ذكرها عند اعلان الدستور والناس لا يجهلون ان الجمهوريات تكون بلا ملوك على ان مواد القانون الاساسي محتوية على ما يوجب ادارة الشؤون تحت رئاسة احد اعضاء البيت المالك وتسمية مجموع رعايا الدولة بالعثمانيين وهذان الشرطان هما روح القانون الاساسي واذا فقدنا الدستور واذا ثبت ذلك فكيف يتصور عاقل ان مدحت باشا الذي قد اشتغل كل هذه المدة وعرض حياته للخطر قبل اعلان القانون الاساسي يسعى تحت ستار الخفاء لقلب الحكومة الى جمهورية وابطال الدستور والحكومة الاسلامية محتاجة الى امام ووجود هذا الامام من شروط الدين الاساسية فكيف يذهب عاقل الى اسقاط الملكية واقامة الجمهورية مقامها

ولنصرف النظر عن كل هذه الادلة ونفرض المحال قائلين ان مدحت باشا كان يمني نفسه برئاسة الجمهورية وقد جلس السلطان مراد على أريكة اجداده واعتلت صحته وبقيت امور الحكومة ثلاثة أشهر في قبضة رشدي باشا ومدحت باشا وكانا قادرين على اخراج كل نية الى حيز الفعل ولكنهما قد اشتغلا بما يعود على الدولة بالفائدة ليل نهار ولم يلاحظ احد عليهما ما يوجب الشك في اخلاصهما واذا لاحظ فسا هي براهينه وكيف حاول مدحت باشا قلب الحكومة الى جمهورية بعد اجلاس عبد الحميد على أريكة اجداده

عرف الناس كذب هذه المفتريات ولكن اذا عتها بين الناس والتحدث بها كان يحصل لاسباب لا يجهلها الواقفون على سياسة الروس لان دهاء هذه الدولة يفوق قواها البريه والبحريه وقد استولت بهذا الدهاء على (اللهستان) و (القريم) و (أسيا الوسطى) وسلخت بلاد البلغار عن جسم الدولة

وقد عرف الروس عوائدنا واخلاقنا ودس الجنرال (ايغنايف) دسائسه اعزل مدحت باشا من ولاية الطونة واذاع عنه انه يريد احداث ثورة ويحاول تغيير

شكل الحكومة وأوصل الاشاعة الى الحرم السلطاني وملاها اذن بعض البسطاء وكان السلطان عبد العزيز يعرف ممثلاً هذه الاشاعات واسبابها فلم يابه لها ولكن أثرها قد بقي في اذهان بعض البسطاء ولما تولى محمود نديم باشا امور الصدارة للمرة الثانية حاول الانتقام من مدحت باشا وترويح افكار الجنرال ايغنايف لارضاء حكومة الروس فدرس دسائسه وافهم رجال السراي ووالدة السلطان وبعث هذه المقتريات من قبرها

ولما خلع السلطان عبد العزيز وظهرت مسألة القانون الاساسي واجتمع مجلس المبعوثين وفارق السراي السلطانية ١٢٠٠ سانس و١٠٠٠ (طبلكار) و(طاه) (الطبلكار هو الذي يحمل طبقات الطعام) ٦٠٠ (قواربي) وأمثالهم من الخدم والخفراء وغيرهم ولم تخصص الحكومة لاحدهم مرتباً بسبب الضائقة المالية فحقدوا على الحكومة هم وغيرهم من رجال حاشية عبد العزيز وحاربوا القانون الاساسي (الدستور) بكل قواهم ونشروا بين الناس أقوالاً لا يصدقها الا البسطاء منها أن الدستور سيحدد سلطة السلطان ولم يكتنوا بهذه الارجوفة بل قالوا ايضاً ان القانون الاساسي سيلغى ويقلب شكل الحكومة من ملكيه الى جمهوريه ويكون مدحت باشا رئيساً لتلك الجمهوريه

ولما تولى مدحت باشا أمور الصدارة للمرة الثانية وأعلن القانون الاساسي دبت في الدولة روح الحياة الجديدة وأجاب رجال الدولة روسيا عن مطالبتها في مسألة الروميلي ووافقت الدول الاوربية على ذلك وبدأ رجالها بالاصلاحات لاسكات الروس وشكلوا عدداً من العساكر المتطوعه في بعض الولايات فكان الناس يميلون الى الاصلاح ويمجدون افعال حكومتهم وتفاءل محبو الاصلاح بقرب انفراج الازمة التي قد استمرت ثلاث سنين

كل هذه الاعمال لم تؤثر في خط حركة روسيا بل استمر الجنرال (ايغنايف) في طريقه وأذاع الارجيف الاولى فاثرت في رجال السراي وقالوا ان مدحت باشا قد حاول قاب الدولة الى جمهوريه ليكون رئيس الجمهوريه في المستقبل وقد رتب

جيشاً من متطوعي الاهالي في الولايات وفي الاستانه لاعلان الجمهوريه واذا لم يتدارك السلطان هذا الامر بحكمته حاصر هذا الجيش السراى واسقط الملكيه واحل الجمهوريه محلها

وقد اتجت هذه الاشاعات نتأج مشهوره منها جلب مدحت باشا الى السراى واخذ خاتم الصدارة منه وارساله الى اوربا والغاء طوابير العساكر المتطوعه في الولايات وفي الاستانه والغاء القانون الاساسي (الدستور) بعد وعد الدول باعادة نشره في اول فرصه وايجاد أبواب مجلس المبعوثين وفضه

نعم! نتجت اذاعة الارجيف هذه النتأج وظن مذيعوها انهم قد ربجوا ولكن من الراجح ومن الخاسر

نصح الجنرال (ايغنايف) للسلطان وكانت نتيجة نصائحه حضور عساكر الروس الى (سان استيفانوس) فكيف ربجت الدوله في معاهده (سان استيفانوس) رأى الناس بأعينهم نتيجة هذه الخيل وعرف الذين في قلوبهم مرض نيات الروس ولكن لات حين مناص واشتغل الناس عن ذكر ما عزي من المقتريات الى مدحت باشا بعد ان نفى عبد الحميد عبدي باشا ورديف باشا ورشدي باشا وسليمان باشا وغيرهم من العلماء والعطاء ورجال الجيش وأغلق بيوتهم وترك عائلاتهم في حاجة الى القوت ظاناً انهم قد اشتركوا في خلع عبد العزيز وكان العوام والخواص يشهدون ان هؤلاء غير مسئولين عن تبعه هذا الامر وكان عبد الحميد يريد ابعاد عطاء الدوله لان شيطانه كان يوسوس في صدره فرتب رجاله فريه قتل عبد العزيز واعادوا ذكر المقتريات القديمه ولكن سكان الولايات لم يصدقوا هذه الاكاذيب اما بلاد العرب فان سكانها لا يشتغلون بسياسة الدوله واخبار الاستانه لبعده الشقة بين بلادهم وبين الاستانه ولذا فقد نشر رجال السراى في هذه المره مقترياتهم في جريده الجوائب فكتبوا ما خلاصته ان مدحت باشا سيقبب الدوله الى جمهوريه ليكون رئيساً وان محمود باشا الصهر كان يصدر الاوامر الى قواد

الفيالق وهو راقد في سريره وهذا هو الذي سبب هزيمة الجيش العثماني وانتصار الروس

رتبوا الارجيف وقالوا ان مدحت باشا يبغض أعضاء البيت المالك ولا يتصور عاقل ان هذه العداوة تكون شخصية لان مدحت باشا لا يعرف فرداً من أعضاء العائلة المالكة فلا سبيل اذاً الى العداوة الشخصية واذا كانوا يبرهنون على صدق دعواهم بمسألة عبد العزيز فهذا غلط لان خطأ الفرد لا يشمل المجموع نعم ان عبد العزيز قد خلع لوقاية مصالح الدولة وجلس السلطان مراد على أريكة الملك وتبعه عبد الحميد فهل الاخير من غير أعضاء البيت المالك واذا كانت هيئة الوراثة باقية على القديم فكيف يدعي أعداء الحقيقة ان بعض الوكلاء حاقد على أفراد العائلة المالكة وأي فائدة تنتج من هذا الادعاء وكيف يقدم شخص أو أشخاص على خلع ملك جليل القدر لعداوة شخصية

ولئذ ذكر الآن مسألة الخلع وهي من المسائل التي قد عرف أسبابها الجمهور فلا حاجة الى تكرارها ورجال عبد العزيز قد أحفظهم أمر خلعه لانهم من المخلصين سيدهم وهم يقولون انه برئ مما عزى اليه واذا كان قد ارتكب ذنباً فلم لم ينبهه الوكلاء (النظار) ولم قدموا خلعه على النصيحة

هذا ما يقوله خواص عبد العزيز ورجال حاشيته وهم غير ملومين بيد ان بعض أرباب الاغراض كانوا يستعملون هذه الاحدثة كسلاح انتقام فيقولون ان نصيحة السلطان الخلع لم تكن خارج الامكان وقد خلعه اربعة اشخاص لمنفعتهم الشخصية وقد حضر عدد غير قليل من رجال الاستانة الى الوكلاء بعد خلع عبد العزيز واثنوا عليهم ثم عادوا فجاروا المناقنين على افكارهم فكثرت عدد المداهنين فرأينا من الواجب شرح هذه المسألة في الاسطر الآتية

ونسأل اولاً هل ارتكب عبد العزيز من الامور ما يوجب خلعه في اواخر أيام حكمه ولو نظرنا الى أحوال الدولة الداخلية والخارجية نظر انصاف لحكمتنا أن السلطان عبد الحميد المرحوم لم يترك من الديون سوى خمسة وعشرين مليوناً ولكن

عبد العزيز قد أسرف و بذر فوضع الدولة تحت عبء ثقل من الديون فبلغ دينها في زمنه مائتي مليون من الليرات وكانت الدول الغربية قد ساعدت الدولة في حرب القريم مساعدة مادية و بدنية

وقررت في معاهدة باريس باتفاق الآراء حفظ مجموع الدولة بيد أن عبد العزيز قد وافق روسيا على أعمالها وأخر الخطوط الهايونية القاضية باجراء الاصلاحات المطلوبة فضاعت ثقة اوربا بنا وولى محمود نديم باشا مهام الصدارة بعد عالي باشا فأضاع نديم شرف الدولة بأعماله وزاد الطين بلة بمسألة السهوم العمومية التي أظهر بها فراغ مالية الدولة واضاع مجد الامة القديم واقترض باسم مصر مقداراً من الاموال وحاول عقد معاهدة مع الاجانب فلم يقبل الوكلاء طلبه ورفضوه رفضاً باتاً واصدر خطأً همايونيا قبل اخذ رأي الوكلاء خالف به قوانين الدولة ونظاماتها المتبعة وكان يأخذ الاموال من خزينة الدولة ويوزعها على اخصائه وابع بعض رجال سرايه عمل اوراق مالية وتوزعها على الناس بلا فائدة واعان ان الحكومة لا تعطى فائدة لحاملي الاوراق المالية وأخذ هو فائدة سبعة ملايين من الجنيهات وسرق محمود نديم باشا مائة ألف ليرا من اموال الحكومة فمعا عنه ونفي عدداً غير قليل من الوزراء والعطاء بلا محاسبة لغير سبب قانوني وجازى موظفي الحكومة الموجودين في بلاد البلغار زمن الثورة البلغارية ولما ثار البلغاريون تأخر عن ارسال عدد من العساكر لقمع الثوار والمحافظة على ارواح المسلمين فذبح البلغار عدداً من المسلمين . وكانت سيئات عبد العزيز ظاهرة لا يقدر على احصائها كاتب منها انه أخذ سنداً بمليون من الليرات من ظريفي بازركان في مسألة تحويل الديون والقرض الذي قد عقد عقبيها

ونحن نريد تدقيق هذه المسألة بلا تحيز الى أحد الفريقين فنسأل عن الامور

الآتية وهي :

أولاً هل جرت الامور السالفة الذكر

ثانياً من الفاعل

ثالثاً اذا أثبتت هذه الامور فهل تقع الدولة في خطر

ان الذين لم يقفوا على حقائق الاحوال او الذين في قلوبهم مرض لا يعترضون على هذه المسائل لان المسألة ليست من المعنويات بل من الامور التي قد ظهرت للناس وأثرت في عظمة الحكومة وعرفها القاصي والداني في أنحاء بلاد القطر وفي الخارج واذا ظهرت هذه المسائل ولست باليد ظهر ولا شك فاعلمها واذا فرضنا المحال وقلنا ان هذه الكباثر لم تصدر من عبد العزيز وجب ان يفرض وجود سلطان غيره وهذا من المستحيلات واذا كانت بعض الفظائع قد صدرت من محمود نديم باشا وأسعد باشا لخيانة أحدهما وعجز الآخر عن القيام باعباء وظيفته فهذان الشخصان قد توليا امور الدولة لترويج مآرب عبد العزيز فظهرت مثالب محمود نديم باشا وفضائحه في صدارته الاولى ورغماً عن كل ذلك فان عبد الحميد قد أعاده الى منصب الصدارة غير ناظر الى استغاثة الشعب فأوقع الدولة في أزمات أشد من الاولى ولا يظن عاقل ان أفعاله كانت مغايرة لمقاصد السلطان عبد العزيز

واذا نظرنا الى وقوع الدولة في أزمات وميلها الى الانقراض بسبب هذه المسائل ونظرنا الى القاعدة الكلية القديمة وهي : ان مدار حياة الدولة على المال والرجال : وعرفنا فقدان هاتين الواسطتين من بلادنا بسبب تبذير عبد العزيز الذي ادخل الامة العثمانية تحت اعباء الديون واضطر الحكومة الى اعلان الافلاس فتزات من درجة عظمتها الى دركات حضيض الذل وابتعد اصحاب الشرف والاباء عن خدمة الحكومة وتقرب اليها الاوغاد الخاملون الذين يطأطئون رؤوسهم للعطاء ولا يهتمون بأمور الحكومة وكانت روسيا تحاول ترويج مقاصدها من يوم حرب (القريم) فكان رجال الدولة يظاهرونها فاحفظ ذلك دول الغرب والخلاصة ان رجال السراى كانوا يروجون مقاصد الجنرال (ايغنايف)

وقد ظهرت نتائج أفعالهم ومقدماتها وحق على عبد العزيز سخط الامة ما الذي كان يجب على النظار عمله ازاء هذه الاحوال وهم المسئولون امام

الشعب بعد الخليفة هل كان يجب عليهم السكوت وإيقاع الامة في هاوية الخراب
واذا فعلوا ذلك فمن يكون المسئول

ان كل رجل مكلف بوقاية وطنه من المخاطر ووكلاء الدولة تحتم عليهم
وظائفهم درأ الكوارث واذا لم يفعلوا خانوا الوطن والامة واستحقوا اللعنة الى
يوم الدين

ان ما تقدم يثبت ان الذين قد عرضوا ارواحهم للخطر لتخليص الوطن قد
أحسنوا ولم يخونوا بلادهم وهذا ما يقوله المنصفون وهنا حقيقة ثابتة وهي ان بعضهم
قد قال ان اصلاح احوال السلطان المخلوع كان متيسراً فلم خلعه ولم ينصحوا له
قبل الخلع ولكن رجال الدولة قد أجهدوا أنفسهم وبذلوا له أنواع النصائح فقدم
جلالته عالي باشا بعد عودته من كريت لائحة قال فيها ان حالة الدولة توجب
الاتفات وتقتضي الاصلاح فلا ينبغي اغفال الاصلاحات ويجب اجراء ما يلزم
للمساواة بين أصناف الرعية فلم تؤثر اللائحة في أعمال عبد العزيز ولم يقف تيار
أعماله بل زادت غلطاته زيادة محسوسة وحمد على عالي باشا ثم انتهت فرصة موته
ووجه مسند الصدارة الى محمود نديم باشا فأوقف نديم سير الاصلاح وفعل أفعالاً
لا يصدقها العقل ولا يجذده عليها من عنده ذرة من الغيرة على وطنه وتسبب نديم
اذ ذاك في نفي حسين عوني وشرواني لانهما كانا من محبي الاصلاح

وكنت في صدارتي الاولى قد قدمت لائحة للسلطان أظهرت له فيها اضرار
القروض التي تقترضها الایالة المصرية وقلت له انها ستفتح للاجنبي باب المداخلة
في شؤون مصر الداخلية وتقتضي على استقلالها وتخرجها من ادارة الدولة العثمانية
فأصدر عبد العزيز أمراً قاضياً بعدم القرض وعاد فاسترده بعد اعتزالي منصب
الصدارة

وكان نديم قد سرق من المالية مائة ألف جنيه فظهرت سرقة وكانت نتيجة
اظهارها عزلي من مسند الصدارة

وقد وعد بعضهم شرواني في أيام صدارته بمبلغ كبير هو ورفيقه عوني باشا

لاعطاء خديو مصر بعض امتيازات فلم يقبلوا ولكن الامتيازات قد أصدرها غيرهم
 وجمع شرواني رفاقه في مصيفه وحادثهم في أمر تبذير أموال الدولة وقال يجب
 أن نضع حداً لهذا التبذير ونساوي بين افراد الامة وكانوا يخافون عظمة عبد العزيز
 وكبرياءه ولا يجسر أحدهم على ذكر الدولة والامة والحرية والعدل في حضرته
 فرتبوا لائحة طالبين الاصلاح وعرضوها عليه بواسطة والدته وكنت قد كتبتها بخطي
 فصدر أمر عبد العزيز قاضيا بعزلي من نظارة الاحكام العدلية وأرسلني الى سلايك
 وعزل شرواني من الصدارة ونفاه الى حلب فهل نسي أرباب الغايات هذه الافعال
 عاد محمود نديم باشا الى مسند الصدارة للمرة الثانية وتسبب في نفي عوني باشا
 الى بروسه للسبب السالف الذكر وسبب بخيائه استعفاء مدحت باشا من نظارة
 الاحكام العدلية لان الباشاينجي محمد بك قد أرسله السلطان الى مدحت باشا
 وطلب منه تقديم لائحته المعلومة فقدمها وصرح بالاسباب التي قد أوقعت الدولة في
 أزمتها وقال ان تأخير الاصلاح أربعة أشهر سيودي ب حياة الدولة فلم يسأله السلطان
 عن محتويات اللائحة ولم يطلب حضوره ولو مرة الى السراي

والحقيقة ان نديم باشا أوقع الدولة في مشا كل داخلية وخارجية وظهرت نتائج
 أعماله فطلبت والده السلطان من مدحت باشا تقديم لائحة بواسطة أغا دار السعادة
 فقدمها فلم يقبلها عبد العزيز

هذا ما فعله الوزراء وأساطين الدولة وهو ما يمكن صنعه مع رجل قد اشتهر
 بالعظمة فلم يجسر احد على ذكر الاصلاح والوطن والامة والدستور في حضرته
 فما الذي كان يجب فعله معه أكثر مما قدمناه

عزل عبد العزيز نديماً بعد ظهور مسألتي البوسنة والهرسك وعين رشدي باشا
 لمسند الصدارة وعوني باشا للسر عسكرية ومدحت باشا بوظيفة في مجلس الوكلاء
 واطهر للناس انه قد سلم اليهم أمور الدولة والحقيقة غير ما اظهر لان رجال الدولة
 لا يجارونه على استبداده ولا يظاھره غير محمود نديم باشا وقد أثبت عبد العزيز
 ذلك بأفعاله المتتابعة ولكن الظروف قد اضطرت الى عزله وقد قال عبد العزيز

لرشيدي باشا الصدر الاعظم الجديد وشيخ الاسلام والسر عسكر يوم قابله ووجه اليهم مناصبهم : ان الامة تريد أن أوليكم هذه المناصب وسأنظر في أعمالكم .
وبدأ محمود باشا بدسائسه من يوم عزله فكانت والده السلطان تعاونه في داخل السراي وكان الموسيو (ايغنايف) وأذنا به يروجون مقاصده في الخارج لاعادته الى مركز الصدارة فثارت مراجل غضب الناس بعد سكونها وقوى تيار الرأي العام بعد سكوته لعلمهم انه اذا عاد الى مركز الصدارة في هذه المرة لا يرضى بنفي أعدائه بل يحاربهم بانواع التهديد والاحتقار

هكذا استولى اليأس على النفوس وعلم الناس ان عبد العزيز لا يغير مسلكه فانفقوا على خلعهم عالمين ان فيه لا في غيره خلاص الامة من ربة الاستعباد

وقد عاد عوني باشا من ولاية بروسه وصمم على اجراء الخلع وهياً أسبابه فتم الامر وجلس ولي العهد السلطان مراد على تخت أجداده عملاً بنظام الوراثة المتبع كان بعضهم يفكر في خلع عبد العزيز وينظر الى شخصه ولا يراعى مصلحة الامة فيقولون انه خلع بلا سبب ويعززون اسقاطه الى ثلاثة او اربعة اشخاص قائلين ان هؤلاء الاشخاص قد خلعوه لان مصلتهم الشخصية كانت تقتضي ذلك وكان غرضهم من هذه الاذاعات الصاق التهمة بالوكلاء

على ان خلع السلطان لا يتم الا باتفاق آراء الوكلاء ورضى الامة ولا سبيل الى اسقاطه باتفاق ثلاثة او اربعة ولو خلعه اشخاص معدودون لآزدرى الناس مقام الخلافة فلم لا يراعى هذه النقطة المغفرون التمامون المنافقون

رموا القول على عواهنه وقالوا ان الوكلاء قد سبوا خلع عبد العزيز فاذا سلمنا جدلاً ان الوكلاء قد خلعوا عبد العزيز او اشاروا على الناس بخلعه وجارتهم الافراد على أفكارهم فأين المصلحة الشخصية التي يعزها سمسرة السوء الى الوكلاء واذا كان المقصود من خلع عبد العزيز اخذ رتبة او سلب مال فقد كان رجال الحركة من الصدور ومشايخ الاسلام والوزراء يأخذون مرتبات كبيرة وكان الصدر الاعظم في زمن عبد العزيز يقبض مرتباً شهرياً قدره ٢٥٠٠ ليرا وكان يأخذ من

مصر ١٠٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه في كل سنة وكان باب اخذ الاموال مفتوحاً لرجال الحكومة في زمن عبد العزيز فكيف يدعي ارباب الغايات ان رجال الحركة الوطنية كانوا يودون خلع عبد العزيز لمنافع شخصية وقد كانت أبواب الرشوة مفتوحة في زمنه

وضع النظار سلطتهم بين ايدي اعضاء مجلس المبعوثين واعلنوا القانون الاساسي فكيف يتصور عاقل ان واضعي هذا القانون قد قصدوا باعلانه ترويج مصالحهم الشخصية واذا كان القصد من اذاعة هذه الاباطيل ترويج افكار القائلين بأن الغرض من اعلان القانون الاساسي قلب الدولة الى جمهورية والاستيلاء على امورها فهذا مما لا يصدقه عاقل

كان بعضهم يقول لو كان عبد العزيز حياً لتجت الدولة من هذد المصائب ولكن هل تصح هذه النظرية ولو اتظمت الادارة واتصرت الدولة على اعدادها في الحرب فهل كان أحدهم يجسر على مثل هذه الاقوال

لم لم يذكر اسم عبد العزيز عند انتصار العساكر العثمانية في زمن السلطان مراد وفي أوائل سلطنة السلطان عبد الحميد وظهور الناس بمظهر السرور يوم اعلان القانون الاساسي (الدستور) واستحسان الرأي العام ما فعلته الحكومة في مسائل البلغار والجبل الاسود والصرب

وكيف فكر عبد الحميد في هذه المسائل ونفي الصدر الاعظم في تلك الظروف وأعلن الحرب ضد الروس ولم عزل السردار الذي قد رسم خرائط الحرب بعد اعلانها وعزل السر عسكر ولاي سبب فض مجلس المبعوثين وما هو سبب نفي آلاف من رجال الدولة الامناء

ادعى أصحاب الغايات ان هذه المصائب قد جرها خلع عبد العزيز للفرار من تبعة أفعالهم وهي في واد وأفعالهم في واد

وقد قال مدحت باشا في اثناء محاكمته : اذا كان السلطان عبد العزيز قد مات فان مدافع كروب التي قد اشتراها وبنادق مارتيني التي قد ابتاعها لم تمت معه

ولكن الحكومة لم تحسن استعمال هذه البنادق وتلك المدافع ولو مات عبد العزيز قبل الخلع فما الذي كان يقوله اعداء الحقيقة في شأن وفاته

هذه هي الاسباب التي قد حتمت على الامة خلع عبد العزيز وقد أثبتنا بعضها وعززنا اثباتها بالادلة والبراهين فمن شاء ان يتقف على تفصيلها فليراجع أوراق الحوادث المطبوعة في ذلك الزمان وعلى الذين يريدون معرفة درجة سرور الامة من خلع عبد العزيز ان يتذكروا عدد الجموع المحتشدة في ميداني باب السرعسكرية و بايزيد وكان بعضهم يقول ان المتظاهرين قد اظهروا سرورهم في ميداني بايزيد والسر عسكرية لارضاء الوزراء والعطاء ومداهنتهم وخذاعهم

وقالت بعض الجرائد المأجورة ان مدحت باشا لم يرض الروسية ولو أرضاها لتخلصت الدولة العثمانية من غوائل الحرب الروسية ولو لم ينشئ الطرق لما قدر الجيش الروسي على اجتياز البلقان وهذه الاقوال تدل على جهل قائلها ومن الاسف ان بعض موظفي الدولة كانوا يروجون هذه الاكاذيب

يقولون ان تركيا كانت قادرة على اجابة مطالب أعضاء المؤتمر لتخلص من الحرب والقائلون هم الذين لم يقفوا على كنه مطالب الروس . وأقوالهم ~~ولا شك~~ تؤثر في أذهان الذين قد اصابتهم الحرب بمصائبها

ما هي مطالب روسيا في المؤتمر؟ هي سلخ بلاد البلغار عن جسم الدولة للاحاقها ببلاد الروس في المستقبل وقد وضعت هذه المسألة على بساط البحث في وزارة رشدي باشا وامتدت الى زمن مدحت باشا فما الذي كان يجب على مدحت باشا فعله لاسكات الروس هل كان يجب عليه ترك هذه البلاد الجسيمة المعمورة بلا حرب ولا قتال لاسكات روسيا واذا كان ذلك في أية دولة وقعت مثل هذه الامور . هل يقدر رجل من محبي الوطن على تسليم مثل هذه البلاد او أصغر منها للعدو

هل قال قائل بوجود تسليم هذه البلاد للروس يوم اجتمع رجال الدولة وروساء الاديان وأعيان الاهالي واتفقوا على رد مطالب روسيا باجماع الآراء

وما الذي كان يجب اجراؤه في هذه الحالة . وقد عقد مدحت باشا الصلح مع الصرب عملاً بنصائح دولتي انكلترا وفرنسا وحاول ابطال مفعول المؤتمر فأرسل بعض الموظفين الى الروميلي وبدأ في مخابرة الجبل الاسود لعقد شروط الصلح فأبعده السلطان الى اوربا وترك اعماله عقيمة وقامت قيامة ذوي الاغراض على مدحت باشا فقالوا انه أراد اعطاء بعض الاراضي لسكان الجبل الاسود

ما أسخف قول القائلين لو قبلت مطالب المؤتمر لبطأت الحرب وما أبعث قول بعضهم عن الحقيقة حيث قال ان مدحت باشا قد استعمل القسوة مع البلغار يوم كان والياً لولاية الطونه فأثار بافعاله غضب روسيا وسبب اعلان الحرب

أما محمود نديم باشا فلم يسبب عداوة روسيا بل جاب اليه قلوب الروسيين واتبع نصيحتهم فترك البلغار في ثورتهم أحراراً فكيف كانت النتيجة

هل كان يجب على مدحت باشا ترك أشقياء البلغار بين الذين حضروا من بلاد روسيا والمحذوا مع اشقياء البلاد احرارا يفعلوا اذ ذاك ما فعلوه بعد عشر سنين وهل ما بذله مدحت باشا من الخدم يعد جرماً

والخلاصة ان مدحت باشا ورشدي باشا وعطاء الدولة وعلماها وأساطينها الذين خدموا الدولة وفدوها بحياتهم قد نفاهم عبد الحميد وابعدهم عن عائلاتهم فباتت عائلاتهم بلا مجير ولا عائل وخربت بيوتهم بلا سبب سوى ان بعض الجواسيس قد قالوا له انهم سيبوا خلع عبد العزيز وأفهموه انه لا يستريح الا اذا نفي هؤلاء وابعدهم عن وطنهم

ولترك الاسباب التي اوجبت خلع عبد العزيز وتقول مع القائلين ان بعض النظار قد اتفقوا على خاعه . فلم نفي عبد الحميد الالوف من العلماء والعطاء وقضى على حياة عائلاتهم ولم ينظر الى اطفالهم بعين الرأفة فاصبح عدد غير قليل من ساكني الاستانة يرفع يديه الى السماء طالباً للسلطان النعمة فهل احسن هؤلاء الجواسيس واراخوا السلطان بهذه الفعلة الشنعاء

أمات عبد الحميد عددا غير قليل من الاهالى عملا بإشارة الجوايسيس وأرضى الروس ثم عزوا مصائب الدولة التي لم يقدر على تلافيتها الى غيره فما هذه الدناءة ابتعد مدحت باشا عن الاستانة وعن الوظائف ست سنين وعرف ابتعاده الخواص والعوام ولكن أرباب الغايات يقولون عن كل ما من شأنه تأخير الوطن هذا فعل مدحت باشا وقد سبب هذا مدحت باشا وهو قول فاسد لا يصدقه من عنده ذرة من العقل

ان القانون الاساسى (الدستور) يجعل الوكلاء مسئولين ويمنع المسئولية عن جلالة السلطان ولكن الاوامر التي قد صدرت من سراى يلدز الى القواد فى ابان الحرب قد سببت انهزام العثمانيين فقال مدحت أفندى الصحفى فى الكتاب الذى قد أمره الماين بكتابته ان السلطان مسئول عن كل شئ ثم أراد تبرئة ذمة السلطان من تبعة الاغلاط التي قد اقترفها الماين فوقع فى حيص بيص ونشر كتابا اسمه (اس الانقلاب) بعد أن صدرت له الارادة السنية وقال فيه ان محمود نديم باشا هو ناظر الداخلية ومستشار السلطان عبد الحميد وكان نديم قد أعان السلطان الخلوع على اغتصاب أموال الشعب وعلمه أنواع الاستبداد فكيف يعين مثل هذا الرجل مستشارا للسلطان الجديد

وأغرب من هذا وذاك قول بعضهم « لو كان عبد العزيز حيا لما حصلت هذه المصائب » واعلانهم فى الوقت ذاته على صفحات الجرائد أقوالا تدل أن هذه الاحوال هى نتيجة سوء ادارة الدولة منذ عشرين سنة فأى القولين صحيح وكيف يقول ذلك قوم ويدعون الصدق لعبد الحميد واذا كانت هذه المصائب نتيجة سوء الادارة القديمة فلم يقولون ان خالعي عبد العزيز قد أخطأوا

واذا نوى احدهم نقل الدولة من ملكية الى جمهورية فذلك لا يتم الا بموافقة الامة وقول الاعداء (ان مدحت باشا سيصيرها جمهورية) يؤثر فى مركز السلطان ويوسع شقة الخلاف بينه وبين الامة ولذا فقد سجن نفسه فى قلاع يلدز فن الذى قد أضرت تبعة نبي مدحت باشا ورشدى باشا هل أضرت الامة أو السلطان أو البلاد

لا نريد أن يفهم العالم قضيتنا معكوسة لاننا لا نقول ان مدحت باشا منزله عن
 النقائص لان نقائص الانسان كثيرة ولكن مجيئنا قاصر على أمور الدولة ولا يجب
 أن نمزجها بالصفات الشخصية وقد خدم مدحت باشا الدولة أربعين سنة بلا انقطاع
 ولم يرتكب جريمة واذا كان قد اجترح ما يغاير شعار الصداقة فيلذكرنا به المشعوذون
 ولا يحبك في صدر أحد أن الناس يصدقون ما أذاعه أعداء مدحت باشا عنه

من الاكاذيب بمد سجنه لان ذلك يحط من قدر الناس
 ونفى مدحت باشا وابعاده عن عائلته وسجنه في قلعة الطائف بغير مسوغ قانوني
 وقتله خنقا . كل هذه الامور لا دخل لها في بحثنا

﴿ نفي مدحت باشا الى الطائف ﴾

صدر حكم محكمة يلدز وصدق عليه وكلاء الدولة ورجال الحكومة اذ ذاك
 وحملته الحكومة هو ورفاقه على وابور عز الدين وعاملوهم معاملة وحشية وأوصلوهم
 الى جدة ومنها الى مكة مخفورين ومنها الى سجن قلعة الطائف وكان الميرالاي
 سليمان وشقيق حسن الشركسي القول اغاسى عثمان بك يتوليان أمر نقلهم من بلد
 الى بلد لاعطاء الاوامر لاعوانهم وهم أحد جاو يشية المعية وثلة من العساكر الشاكي
 السلاح فلم يتركا نوعا من أنواع الظلم الا اقترفوه

وسند كر فيما يلي من الصحائف مكاتيب مدحت باشا الدالة على ما لاقاه من
 الشدائد وما عاملوه به من القسوة في السجن

وقد سببت هذه المكاتيب شقاء عائلته فاستعانت أفرادها ببعض ذوى المروءة
 وتوجه للورد دوفرين سفير انكلترا الى المايين واعترض على أفعاله فقال له رجاله
 اننا سنصدر الى الطائف أمرا ليعتوا بأمر معيشة مدحت باشا
 وسيعرف القراء صدق وعد المايين من مكاتيب مدحت باشا ومن مكتوب
 شيخ الاسلام الذي أرسله الى عائلته يعزيها به بعد وفاة عميدها

﴿ صور بعض المكاتيب التي أرسلها الفقيه من منفاه ﴾

اصحابات العفة السيدات نعيمة وشهر بان هانم

أرسلتم اليوم لي رسم الاولاد مع بعض الملابس وقد كنت كتبت جوابات بعض المكاتيب فارساوا مكاتيبكم دائما الى مكة لاني قد أرسلت لكم أكثر من ستة مكاتيب فلم تصلكم كما يظهر من عبارات مكتوبكم وقد فارقت ازمير ووصلت الى استامبول فارساوني الى كوشك (شادر) بسرأي يلدز وسجنوني ومحمود باشا ونوري باشا كل واحد في حجره وقالوا ان السلطان عبد العزيز لم ينتحر ولكن السلطان مراد ووالدته قد أمرا فصدرت التعليمات من محمود باشا ونوري باشا الى ثلاثة اشخاص فقتلوه وادعوا ان لنا علما انا وخير الله افندي ورشدي باشا بهذه الجناية ووجهوا ضدنا تهمة القتل ايضا وبناء على هذا استجوبونا مع ان الرسائل كانت تردنا تباعا مكذبة هذا الخبر يوم كنا في ازمير . اما عيد العزيز فقد ارسل اليه ثلاثة اشخاص خدمته احدهم مصطفى البهلوان والثاني الحاج محمد والثالث مصطفى الجزائري وكان الثلاثة قد جلبوا من بلادهم ويقولون ان اثنين منهم قد اتفقا مع الماينجي فخري بك وقتلوه وقد عذبوا هؤلاء الاشخاص مع ان موت عبد العزيز قد وقع قبل وصولهم الى السراي فقد كانوا في القراقول الى ساعة موته وقد انتحر المرحوم عبد العزيز وفي سرايه والدته واولاده ونسائه وجواريه وعددهم ٣٠٠ من النساء ولم يقل احد لليوم كلمة تدل على موته بهذه الصفة فاخراج هذه القضية من العدم ثبت ما قاله لنا بعض الاصدقاء قبل اليوم ولنفرض ان عبد العزيز قد اغتالته يد ائيم نليس ثمة ما يثبت التهمة ضدي وضد رشدي باشا وقد أفهمتهم كل ذلك واطلت الكلام في المحكمة ففهم اعضاؤها ان المسألة مفترة ولما كان القصد اتلاف الاشخاص الذين يخشى من وجودهم فقد تصنع محمود نديم باشا وجودت باشا هذه الفرية وعلى كل حال فقد حكموا على محمود باشا ونوري باشا وعلى ١١ شخصا باحكام قاسية فلم يصدق العلماء وبعض الوكلاء على هذه الاحكام فقرر المايين نفيتهم والحقتنا بهم ولم تيسر لي ملاقة السلطان في كوشك (الشادر) ولكن

بعض الماينجية وبعض الحرس كانوا يحضرون كل ثلاثة ايام بأمره لتسليتي على زعمهم ويبلغون اليّ بعض اراداته

وقد حضروا آخر ليلة وقالوا لي ان محمود باشا ونوري باشا قد أعطيا أوامر للجنة وان الجنة قد اقرروا وان الأمر الاصيلي هو السلطان مراد وقد نفي السلطان بعض الرجال ورأى من اللازم نفينا ايضاً ونحن احرار في جلب عائلتنا الى منفانا وامروني ايضاً باعطاء مكاتيب لمن اختاره لا يصالها اليكم ولم يخبرونا عن المكان المزمع ارسالنا اليه فلم اعول على احضار عائلتي الى محل مجهول وكنت اظن انهم سيرسلوننا الى مثل رودس وعكا وغيرها فكتبت لكم مكتوباً وعزمت على ارساله اليكم ولكن بعض موظفي الحكومة قال لي نحن نرسلهم واخذ حقيقتي ايضاً فلم يرسلها ليوم وحبس الموظفون خادمي عارفاً في احدى حجرات الوايور فلم اراه وقد بقيت في الوايور بلباسي التي حضرت بها وانتظرت الحقيية فلم اظفر بها ولما وجدت خادمي عارفاً في الوايور وجدت ايضاً خادمي يوسف ومعه قميص نوم وعراقية فأخذتهما منه ولبستهما ولكني لم اجد غيرها من الملابس ففلسنت ما عندي من الثياب وانتظرتها بحكم الضرورة الى ان جفت وقد كرهت الدنيا بسبب ما رأيته من سوء المعاملة في كوشك (الشادر) وكنت قد اصبحت بمرض فكتبت وصية ووضعتها في الحقيية وفهمت اليوم انكم قد ارسلتم الحقيية مع طيفوز اغا ولكنكم لم تشيروا الى هذه الاوراق وعندي انهم قد حجزوها في السراي

ركبنا واور عز الدين ولم يعلم واحد منا اين يذهب به وقد وضعوا محمود باشا في حجرة قدرة ووضعوني ونوري باشا في مثلها من الحجر واغلقوها فوصلنا الى جدة وكانت حرارة البحر الاحمر تؤثر في اجسامنا لان فصل الصيف شديد الحر كما لا يخفى عليكم وكانت المراحيض قريبة منا فلم تتحمل رائحتها الكريهة وقد جن نوري باشا وهو الآن سجين ولم يفق من جنه ولما وصلنا الى جده اتضح لنا ان الغاية هي ارسالنا الى الطائف وكان يحرس كل واحد منا ثمانية او تسعة من العساكر فلم يحدث واحد منا الاخر لان احد المأمورين بنقلنا هو شفيق حسن الشركسي

المعلوم وقد اذاقونا انواع اللذ والتهقير ولما وصلنا الى مكة اقمنا بها يومين وكانت اقامتنا في احدي دوائر الحرم الشريف فلم نتمكن من الزيارة مرة واحدة ولما وصلنا الى الطائف سجنوا كل واحد منا في حجرة من حجر (القشلة) العسكرية ووضعوا على باب الحجرة جماعة من العساكر شاكي السلاح فلم ير واحد منا صاحبه ولا قدر على فتح احدي النوافذ وبعد مدة رأوا ان منعنا عن محادثة بعضنا غير ممكن فنحن اليوم نتحدث

وقد وجدنا بعض الاقصية وارسلت لنا حرم صفوت باشا المصري بعض الملابس وقمصان النوم فلبسناها الى هذا اليوم

وكتب المايين الى الشريف والى الوالي امراً قال لهما فيه ان هؤلاء قد نفوا والمايين يخشى فرارهم فلا تغفلوا امر مراقبتهم فأمر الشريف بوضع قيود الحديد في ارجل رفاقنا ثم امر برفها فأخذت لان مرضهم قد اشتد وقد سدوا النوافذ بالحديد

وامر المايين قد اجاز للمسجونين مخابرة اقاربهم وعائلاتهم على شرط ان تكون مكاتيبهم مفتوحة وقال ان يوستهم ستروح ومجيء مع بوسته الشريف فكتب بعض رفاقنا مكاتيب لعائلاتهم وذويهم ولم اعرف انا هل تقيمون في ازمير او في الاستانة ومع هذا فقد حررت لكم ستة مكاتيب ولشقيقتي ايضاً وارسلتها الى الحكومة بواسطة (طيقوز اغا) لتوصلها واتضح انها لم تصلكم ولذا فقد وجدت رجلا من ذوي الشهامة في الخارج اعنى اني قد وسطت اليه بعض ذوي الشرف وكتبت للشقيقة مكتوبين وارسلت مع احدهما مكتوباً يخص شقيقة محمود باشا ولما وصاني خبر وصول مكاتيبكم اليكم اخبرت رفاقي فبكوا بكاء يفتت الابدان لان لكل واحد منهم نساء وصبية تتوق نفسه الى مشاهدتهم ويتطلع الى اخبارهم ولو كان لاحدهم مثقال ذرة من الجرم اقلنا هذا جزاؤه فليتحمله وتسلينا بمثل هذا القول

لا تذكروا في مكاتيبكم شيئاً عن سجننا بل عرفونا عن صحتكم وعن مصالحتكم

العائلية وارقوه بمكتوب للوالي فاني اظن انه يرسله اليّ بعد قراءته
ولنعد اليوم الى حالنا اي الى احوالنا الشخصية . ان رفاقي في غم شديد بلا
شك ولكن درجة كدرتي اخف منهم ولا ادري ان الحالة صعبة كما يتصور مثلي
والسبب في ذلك انني قد تجاوزت الستين فكم سنة يعيش الانسان بعد هذا العمر
ولا يخفى عليكم اني قد عزمت على المعيشة منفرداً في السنة الماضية وقلت هل من
سبيل الى العزلة وتقضية بقية العمر بالعبادة والاشتغال بالأخرة وقد كررت هذه
العبارة مراراً

وطالما تمتت اشغال ذهني بتلاوة القرآن فالحمد لله الذي هداني الى حفظ
كتابه من جديد فقد وصلت الآن الى جزء (قد سمع الله) وانا احافظ على الصلاة
ايضاً واستعيز بالله (ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)
هذه الآية هي اكبر عزاء لي وما هذا الهجاء والاقتراء سوى عزاء لي ايضاً فانا
متوكل على ربي ومسلم له اموري فتوكلوا عليه وسلموا له امورك واذا كتبتم جواب
هذا المكتوب فقولوا ان مكتوب التوكل والتسليم قد وصل (يشير عليهم بالاشارة
الى مكتوبه وعدم التصريح بذكر ما احتوى عليه خوفاً من الجواسيس) وقرأناه
فاذا قلم ذلك علمت ان مكتوبتي قد وصل اليكم ولا تكثروا من التفصيلات
والحاصل اني لا اذكر شيئاً سواكم ولا يضيق صدري الا اذا ذكرت بعدي عنكم
وعن الاولاد فانا اطلب من الخلاق العظيم جمع شملنا . وقد كسرت اسناني الصناعية
ولا يوجد من يصلحها هنا ولذا فاني اتحمل مشقة لا تطاق وقت الطعام وقد طلبت
مقداراً من التبغ في احد مكاتيبي الى (طيقوز اغا) وطلبت ايضاً (جزءين من تفسير
البيضاوي وتفسير روح البيان لاسماعيل حقي وجزأ من الاربعة الاجزاء الفرنسية
ذات الجلد الاصفر التي كنت اطيل قراءتها وكلها بين كتيبي في ازمير فاذا امكنكم
ارسالها فلا تتأخروا وقد علمت من مكتوبكم انكم مهتمون بتعليم الاولاد وسررت
غاية السرور . اتم عيني على حيدر ووسيمه وصابره (اتم العين تعبير تركي يستعمل
للسلام على الغائب المحبوب) واسلم على دريه هانم وعلى الاغوات والجميع

عزمت على اداء فريضة الحج بعيد حضوري الى هنا فرضي الشريف وعزم على اخذي معه ولكن داء الكوليرا قد انتشر في مكة فعدلنا عن هذه النية وقد حررت للمايين منذ اسبوع مكتوباً وامضيته وامضاه ايضاً محمود باشا وقلنا فيه ان هذه البلدة لا يؤمها احد في الشتاء وقد وعدنا السلطان باستصحاب عائلاتنا واولادنا فاذا بدل مفانا لتوصل الى احضار من يقوم بخدمتنا من السيدات والجواري كنال له من الشاكرين وانا لا أظن ان السراي يجيب على هذا المكتوب بيد اني انتظر الجواب كنت قد تركت صندوقين محتويين على سندات ونياشين عند مدير شركة أرصفة ازميز وكتبت له من هنا مكتوباً بواسطتكم قلت له فيه ان يسلم اليكم الصندوقين ويأخذ منكم ايضالاً فلم يصلكم مكتوبى المحتوي على مكتوبه ولم تسيروا ايضاً الى وصوله فاذا كانت الصناديق لليوم عند هذا الخائن وكان الخائن في ازميز فأفيدوني عنه لا كتب له واخبروني عن ايراد اراضينا وايراد كرومكم واقبلوا دعاءنا صاحبة العفة هانم افندي حضر تلى

لم يصلني مكتوب بعد الذي اخذته قبل رمضان مع الملابس ولذا فقد تأسفت غاية الاسف وحرزت اشد الحزن لاقطاع اخباركم واخبار الاولاد ولا بد ان تكونوا قد ارسلتم لليوم نقوداً وماً كل ولكنها لم تصلني لاقطاع المواصلات فاحتياجنا الى النقود قد زاد لان الخمسين امرا التي قد ارسلتموها في العام الماضي والمبلغ المرسل من الاستانة قد صرفناها وما ذلك الا لان الحكومة كانت قد عينت لنا وكيلاً وطاهياً (طباخاً) وفراشاً بيد انها منعتهم عنا في هذه الايام وضيقت علينا الخناق فلم تعط واحداً منا ما يلزمه من الماء كل فاحتجنا الى الدراهم وعاونوا اخواننا المسجونين معنا لانهم في احتياج شديد وقد اعطينا بعضهم ملابس انا ومحمود باشا ورأينا من الواجب مراعاة احوال الخدم لانهم قد دخلوا السجن بسببنا فصرفنا ما في يدهم ولم يبق الا القليل ولقد احتجنا الى استرداد ما اعطيناه للخادم من مرتبه وكنت قد ذكرت لكم في مكتوب ارسلته في العام الماضي اننا لا نحتاج الى الدراهم زمناً طويلاً لان الحكومة في ذلك الوقت كانت تطعمنا ولكن الحال قد تغيرت منذ

زمن فأصبحنا في غاية الاحتياج الى الدراهم وكنت اريد ان احول عليكم مبلغاً بواسطة احد التجار فلم ترخص لي الحكومة قائلة يجب الاستئذان من دار السعادة والظاهر انهم لا يجسرون على مخاطبة الاستانة

بين رفاقنا هنا جماعة برتبة البكاشى والملازم والميرالاي وقد أقرضناهم بعض دربهات فاشتروا قماشاً من السوق وهم يخيطونه انفسهم ومع هذا فهم محتاجون الى ما يشترون به غذاءهم وبعضهم يقضى ايامه بالصوم فيجب ان نشترى لهم مقدارا من الزيتون والزبيب ونعنيهم به على عبادتهم ففي كل البلاد يوجد اصحاب الخير على الفقراء ولكن هؤلاء البؤساء لا سبيل الى جمع اعانة من احد لهم فيجب علينا معاونتهم خدمة للانسانية فارسلوا لنا اربعين او خمسين جنيها بواسطة الحكومة واخبرونا ايضا عن حالتكم في ازمير وكنت قد ذكرت لكم ضرورة ارسال ما يدعى بالكاوتشو لانه لازم لاسناني الصناعية فارسلوه مع مقدار من التبغ والثمالي الاولاد من اعينهم وسلموا لي على الجميع

اذا سارت الامور على هذا النمط ولم ترد النقود اضطررنا الى بيع اناء الماء الفضي الذي ارسلتموه ويبيع الساعة وكلما مر هذا الفكر بخاطرنا علمنا ما سينتجه يبعهما من القال والقيل واضطرت افكارنا

سجن قلعة الطائف في ٢٥ اغسطس سنة ٩٨ مـدحت

صاحبة العفة زوجتي هانم افندى حضرتلى

..... قد حصلت هنا منذ ليلتين واقعة عجيبة وغريبة وهي ان امير مكة كان في الطائف كعادته في موسم الحج ففي ليلة الثلاثاء بينما هو نائم في بيته بين اولاده وافراد عائلته حاصره ثلاث طوابير في نصف الليل وكانت معهم اربعة مدافع وفي الصباح احضروه الى محل محبستنا بلباس النوم وجعلوه تحت حفظ العساكر ويقولون ان ذنبه هو مخابرة الانكليز وسيرسل الى استامبول او الى غيرها وعلى كل حال فقد آذانا هذا الشخص لارضاء استامبول وقد جازاه الله فاذاقه ما تقاسيه من العذاب وهي عبرة للمعتبر . وقد وصل الرجل الى المائة من

سنى حياته وهو عمر يحمل الانسان على الاشفاق عليه خصوصا اذا نظر الى اتصال
نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شابهت هذه الحادثة ما فعلوه بنا في ازмир
بيد ان المدافع كانت ثمة زائدة فسبحان الملك المتعال

سجن الطائف في ١ ايلول سنة ١٢٩٩ مدحت

صاحبة العفة نعيمه هانم افندى حضر تلى

لم يصلني من رمضان خبر عن صحتكم ولا عن صحة الاولاد ولم اكتب لكم
التفصيلات اللازمة عن احوالنا وسبب ذلك ما انا فيه من التضيق فقد وعدنا
السلطان بأخذ عائلتنا يوم نفيانا ولم ينفذ وعده وياليتي وقف عند هذا الحد فقد أمر
فأحرمونا من مخبرة اولادنا فهم يحرقون ما نكتبه من المكاتب وقد لجأنا الى
الشريف عبد المطلب والى بعض رجاله فكانوا يأخذون بعض مكاتبتنا لارسالهم
الى اصحابهم وقد سد هذا الطريق في الايام الاخيرة وقبل خمسة اشهر ابعدوا عنا
خدمنا وحضر رجل برتبة الميرالاي من دار السعادة اسمه عمر بك لا كمال ماتقص
من انواع التعذيب وضروب الاستبداد فلم يترك باب جور الاطرقه لازهاق ارواحنا
وهو رجل كبير السن ناقص العقل ولكن افعاله لاتوافق من عنده ذرة من الانصاف
وقد كافأوه في الايام الاخيرة برتبة الميرلواء وهو يحاول قتلنا في هذه الايام لأن
اوامر الاستانة تقتضيه اولئيل رتبة اكبر من الاولى وفي مذهبه ان عمرنا سيطول
اذا حاولوا قتلنا بالجوع فهو يسعى في ايجاد طريقة للاسراع بقتلى انا ومحمود باشا
وخير الله افندى ولا يريد اطالة مدة سجننا فيقول للخدم انكم تريدون ولا بد
الذهاب الى بلادكم وما دام البشوات في قيد الحياة فتقوا ان خلاصكم من المستحيلات
فاعينوني على قتلهم ليم لكم مبتغاكم وقد دعا اليه بكر أغا خادم نوري باشا وكان
البكباشى بكر افندى حاضرا واغلق باب الحجره وقال له : ثق ان الخدم لا يخلصون
من هذا السجن الا بموت ساداتهم : ثم اردف كلامه قائلا ان مولاك نوري باشا
مصاب بدخل في عقله وقد حاول القاء نفسه من النافذة مرارا فلم لاتساعده لتخلص
حياتك من هذا السجن واذا اردت معاونتى فسأرسل لك برادا لنزع حديد النافذة

والخلاصة فان الرجل قد اوصى الخادم بقتل سيده للخلاص من السجن وامره بتبليغ هذه النصائح الى بقية الخدم فحدث بنا اقواله الى التفكير والاهام وقد خالف الخدم وامره فمنعهم عن الخروج منعاً باتاً واذاقهم انواع التعذيب والارهاب فلم يوفق الى مطلوبه واخيراً ارسل صهره اليوزباشى المدعو مصطفى افندى لقيادة العساكر المنوط بها امر حراستنا فتدخل الاخير في امورنا كلنا ومشر بنا ولم يترك فرصة الاطرقها لتسميماً يفعل الباشا وصهره هذه الافعال لنيل المكافأة الدنيوية ولم يترك المكافأة الاخرى ايضا بل توجهنا الى مكة لاداء فريضة الحج فخلصنا من شر غائلتهما ولم تكن هذه الاعمال متوقفة على وجودهما لان التعذيب مستمر لليوم وقد مضت سنة ونصف سنة ولم ير احدنا الباب ولا رأى اجنبياً بل لم ير احد افراد عائلته ولم تبج له الحكومة مكاتبتهم وكان عندنا طباخ اجنبى فاشاروا عليه بتركنا وخوفوه وهذا مما يظهر اننا سنفارق الدنيا في القريب العاجل

اذا كان القصد من تعذيبنا وتشديد الحجر علينا كتم مقتربات المابين فقد ظهرت دخالة للصغير والكبير وعلمها الافرنج فكتبت عنها جرائد ثم الفصول واذا كان تعذيبنا يسر رجال السراي فكيف تسرهم حالتنا المحزنة نسأل الله تعالى وهو الحاكم العدل اجراء حكمه انه على كل شيء قدير سلامي على الجميع وعلى الاولاد واذا لقيتم احد اهل الانصاف فاخبروه عما تقاسيه من الاهوال

سجن الطائف في ٥ محرم سنة ١٣٠٠ مدحت

﴿ صورت المکتوب المرسل الى عثمان باتا الاعرج والى الولاية ﴾

رأيت بعض فقرات في مکتوبكم الذى ارسلتموه الى الميرالاي محمد بك وتلك الفقرات تشيرون بها الى انى قد اخبرت قنصل الانكليز عن اعمال عمر باشا وتوبخوننى مع انى لم احرر الى القنصل مکتوبا ولم ارسل اليه احداً بل لم أتصور شيئاً من هذا القبيل. اما تلقينات عمر باشا فقد عرفها الجمهور واذا وصلت الى قنصل الانكليز فقد اوصلها اليه التجار وغيرهم من آحاد الناس هنا وفى مكة واقوالى لا تحتاج الى برهان فالظروف تؤيدها ولكنكم قد كتبت مرة ثانية الى محمد بك تقولون مثل

قولكم الاول وتوبخوننى ظانين ان في المسألة شيئاً من الصحة ولذا فقد اضطررتي
الظروف الى اظهار الحقيقة

ان عمر باشا يتظاهر بان حضوره هو لتسميم السجناء وقد اثبت ذلك باعماله
وحر كاته واقواله وزاد الطين بلة باشارته الى الخدم بقتل ساداتهم نهراً جهاراً على
مسمع من افراد العساكر والضباط وقد فشت اقواله بين الناس وحملوا امره الخدم
بلزوم السجن على هذا السبب

أما وصول المسألة الى مسمع الاجانب فلا حاجة الى تأويلها لان قناصل
الانكليز يتنصرون الاخبار ويرسلونها الى حكوماتهم وهو امر تحتمة عليهم وظانفهم
فاذا كان هذا حالهم ولم يكن لنا احد في الخارج نعتد عليه في المهمات فكيف
تصدقون هذه المفتريات

ان خدمنا يخرجون مرة واحدة في الاسبوع مخفورين بعدد من الضباط
والجاويفية ولا يخاطون أحدا

فلا يتصور عاقل اننا نحارب فنصل الانكليز ولا ادري كيف ساعدكم قلبكم
على تويخنا

اذا حرم الانسان من حريته واولاده وامواله في حياته وسجن في مطمورة
كالتى نحن فيها ومنع عن مخابرة اولاده وعائلته الامر الذى لا يجيزه القوانين والشرائع
والعادات فكيف تكون حاله

اذا كان الغرض من افتراء هذه الفرية هو منعنا عن مخابرة ذوينا فقد حرموا
من كل لذة دنيوية بسبب سجننا المبني على امثال هذه المفتريات

تقولون في مكتوبكم انى قد لجأت الى قنصل فرنسا فى ازمير وهذا القول
يثبت جهلكم حقيقة المسألة لاني قد خدمت الدولة خمسين سنة بلا فاصلة ولا
قصور ووصلت الى الثانية والستين من سنى حياتى وارضيت السلطان باعمالى فكنت
لى برقيات اظهر بها سروره غير مرة وهذه البرقيات هي اليوم بين يدي وبينما
كنت اتولى امور ولاية كبيرة كازمير احاط بمنزلى ثلاثة طوابير من العساكر

واخذوني الى السجن غلسا فكنت اسمع بكاء نسائي واولادى واسمع اصوات
 البنادق ايضا فكيف تكون حالتى في ذلك الوقت انى اراجع انصافكم واذا قصدتم
 محاكمتى وادعاء الحكومة فقد سألوا واجبت ودعوا فليت ولم اشق عصا الطاعة
 في وجه الحكومة بل وجه الى مسند الصدارة مرتين ومكثت في منصب الوزارة
 زمنا وبعد كل ذلك احاطوا منزلى بعدد من العساكر وحاولوا زجى في غيابة
 السجن فهل الام اذا لجأت الى قنصل انكلترا او فرنسا او غيرهما . ان القلب
 لا يساعد الوطنى على الالتجاء الى مثل هؤلاء القناصل ولكن التبعة لاتقع الا على
 الذين يجبرون الانسان الى مثل هذه الافعال : تقولون في مكتوبكم انكم لا تتركون
 مجالاً لقاتل ونحن اليوم نذعن لاوامر الضباط والافراد فإمرنا النفر والضابط
 والجاويز والملازم وغيرهم فنحن مغلولى الايدى واتم قادرون على اجراء مايساعدكم
 عليه ضميركم وقد لقبتمونا بالجناة مراعاة للظروف ولا نرى لنا حق سؤالكم عن
 تسميتنا بهذا الاسم بيد اننا نسألکم عما قلموه حين قابلناكم في سراى الحكومة
 فقد ذكرتم الانسانية والمرؤة والنخوة فهل هذه التسمية توافق هذه الصفات

والخلاصة فان ما قاسيناه في سنتين من المصاعب والمتاعب لم يعامل به أحد
 ولم نسمع بمثله في أساطير الاولين وحامي القوانين ومنع العدل جلالة السلطان المعظم
 لا يرضى بهذه الامور بيد اننا لا نلجأ الى غير الصبر في الاحوال الحاضرة فنحن
 نوكل أمرنا الى خالق الخلق جل وعلا وقد وصل هذا العاجز الى سن الشيخوخة
 وطلق الحياة الدنيا وصار يطلب الموت صباح مساء فأمثالنا لا يعاملون بغير الانصاف
 ولا يأملون منكم غير ذلك ونحول هذا الامر الى صفة الحمية الممدوحة التي قد اتصفتم
 بها والامر لكم

سجن الطائف في ٧ صفر سنة ١٣٠٠ مدحت

صاحبة العفة زوجتي هانم أفندي حضر تلى

..... أشاعوا في هذه السنة انى فررت الى الهند أو الى أورپا واستكتبوا

الجرائد والغريب في هذه المسألة هو ان جريدة الطان الباريسية قد كتبت الى

الاستانة تلعرفاً تسأل به عن حقيقة الخبر ونصيبه من الصحة فرددت صدى تلعرفها
جرائد الاستانة وكذبتها بعدما نشرته بأيام جرائد مصر
ولما كنت في أزمير قالوا اني قد جنت وأذاعوا مثل هذه الاذاعة فسبحان
الله كيف يجراون على تزويق الزور اليوم ويكذبونه غداً وما هي فائدة هذه الارجيف
مدحت ٢٣ صفر سنة ١٣٠٠

(صورة المكتوب المرسل الى الشيخ سليمان افندي)

عالي الهمم شيخي العزيز أفندم حضر تلمرى
ان القدر قد حكم علينا بالابتعاد عن أموالنا وأهلينا السنين الطوال وحرماننا من
حريتنا الشخصية بلا سبب
وهذه الاحوال هي أقصى ما يتصوره الانسان من العذاب وخالق الخلق خالد
أما بقية المخلوقات فصيرها للزوال

لا يفرنَّ امرأً عيشه كل حي صائر للزوال

فالحياة المعدودة الايام كألعوبة بل هي كغاية مجتازها الانسان ومن العبث ان
يجهد النفس ويقاسي المصاعب وهذه الاحن يكافي الرب عليها عبده ونحن نعتبر
بما حصل للانبياء والاولياء من الاحن فقدمت أكثرهم في السجن ولنا اسوة حسنة
بالامام الاعظم والامام موسى الكاظم واذا سألم عن أحوال صديقهم الخصوصية
فاني أتمثل دائماً بقول القائل كن في الدنيا كأنك غريب وأضع هذا القول نصب
عيني وقد وصلت الى آخر مراحل الحياة فجاوزت حد الستين فيجب علي انتهاز
الفرصة للتقرب الى ربي وبين يدي اليوم بعض الكتب وفيها كتابكم مجموعة الرسائل
وهو يعينني على العبادة والانسان لا يقدر على القيام بأنواع العبادات منفرداً فأرجوكم
أيها الشيخ الجليل ارشادي الى ما يجب اتباعه للقيام بأعمال طريقتكم وأقوم بلم
يدكم عن بعد لان العلائق المعنوية لا تخالف الجسمانية فاكتبوا لي مكتوباً ارشدوني
به الى أقوم طريق اولاً فاحضروا لمشافهتي وعلى كل حال فقد توسلت اليكم بهذه

العريضة راجياً الاجابة الشفوية أو التحريرية والسلام

مدحت

سجن الطائف في ١٩ شوال سنة ١٣٠٠

لصاحبات العفة زوجاتي

كنت قد أرسلت لكما منذ شهر مكتوباً بامضاء سعيد بك المستعار وكان ذلك المكتوب آخر مكاتبي وقد بينت لكما فيه غرالمكاتب التي سبقته وفارسها وبعد تحريره بأسبوع مرضت بخراجين الزماني الفراش اذ ظهر احدهما في الظهر والثاني على الاضلاع اليمنى ولا يوجد هنا سوى شاب حديث عهد بالطبابة وقد دهش اصداؤنا وهالهم امر مرضى فكتبوا الى مكة وطلبوا من الوالي طيبيا ولم يطعموني على ما كتبوه فلم يجب الوالي بسطر وبيما كنت اقاسي الاهوال كان المابين يكتب الى الوالي الاوامر القاضية بقتلى وقتل اخواني السجناء فقد حضر احد الياوران حاملا فرمان الوزارة التي وجهت الى الوالي في هذه الايام ومعه هذه التعليمات فتمنعوا عنى الطعام وابعدوا خدمنا وحضر البكباشى وبلغنى الامر وانا على فراش الموت قائلا ان طعامكم سيكون مما يأكله بقية السجناء فلا تشتروا شيئاً من السوق واكتفوا بالاناء الذى سيقدمه لكم موظفو السجن وليغسل كل واحد منكم ملابسه في السجن ولا يرسلها الى الخارج ثم اخذ الاقلام والكاغد والنقس وانصرف وكنت قد احرقت مكاتبيكم والحمد لله وهي لا تحتوى على شىء ولكنهم كانوا يتذرعون بوجودها الى القيل وقال هكذا فعل البكباشى واخذ خادمى وولد خير الله افندى الذى لم يتجاوز الثانية من عمره وزوجته وكانت تقيم في منزل خارج القلعه وطهاته (طباخيه) وتوجه معهما في تلك الليلة الى مكة

وهذه الاعمال هي نوع من التسميم لان الواحد منا قد اعتاد اكل المطاعم الشهية واذا اكنفى بتناول طعام العساكر مات موتا ابديا ولا يتم لهم قصدهم باجبارنا على التغذى بهذا الغذاء ولكنهم سيعاملوننا بأنواع الظلم وضروب التعذيب ولا اقدر على وصف ما آلت اليه حالة اخواني بعد سماع هذا الحادث الجلال فقد لجأوا الى الله تعالى رافعين اصواتهم بانواع الابهال

أما أنا فقد كنت في حاجة شديدة الى خادمي بسبب مرضي فأخذوه عنوة وتركوني وحيدا ولم يكتفوا بفعلتهم بل لم يرسلوا طيبيا وزاد الطنبور نعمة حضور البكباشي وحملته علي بأقواله المؤلمة الامر الذي قد شدد مرضي وأوقعني في براثن الموت فكنت أجد في مفارقة الحياة لذة ولكن حيني لم يحن ولا سبيل الى اطالة العمر أو تقصيره واذا أراد الله نفاذ أمر سبب الاسباب وهياً العوامل ولذا فقد رتب رفاقي مرهما ووضعوه على الخراج فانفجر والتأم في نصف شهر وقلت آلامه في هذه الايام

أخذ البكباشي خادمي وحرم خير الله افندي وولده الصغير وارسلهم الى جده لايصلهم الى الاستانة ولكن الاستانة أرسلت اليه الامر باعادتهم فأعادهم الى السجن فأسفت لان خادمي البائس كان قد تخلص من هذا المأزق هذه حالنا فلا سبيل الى المغامرة ولا الى غسل الثياب فاذا ارسلتم تقودا او ما كولات أو مكاتيب فوصولها من المستحيلات اللهم الا اذا تغيرت الاحوال فاذا كانت اسناني الصناعية قد احضرت وارسلت فقد اتدارك واسطة لايصالها الى يوم وصولها فلا ترسلوا لا تقودا ولا ما كولات لان التقود لا تجدي في هذه الاحوال بعد ان حظروا علينا شراء ما يلزم من الغذاء

أثم عيني ممدوحة هانم وأعين الاولاد وأسلم على الجميع

٨ جماد الآخرة سنة ١٣٠١

مدحت

(حاشية) ان الطعام المقرر لنا اليوم انا واحد من الشوربال لكل ثمانية أشخاص في الصباح والشوربا مصنوعة من الماء وورق الفجل وهم يقدمون هذا الطعام في المساء أيضا وقد ارتفعت أصوات رفاقي بالضجيج وأنهم الجوع والذين عندهم تقود يشترون الصابون والفحم ويفسلون أثوابهم والفقراء يفسلون أثوابهم بالماء وحده ولما كانت اسناني الصناعية غير موجودة فأنا أصنع من الشوربة ثريداً وآكله وقد اقترب الجرح من البرء بيد ان ضعفي في ازدياد وقد رتبوا هذه الامور لاماتنا ولا ندري من الذي يزور القبر قبل رفقته

الى حليلاتي المحترمان نعيمة وشهربان وبناتي ممدوحة ووسيمة ومسرورة ونجلى
المكرم علي حيدر

سيكون هذا المكتوب آخر مكاتبي على ما أظن لانهم قد قطعوا عنا الطعام
واخذوا الاقلام والنفس والكاغد وضيقوا علينا الخناق كما اخبرتكم في مكتوبي
السابق وقصدهم من ذلك تسميننا واحدا بعد واحد وقد ظهرت نيتهم ظهور الصبح
لذي عينين فمذ عشرة ايام اشترى خادمي عارف لبنا بواسطة احد افراد الضابطة
فوضعوا في اللبن سما فوقف عارف على دسيستهم وارق اللبن وبعد اربعة ايام
اشترى عارف مقدارا من اللحم وطبخه ثم تركه في الحجرة فلأوا الاناء سما فأراق
عارف الاناء أيضا وبعد ايام وضعوا السم في جرة الماء التي نشرب منها كل هذه
الامور ظهرت بفراصة عارف وحسن عنايته ولكن بكر افندي الشركسي المرسل
من الاستانة لخراسنا والذي قد اعطوه رتبة البكباشي قد أقر هو وثلاثة من العساكر
بان رتبة المشيرية قد وجهت الى عثمان باشا ليعسمى في قتلنا وان الاوامر تصدر له
بذلك تلو الاوامر من الاستانة وقد حضر من مكة الميرالاي محمد بك الشركسي
من يومين لهذه الغاية ونحن لا نقدر على حفظ ارواحنا امام هذه القوة ولا بد ان
يصلوا الى ضالهم المنشودة وربما وصلكم خبر وفاتي قبل وصول هذا المكتوب
فلا تتكدرُوا ولا تأسفوا لاني اتعشم من المولى جل وعلا غفران ذنوبي فقد مت
فداء للوطن المقدس أما وصيتي اليكم فهي : انهم سيساعدونكم على دخول الاستانة
بعد وفاتي ويعطونكم مرتبا شهريا فارجوكم البقاء في بيتكم والاتحاد والوثام واخذ
شقيقتي صديقه هانم الى المنزل واعطائها شيئاً من التركة واترككم امانة للخلاق الباقي

١٠ رجب ١٣٠١ و ٢٤ نيسان ١٣٠٠ مدحت

(المترجم) كان هذا آخر مكتوب كتبه شهيد الوطن الى عائلته التي قد بقيت
في ازمير الى يوم اعلان الدستور وكان الجواسيس والولاء يقدمون ضد افرادها
التقارير (الجورنالات) الى يلدز للتقرب من عبد الحميد ولم يعطها الاخير مرتبا بعد
قتل زعيمها في سجن الطائف :

مكتوب طيقوز افندى

اصحابات العفة حضرات سيداتى

وصلنى مكتوب سيداتى رقيم ٢١ نيسان سنة ١٣٠٠ وفهمت مغزاه واذا سألتى عن احوال البشوات فارجوكن مراجعة المكتوب الذى كتبه محمود باشا الى بعض اصدقائه وخلصته هي ان حامل فرمان رتبة المشيرية قد حضر وهو من الشركسة اقران حسن الشركسى واسمه بكر افندى وتوجه الى البشوات واخذ خدمهم وطرد الطاهى (الطباخ) وكانت افعاله مصادفة لا يام مرض الباشا المعلومة وقد حاولوا أخذ طيب الباشا وارسال غيره فلم يقبل الباشا وتحمل المتاعب فى مرضه اما اعوان السلطان فاعادوا الخدم الى ساداتهم بعد ان قدم هؤلاء عرضالا الى الوالى طلبوا به ابقاءهم اعادهم على شرط الا يعادروا السجن وقد شفى سيدنا الباشا من مرضه بعناية الله لان محمود باشا قد أوجد مرهما شفى به الخراج فصحته اليوم على ما يرام ولكن شورة العساكر التى يأكلها قد اضعفته فقطع الامل من الحياة وقد قرأت هذه العبارات فى مكتوب الصهر محمود باشا فتلزمك اذا مراجعة من تلزم مراجعتهم لتخفيف ويلات الباشا وغيره وارجوكن تمزيق مكتوبى هذا بعد قراءته وحرقة لانهم قد وصلوا الى اقصى درجات الاستبداد فى هذه الايام والامر لكن :

٢٦ نيسان سنة ١٣٠٠ خادمكم طيقوز

مكتوب خير الله افندى شيخ الاسلام

صاحبات العصمة السيدات

اهدى عصمتكن سلاى وادعو لممدوحة ولعلى حيدر بك بطول البقاء واعزى الجميع بوفات زعيمهم عملا بما اوجبه الشريعة الغراء طالبا لهم الصبر الجميل ما دام شهيد الوطن فى قبره ولا بد ان تكونوا قد وقفت على ما جرى له رحمه الله لانه لم يميت من الخراج كما اعلنت الجرائد نعم انه كان يشكو من الخراج ولكن مرضه كان قد شفى منه تمام الشفاء وقد خنقوه فى ليلة واحدة هو والصهر محمود باشا رحمهما الله رحمة واسعة

اما امواله فقد باعوا ما بقي منها في السوق بعد ان نهب الموظفون منها ما نهبوه ورتبوا بها جدولاً وارسلوه الى الاسنانة ولم يصل عليه احد ولا وزعوا عنه صدقة والذي يكتب كثير ولكنى اخاف شر الظالمين واذا اخبرتموني عن وصول مكتوبى كنت لكن من الشاكرين ولا تكتبوا اسم مرسل المكتوب واذا سألتنى عن بعض المسائل اجبتكن

اطلب من الله ان يتركوا الاغوات بعد وفاة البشوات في السجن لان عارف خادمكم قد خدم سيده واستجلب جبه فاعطاه سدين مقابل ما تراكم من مرتباته احدهما بمائة ليرا والثانى بمخمسين وهو اليوم سجين وليس معه ما يسد به رمقه فاذا تفضلتن بارسال بعض درهيمات الى هذا البائس حرمة لفقيدكم كنت لكن من الشاكرين وعلى كل حال فاللطف والكرم لكن افندم

١٥ ذى القعدة سنة ١٣٠١ السيد حسن خير الله

﴿ المكتوب الذى ارسله المرحوم مدحت باشا ﴾

(قبل استشهاده بيوم الى على وصفى افندى)

المكتوب المرسل الى (العنوان) قد بعثنا به اليكم وقد اتمنا جزءاً من ترجمتنا وارسلناه اليكم فاقرأوه ثم ارسلوه (للعنوان) وابقوا عندكم الخمسة عشر واصرفوا ما في الصندوق عند وقوع الحال الذى لا بد منه لم يبق لنا امل في الحياة لانهم سيراجعون طريقة غير طريقة السم لقتلنا فنطلب من البارى جل وعلا الرحمة والرضوان فاذا مت قبل ان اكتبكم فتصدقوا بعشرة ليرات على الفقراء واذا صرفتم اكثر من هذا المبلغ وطلبتم تقودا من ازير فانهم لا يتأخرون عن ارسالها اثم يدي الشيخ سليمان واطلب دعاءه لا تأمنوا الدرويش صلاح الدين لان اخلاقه معلومة بل داهنوه واذا لم يحتم الاضطرار كتابة شيء فلا تكتبوا لي وانا لا اكتب لكم شيئاً لان الحالة حرجة

(نقل هذا المكتوب البلوك امين حافظ عبد القادر افندى من اهالي كوتاهيه)

(والاسماء التى فيه مستعارة لا يفهمها الا المتخابرون فعنى كلمة العنوان مدينة ازير)

(وكلمة قيطان كانوا يكونون بها عن الواسطة فيقولون ارسلت لكم او سأرسل لكم)
 (مكتوبا مع قيطان اى مع واسطة وكان الطيب صالح افندى يعاون السجناء على)
 (ارسال مكاتيبهم)

وقد اتعب هذا الشهم نفسه مرة فاحضر مكتوبين احدهما لمدحت باشا
 والثانى للصهر محمود باشا بنفسه الى الالستانة وازمير وسلمهما لاصحابهما وقد عرفت
 الحكومة ميله الى السجناء فابعدته عنهم وعينت غيره مكانه ولكنه لم يتأخر عن
 مساعدتهم في الخارج ويلي هذا الشهم عبد القادر افندى السالف الذكر
 الاسماء المستعارة

مدحت باشا .. الشيخ محمد : محمود باشا .. الشيخ محسن : خير الله افندى :
 سيد خالد .. فخرى بك : شيخ فاضل : عزت بك : عزيز : سيد بك سليمان :
 على بك نجبل نامق باشا : شيخ عبد الله : نجيب بك البكباشى : شيخ نجم الدين :
 الطيب صالح افندى : ميرزا : عبد القادر افندى امين البلوك : خطيب : السلطان
 عبد الحميد : شيخ كريم (بين الناس) و (عقرب) بين المحبوسين : عثمان باشا
 الاعرج : الشيخ قاسم : جميله سلطان : جعفر بك : المدينة المنورة : ماجد : مكة :
 مكلا : القلعة : زاويه : جده : جابر : الطائف : طاهره : ازمير : العنوان : استانبول :
 استغان : ابراهيم آغا : كندر
 ولم تقف في هذا الاثر على غير هذه الكنى وقد اغفلنا بعضها طلبا للايجاز
 ولانها غير مفيدة في هذا الصدد

﴿ الجناية الكبرى ﴾

(خنق مدحت باشا والصهر محمود باشا)

كتب شيخ الاسلام خير الله افندي الذي فارق الحياة في ٢٤ جماد الاخر
 سنة ٣١٦ في قلعة الطائف فصلا مطولا وصف به تلك الجناية وترك للناس عبرة
 تاريخية يتمثلون بها خلفاً عن سلف فاعتمدنا على روايته وأضفنا الى أقواله عبارات
 فخري بك الشفوية

يعلم القاضي والداني ان عبد الحميد لم يجسر على اعدام مدحت باشا بسبب
سورة الرأي العام في تركيا وفي أوروبا بل اكتفى بفيه الى الطائف ونوه على البسطاء
مدعيًا ان شفقتة وحنانه قد ألجآه الى العفو عنه وتبديل حكم الاعدام بالنفي ولم يستح
من هذه المفتريات

كان عبد الحميد يحاول الفتك بمدحت باشا رغما عن وعوده التي خدع بها أوربا
لانه لا يقدر على وضع الملة العثمانية تحت قدميه ما دام الاخير في قيد الحياة ولذا
فقد طرق أبواب الحيل الايقاع به واتخاذ أنفاسه فتوصل الى بغيته
دخل الباشا قلعة الطائف وأقام بها هو ورفاقه ثلاث سنين وفي آخر السنة الثالثة
أصيب بجراح فأشار عليه طبيب العسكرية باجراء عملية فأبى عالماً ان شيخوخته
وضعفه لا يساعدان على اجرائها فأشار الطبيب باجراء العملية بواسطة الجراح المدعو
محمد أفندي فأصر الباشا على ابائه لعدم اعتماده على حذق الطبيب والجراح وكتب
محمود باشا الى والي الحجاز مكتوباً طلب به منه ارسال طبيب حاذق على حسابه
واعداً بدفع مصاريف سفره وأجرته (ولم يخبر مدحت باشا بما كتبه) فلم يرسل
الوالي طبيباً بل لم يجب بكلمة

وكان الطبيب ناشد أفندي يزور المريض مع اليوز باشى ابراهيم أغا فلم يعتمد
الباشا على الطبيب وداوى الجراح بمهرم بسيط فكان الماينجي فخري بك يغسل
الجرح كل يوم ويربطه فالتأم الجرح وكان الجواسيس يرفعون كل يوم تقريراً
الى الوالي فيكتب تلغرافاً للسلطان يخبره به عن أحوال المريض

ودخل الطبيب ناشد أفندي يوماً على مدحت باشا ومعه اليوز باشى ابراهيم أغا
وكانوا قد أحضروا ما يلزم لتبديل أربطة الجراح فقال الطبيب بلا سبب : ان
الاعدام في أوروبا لا ينفذ علناً بعد اليوم بل يكتبني الاطباء بوضع جزء من الكلوروفورم
في أنوف الجناة فاذا ناموا خقوهم : فلم يفقه أحد سر هذا القول

وكان بكباشي الطابور الثالث من الآلاي العاشر المكلف بقيادة عساكر خفر
المسجونين والمدعو بكر أفندي الشركسي الاصل قد توجه مذ أشهر الى مكة ومنها

الى المدينة وعاد فجأة ثم توجه تَوَّأ الى حجرة مدحت باشا هو وناشد أفندي و ابراهيم
أغا لرؤية الخراج فسأله بعضهم عن سبب عودته الفجائية فقال : عدت لتنظيم أحوال
عساكر الطائف ولتحصيل الضرائب من أهالي قرية (طربه) ومجاوراتها لانهم لم
يؤدوها مذ سنين وقد أخذت أمراً من المشير لاحضار لوازم السفر :

عاد البكباشي بكر أفندي الى الطائف وفي اليوم السادس توجه خدم الباشوات
الى جامع عبد الله بن عباس لأداء صلاة الجمعة برفقة أحد الموظفين كما هي عادتهم
وتأخر عن الصلاة عارف أغا خادماً مدحت باشا بسبب مرض سيده فلما خرج
الجماعة من الجامع حجز البكباشي الخدم والطهارة وأرسل الى القلعة رسولا لاحضار
عارف أغا فلم يلب الخادم طلب الرسول قائلاً ان الباشا مريض في فراشه فبلغوني
ما عندكم من الاوامر فذهب الرسول وعاد قائلاً ان الاوامر توجب ذهاب عارف
الى البكباشي فقال الباشا للرسول قل للبكباشي احضر أنت الى القلعة وبلغ أوامرك
الى الخادم فحضر البكباشي بعد نصف ساعة وتوجه تَوَّأ الى حجرة خير الله أفندي
وقال « ان أوامر الاستانة تقضي بابعاد الخدم والطهارة وقطع مرتبات الحكومة
عن السجناء وتعذيتهم بما تعطيه الحكومة لافراد عساكرها ومنعهم عن شراء ما يلزمهم
من الاطعمة سوى التبغ والفاكهة وأخذ الاقلام والنقس والمداد وابعاد زوجة خير
الله المقيمة في خارج السجن الى الاستانة . فوقع الناس في حيرة وعرفوا سوء النتيجة
ولكن ما الحيلة . وكان محمود باشا حديد المزاج فقال للبكباشي بكر كلاماً مؤلماً
فلم يفد كلامه فائدة تذكر ولكنهم أباحوا للخدم الحضور الى القلعة لرؤية حسابهم
فحضروا برفقة احد الضباط وحاسبوا ساداتهم وأخذوا الاقلام والنقس والكاغذ
عملاً بهذا الامر وسجنوا الخدم في حجرة خارج القلعة وادعى البكباشي انه يحضر
لوازم السفر ثم عاد في تلك الليلة الى القلعة وأقام بها الى الصباح

تولى مدحت باشا أمور الصدارة مرتين وخدم الامة خدمات لا ينكرها أحد
فلم ينظر الظالمون الى خدماته ولا الى شيخوخته وتركوه على فراشه مريضاً بعيداً
عن الاهل والاولاد والاقارب وأخذوا خادمه بلا سبب وأناطوا بخدمته أحد

العساكر فزادوه الآمال على الآمال لأن الجندي محتاج إلى الوقت الطويل لتعلم القيام
بخدمة الرجل وقد قام رفاق مدحت باشا بما يجب له من الخدم فكانوا يجضرون له
الطعام ويضمدون جرحه ولم يتركوه وحده بل كان علي بك ينام معه
اشتهر مدحت باشا بالثبات فلم تؤثر في همته هذه الظروف فكان يحافظ على
الصلاة ويقرأ الأوراد ويقرأ سور القرآن مرة في الأسبوع وكان يقرأ تفسير البيضاوي
وكتاب الشفاء وكان يقول في نفسه ليفعلوا ما شاءوا فنحن والحمد لله في الأراضي
المقدسة وقد خلصنا من الأدران فلا يمكنهم سوى قتلنا وهو يعد نعمة لنا في الدنيا
والآخرة ويتوكل على الباري تعالى في كل أعماله

عزم البكباشي بكر على التوجه إلى مكة في يوم السبت الثامن من شهر مارس
لنقل حرم خير الله أفندي وخدم السجناء وقابل مدحت باشا لاخذ بعض أقواله
وقلبها إلى الظالمين لارضائهم مدعياً أنه قد حضر لوداعه فقال له الباشا ألا تسافر اليوم
فأجاب البكباشي قائلاً نعم يا مولاي أسافر اليوم فإذا كان عندكم أمر فأنا مستعد
لانفاذه فقال له الباشا نعم سأكلفكم بتبليغ رسالة إلى الوالي فاصفوا لأقوالي واتقوها
له بالحرف الواحد قولوا له إن عبد الحميد قد وجه إليك رتبة المشيرية وإن خدمات
مدحت باشا وأعماله ظاهرة كالشمس وأنت ترى حاله اليوم والأحوال تثبت أنهم
يضمرون له الشر وقد جعلوك واسطة للحصول على مآربهم وقد وصل الوالي إلى
رتبته وغدا تصل أنت أيضاً إلى أعلى الرتب ويصل رفاقك إلى مآربهم فإذا تم
قبل عبد الحميد كتبوا رتبكم وألقابكم على أحجار قبوركم وإذا تم بعده فأنا لا اعزف
ما سيكون من أمركم ففكروا أنهم في هذه النقطة لأن عبد الحميد قد أنعم على سروري
أفندي رئيس المحكمة التي حكمت علينا برتبة القاضي عسكري ولكنه قد أبعده إلى
ماغنيسا بعد فترة من الزمن وعزل جودت باشا ساعده الأيمن في الحكم علينا وأمره
فأقام في بيته محتقراً مهاناً فانظروا في هذه الأمور بعين الأيمان لأنني أرى في الأمر
رية والآية الكريمة تكفيكم مؤونة البحث . . ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه
جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً :

ثم استطرد الباشا بعد قراءة هذه الآية فقال ولا يفوتكم ان الحسن بن علي رضي الله عنهما قد قتل بأمر بعض الملوك وهو نور عين المسلمين وقاتلوه يذكرون باللعنة الى يوم القيامة وسيعذبهم الله بنار جهنم فاقبلوا للوالي عباراتي بنصها وفصها فأجاب بكر أفندي قائلا سيدي اني قد شهدت الحروب ولم أقتل دجاجة خارجها ولا أريد ان أرتكب جريمة ثم ودع ومضى وتوجه الى (جبل كرا) للذهاب الي مكة مستصحباً حرم خير الله أفندي وخدم السجناء

وبعد سبعة أيام عاد الرجل في يوم سبت ومعه الخدم بين المغرب والعشاء قائلا قد أعدناهم الى ساداتهم وترك خادم خير الله أفندي المتزوج خارج السجن وكانت زوجة خير الله أفندي قد توجهت الى جدة مع خادمتها فعادت بعد عودة الخدم بأيام ووصلت الى الطائف واستأجرت منزلا واقامت به هي وخادمتها وكان خادم زوجها ابراهيم أفندي يقوم بخدمتهما بناء على أمر سيده

أما البكباشي بكر أفندي فقد حضر الى السجن بعد يوم وقال ان التفرفر الوارد من المابين يقضى باعادة الخدم والطهارة والمأكولات وبلغ الى مدحت باشا سلام الوالي قائلا انه يصرح لكم بشراء ما يلزمكم من الطعام وانه لا يريد اجراء مثل هذه الاشياء ولكن ما الحيلة لانه ضابط وتجب عليه اطاعة الاوامر قال هذا وذهب الى الحجرة المحاذية لباب القلعة

وكانت صحة مدحت باشا تحسنت وجرحه قد قارب الشفاء

اشتهت نفس مدحت باشا اللبن فارسل الى اللبان المدعو اشرف جنديا فتقلد الملازم نوري سيفه والتحق بالجندى وتوجه معه الى بيت اللبان وقال له اعندك لبن فقال ان بكر أفندي طلب مني مقدارا من اللبن ولذا فقد ابقيت ثلاث اقات وليس عندي غيرها فاذا وافقكم أعطيت احداها لمدحت باشا فوافقه نوري على هذا الرأي واخذ اللبن وارسله مع الجندى الى الباشا فاشتبته الناس من نشاطه الذي لم ير في غير هذا اليوم وكان سيد بك يراقب ما يطبخه خادم الباشا من المطاعم في ايام مرضه فكشف الاناء ونظر الى اللبن فلم يعجبه لونه فاخذ منه معلقة ووضعها في فمه

فاحترق حلقومه من مرارته فعرضه على السجناء وعلى الملازم محمد اغا فشرّب منه بعضهم مقدارا واعمى عليهم وزم آخرون الفراش اسابيع اذ شربوا منه جرعة ولما نقلوا هذا الحادث الى مدحت باشا دعا اليه الملازم محمد اغا وقال له متجاهلا : ان اللبان ارسل لنا لبنا من الذى يشربه البكباشى فاصيب شاربوه باصابات مختلفة فمنهم من لزم الفراش ومنهم من احترق فمه وحلقومه واظن ان السم سرى اليه من النحاس فهل شربت منه انت ايضا فقال محمد اغا نعم شربت من هذا اللبن وكان فيه سم فقال الباشا اذا فاذهب الى البكباشى وحذره منه لكيلا يشربه فتوجه الملازم الى البكباشى وعاد قائلا ان البكباشى سيحضر اللبان ويعاين اوانيه ويضربه ويسجنه ويبحث عن المسألة بحثا دقيقا على ان الناس كانوا يقولون ان البكباشى كان يقول لرفاقه قد شربوا اللبن فهل ماتوا وهل يؤثر السم بسرعة وغير ذلك وغير ذلك

وارسل بعضهم الى البكباشى مقدارا من اللبن بقصد تحليله فردهم باستهزاء قائلا ان آلات التحليل غير موجودة

واحضر البكباشى اللبان ونظر في اوانيه النحاسية فوجدها مدهونة بالقصدير ولم يقابل مدحت باشا ويحادثه عن مسألة اللبن فزادت شبهة الناس وكان خادم الباشا عارف ينام مع سيده لسبب اعتلال صحته وكانوا يفلتون الحجرة المحتوية على اوانى الطعام ويضعون على الاوانى علامات وبعد واقعة اللبن باسبوعين فتح عارف اغا حجرة الطعام فوجد علامات الاوانى مفضوضة فنظر الى الاطعمة ووجد فيها اجزاء غريبة فأخبر سيده فدعا الاخير الصهر محمود باشا ورفاقه واراهم الاوانى فعرفوا ما احتوت عليه من المواد الغريبة ولم يعرفوا واضع هذه المواد وقد رموا ما احتوت عليه من الطعام للسانير فلم تمت فظنوا انها محتوية على شيء غير السم ولكن الملازم مش اغا ورفيقه الملازم نورى قد اقرا بوضع السم في الطعام بعد الجناية الكبرى وكان محمود باشا قد اصيب بقيء واسهال فظن ذلك من تأثير القهوة فتركها واتقطع اذ ذاك الاسهال والقيء وقد اشتبهوا مرة في طعم الماء ولونه فكسروا جرة

الماء ولم يقفوا على الفاعل فعم الخوف وكثر القيل والقال
وقد اشاعوا بان السم كان يجلب من مصر بواسطة الطابور اغاسى المدعو
اسماعيل اغا فقد حضر هذا الرجل مع عساكر (عونيه) الى مكة واندمج في سلك
افراد الضابطة وتزلف الى والي الامراء بانواع الخيل والدهاء فترقى وحاز النفوذ
وكان صندوق اسرار عثمان باشا فكان يقتل بامرہ بيد انه لم يتجاسر على القيام
بهذه المهمة منفرداً وكانوا يريدون الاسراع لاتمام هذا الامر فحضر في التاسع من
رجب والثالث والعشرين من نيسان سنة ١٣٠١ بلوكان من عساكر مكة وصحبهم
مدفعان وبعض افراد المدفعية والمير الای محمد لطفي الى الطائف واحضر اربعين
من العساكر واعطاهم الدرس اللازم والحقهم بالعساكر المقيمة في القلعة لحراسة السجناء
وقبل حضور المير الای لطفي الى الطائف دعا البكباشي بكر افندي الحاج
شكري اغا غلسا وتحدث معه مرتين عن أمور عادية ثم اعاده الى القلعة لانه لم ير
فيه ما يطابق مطلوبه

ولما حضر المير الای رتب العساكر كما اسلفنا واتخذ مسألة اللبن وسيلة ودعا
اليه عارف اغا وقال له اني احضرت السم لمدحت باشا فاذا سمته اعطيناك مكافأة
قدرها الف ليرا وقد اوجدنا شخصاً غيرك لسم محمود باشا وسنعطيه ٦٠٠ ليرا ثم نبه
عليه بكتم الامر عنهما وكان عارف اغا صادقاً فلم يابه لليرات ولا للتهديد وقال
له يجب ان تحول هذه المسألة الى اربابها ثم تظاهر بالقبول وعاد الى القلعة ونقل
ما سمعه الى مدحت باشا ورفيقه محمود باشا فقلاه الى رفاقها فتقول الناس اقوالاً
مختلفة وعرفوا ما سيكون من حركات الضباط واعمالهم اليومية

كان السجناء في بحر هائج من الافكار ولم يحضر المير الای مرة واحدة الى
القلعة فزادوا ارتياباً وكان المير الای يحاول الاسراع في ايفاء وظيفته فبعد حضوره
باسبوع حاصر السجن بعدد من الجنود واعطى للعساكر الموجودة في الداخل
التعليقات اللازمة فلم يوقفه القدر الى اخراج نيته الى حيز الفعل للاسباب الآتية
دعا اليوزباشي ابراهيم اغا الى حجرته عارف اغا بحضور ثلاثة من الملازمين

وقالوا له سنفضي على مدحت باشا في هذه الليلة فقد أعطيناك سماً ووعدت ولم تقم
 بإيفاء وعدك وانت تمام مع الباشا فاترك الباب مفتوحاً في هذه الليلة وإذا أغلقته
 جازيناك فقال لهم عارف أغا: أنا لا أفتح الباب: واتم السجناء صلاة العشاء واجتمعوا
 في حجره واراد كل واحد الذهاب الى مستقره فقال لهم عارف لا تفرقوا في هذه
 الليلة فقد عزموا على قتل سيدي فاجتمع الباشا برفاقه واخبرهم عن سر المسألة وسمع
 احد الملازمين صوت عارف أغا فاخبر المير ألاي فأمر الاخير بنقل عارف من القلعة
 الى القشلة وحبس السجناء كل واحد على حدة فنقل عارف الى القشلة وحضر
 الملازم ممش الى الجماعة وقال لهم ان المير ألاي يسلم عليكم ويقول انكم ممنوعين
 عن مخالطة بعضكم فليذهب كل الى حجرته فقال له مدحت باشا ومحمود باشا نحن
 لا نفارق هذا المكان وإذا أخرجتنا بقوة الرمح فانت أدري فقال الملازم أوجب
 المير ألاي بهذا الجواب فقالا له نعم به تجيب وسمعوا صوت الملازم ابراهيم فنادوه
 فدخل حجره الباشاوين هو وممش فسألاهما عن بعض الامور فحجزا عن الجواب
 فطلبا منهما احضار البكاشي بكر افندي فحضر وقال لهما ان عارف هذا الغر لا يجب
 بقاوه هنا وقد أبقيناه فكذب كذبة لا يغسلها ماء البحر المحيط فسألاه عما يدور
 حولها من الحركات الدالة على سوء النتيجة فقال لهما لم ترد لليوم أوامر بهذا الصدد
 ولكن العساكر والضباط لا يتأخرون عن اجراء ما يؤمرون به ويكونون معذورين
 اذا نفذوا مثل تلك الاوامر واقسم بالمحرجات ان ما اذيع كذب ثم فارق القلعة
 وتوجه الى القشلة

وقد عذب الضباط عارف أغا ووقف الكل على ما اجتهت لهم يد القدر فكتبوا
 الى أقاربهم وقد نقلنا صورة المکتوب الذي كتبه مدحت باشا الى عائلته اذ ودعهم
 فيه وأوصاهم وصيته الاخيرة وكتب محمود باشا الى زوجته السلطانة مکتوباً ودعها
 به وودع أولاده وشرح ما يحاوله اعوان الاستبداد وذکر أسماءهم طالبا الانتقام
 وختم المکتوب بخطمه ثم كسر الخاتم ورماه خوفاً على زوجته وأولاده لان عبد الحميد
 لا يمتنع عن ايذائهم اذا وصلت يده الى الخاتم والى بعض المكاتيب المختومة به

﴿ ليلة الجناية ﴾

أظهرت الوقائع السابقة اقتراب النتيجة والحقيقة ان مدحت باشا ومحمود باشا قد خفقا بعيد وصول المير الألي محمد لطفي الى الطائف بثلاثة أيام أي في ليلة الخميس ١٢ رجب ٢٠ نيسان في الساعة السادسة ليلاً سنة ١٣٠١ هجرية

بقي تلك الليلة المير الألي محمد لطفي والبكباشي بكر في الحجرة الكائنة على باب القشلة وحاصروا السجناء بعدد من العساكر واعطوا المقيمين داخل القشلة مقداراً من الخراطوش وتركوا البيوز باشي وثلاثة من الملازمين في داخل الدائرة وفي الساعة الخامسة ايقظوا الحاج شكري أغا خادم محمود باشا وذهبوا به الى البكباشي بكر فسجنه الاخير في حجره هناك ثم فارق القشلة في الساعة السادسة وتوجه الى دائرة السجناء ووضع جنديين على باب كل مسجون وأوجد في عقوة السجن عدداً غير قليل من العساكر شاكي السلاح وفي يدهم الحراب والبنادق والخراطوش

وهذه هي اسماء العساكر والضباط الذين قاموا بهذه الجناية

(١) المير الألي محمد لطفي وقد وصل الى رتبة الفريق ثم قبر

(٢) البكباشي بكر وقد بقي في حجره الضباط ليلة الجناية وكان رفيقه المير الألي في القشلة وفعل العساكر فعلتهم بأمر الاثنين ومات هذا البكباشي في بيروت بعد ان عمي وكانت الحكومة العثمانية قد كافأته برتبة الفريق

اسماء قاتلي مدحت باشا

ابراهيم أغا الشركسي البيوز باشي الاول في الفيلق الثاني والألي العاشر والطابور الثالث وقد نال رتبة القامقام ومزقه العربان في اليمن

نوري أغا ملازم البلوك الثاني

أحمد شاويش من البلوك الثاني ومن أهالي سناق قلعه

الكوندره جي اسماعيل من البلوك الاول ومن اهالي يوزغات

احمد من البلوك الثاني ومن اهالي كوتاهيه

محمد من البلوك الثاني ومن اهالي كوتاهيه

رجب من البلوك الثاني ومن اهالي كوملجنه
 عثمان من البلوك الرابع ومن اهالي قره حصار
 اسماعيل الحلاق من البلوك الثاني ومن اهالي ادرنه ومحلة بايزيد وهذا
 الخيث هو الذي خنق المرحوم مدحت باشا وقضى عليه
 اسماء قاتلي الصهر محمود باشا
 ممش اغا الملازم الثاني ومن اهالي اسبارطه وقد جن ومات في اليمن بعد
 وصوله الى رتبة البكاشى
 محمد اغا الملازم الاول في البلوك الثاني ومن اهالي اوده مش وهو لليوم في
 اليمن برتبة البكاشى
 حسن شاويش من البلوك الثاني ومن اهالي كوتاهيه
 سليمان شاويش من اهالي قره حصار
 وهذا ورفيقه هما اللذان قد وضعا الحبل في عنق محمود باشا وخنقاه وقد أقر
 بجنايتهما

محمد الاونباشى الاول في البلوك الرابع
 عثمان من البلوك الاول ومن اهالي قره حصار
 احمد من اهالي شوروم ومن البلوك الاول
 علي من البلوك الاول ومن اهالي حمان
 مصطفى الحلاق من البلوك الرابع ومن اهالي كوملجنه
 علي من البلوك الرابع ومن اهالي زيله
 وهذا هو احد واضعى الحبل في عنق محمود باشا
 اسماعيل من اهالي ادرنه والاونباشى في البلوك الثاني
 (وقد كان بين العساكر رجل عالي الهمة اسمه عثمان شاويش من اهالي كنفري
 فلما طلب منه اخوانه مشاركتهم في الجناية قال ان حميتي الاسلامية تأبى قتل الابرياء
 وفر الى بيت الخلاء فكدره الضباط وآذوه بعد الجناية)

(المترجم) عثمان شاوليش البطل العثماني حي لليوم وهو يقسم ببلدته بعد ان ادى مدة خدمته في الجيش والبلدة تابعة لولاية قسطنطيني وقد كنت هناك في العام الماضي فرأيت والي قسطنطيني سليمان نظيف بك يسأل عن الرجل ويذكر محاسنه ولم يكتف بالسؤال عنه بل ارسل الى متصرف كنفري فأحضره وارسله الى الاستانة معزراً فأجرت له الحكومة العثمانية مرتباً كافياً وكافأته على صداقته وحميته الوطنية وقد ذكرت الحادثة جرائد الولاية ورأى هذا العاجز ذاك الشهم الغيور:

جمعت الحكومة هذا العدد من جنودها وسجن اعوانها عارف اغا خادم مدحت باشا في حجرة منفردة وكان علي بك نجل نامق باشا نائماً مع الفقيدي في حجرة واحدة فكسروا باب الحجرة نصف الليل واخرجوا منها علي بك ودخل الجناة على مدحت باشا فحقوقه ولم يقل لهم رحمه الله كلمة واحدة بل ذكر لهم الرب وحذرهم ونصح لهم قائلاً ان الجندي يحافظ على بيضة الوطن ولا يرتكب الجنائيات وكسروا باب حجرة الصهر محمود باشا ودخلوا عليه وكان الملازم محمد اغا قد أحضر حبلاً فوضعه في عنقه وعذبه عذاباً اليأفأت بعد ان كسر ممش اغا ذراعه بعصاه وكان بينهم رجل اسمه علي بابا فتعلق بخصيقي الصهر قائلاً ليمت ليمت بسرعة ولما كسر الجناة باب الحجرة افاق المرحوم من نومه واخذ الوسادة وقابلهم بها مدة ثم كلت قواه فعرف ان المقاومة لا تجدى وصاح بأعلى صوته قائلاً (امان الله) فصم صراخه الاذان ونادى الناس بعضهم قاتلين أيها المسلمون ان الجناة يقتلون البشوات فلعن الله الظالمين ورفع الناس أصواتهم

ولما استشهد الرجلان وضعوهما في فراشهما ونقلوهما الى محل الغسل الموجود في القشلة (ولما نقلوا محمود باشا ظن احد الجناة انه تحرك وان فيه رمقاً من الحياة فاجهز عليه وخنقه)

ابقوهما في المغسل الى الصباح وكانوا قد أمروا بعض اعوانهم فحفروا قبريهما ليلاً ثم دفنوهما قبل صلاة الفجر بواسطة الجنود رحمة الله عليهما وقد فتحوا دكان علي بك البروسه لي ليلاً واخذوا منه الاكفان وانا طوا أمر

غسلهما بامام الطابور المدعو يونس افندي فأبى قائلاً قد خنقا ورب الكعبة فدفنوهما
بلا غسل ولا كفن

وكان خير الله افندي يقيم في الحجرة الكائنة حذاء حجرة محمود باشا فكان
الحراس يقولون له لا تخف يا مولاي . ليس عليك بأس وستذهب غدا الى بيتك
على ان خير الله افندي قد استيقظ من نومه مرعوباً وسمع استغاثته الصهر محمود
باشا فرمى ما في حجرته وراء الباب خوفاً من الجناة وبقي في الحجرة كالليت وقام
الماليني فخري بك من نومه مرعوباً اذ سمع صوت محمود باشا الجمهوري واراد
الخروج من الحجرة فقال له النوبتجي : الخروج ممنوع : وصوب رمحه الى صدره
فبقي في حجرته الى الصباح وهو يشكو الى اليوم خفقان القلب الذي اعتراه من
الخوف في تلك الليلة المشأومة

ولما استيقظ السجناء في الصباح عانق بعضهم بعضاً وودع الصديق صديقه
متأهباً للموت العاجل ورأى الناس جنازتي الفقيد فعملوا سر استغاثته الليل وانتشر
خبر الجناية بين الافراد

كتب المير ألامى محمد لطفي ورفيقه البكباشى بكر تقريراً (جورنالا) وصفوا به
جنايتهم واخذوا من الطيب ناشد افندي شهادة قال فيها ان مدحت باشا قد مات
من الخراج وبعد اسبوع كتب الطيب أيضاً تقريراً قال فيه ان محمود باشا قد توفى
بالحمى التيفوسية وذكرت هذه التقارير جرائد الاستانة

ومن الصدف الغريبة ان الوالي قد أصيب بداء الفالج بعد ان وصل اليه خبر
قتل الرجلين بأسبوع

وقد وضعوا على قبريهما حجرتين كتبوا على الاولى مدحت باشا توفى في ٢٦
نيسان) و (محمود باشا توفى في ٢ مايس) وهذا هو الكذب بعينه
وبقي الحجران زمناً الى ان هدمها احمد راتب باشا في الايام الاخيرة ومحا
اثر القبرين

اشاعوا ان مدحت باشا قد مات بسبب الخراج فلم ينخدع احد لاشاعتهم

لان صوت محمود باشا ليلة الجناية قد صمّ الاذان ودفن الاثنين في الصباح وقرار
العساكر قد أوقف العالم على سر الجناية فلم يأبه احد لاقوال الجواسيس
وكان مدحت باشا ينتظر الموت ويشعر بقرب الاجل وقد قال قبل موته بايام
أقوالاً نقلها للقارى

فكر مدحت باشا بعد الصلاة برهة فسأله رفاقه عن سبب تفكره فقال (افكر
في الموت الذى لا يستمر ألمه اكثر من خمس دقائق ولكن اى موت اخف على
الانسان أموته مخنوقا ام بالرصاص ام بالمرض هذا الذى افكر فيه لاني قد وصلت
الى سن الشيخوخة وقد شفيت من المرض ولو قضى علي لرجحت الموت على الحياة
ولكن ما الحيلة وقد طال العمر وقد حبسوا لأجلنا هنا بعض الابرياء وربما خلصوا
بسبب موتنا) قال ذلك فتأسف الحاضرون

كسر الجناة الأبواب والمفاتيح ليلة الجناية وحضر ممشاغا ومحمد اغا في الصباح
فاصلحوا ما تكسر ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم من امتعة الشهيدين وحضروا بعد
يومين فنقلوا ما بقى الى الحجرة الكائنة على باب القشله ووضعوا على بابها بعض
الحرس وبعده عشرين يوما باعوا الامتعة في السوق علنا وارسلوا بها كشفا الى المايين
يقول البيوزباشى ابراهيم والملازمان ممش ونورى ان احد الكشفيين قد
احتوى على ستة آلاف من القروش والكشف الثاني قد احتوى على ثمانية آلاف
من القروش وكان مدحت باشا يملك من النقود اكثر من ٢٠٠ ليرا و٢٠٠ من
الريالات غير امتعته وكان عند محمود باشا اكثر من ٢٠٠ ليرا غير امتعته وهذه
النقود يعرف مقدارها رفاقهم فكيف تصل الى هذا القدر في كشف البيع الا بالسرقه
ان مدحت باشا قد اعطى لخير الله افندى ٤٠ ليرا وقال له (اذا مت فاصرف
هذا المبلغ لتكفينى ودفنى) وكان خير الله افندى ورفاقه يجهلون مغبة حالهم فدعا
البكباشى بكر وقال له ان عندي كذا وكذا نقودا فخذها لان حالتى لا تساعد على
حفظها فخذها واصنع ما يلزم بواسطة القاضي والحكومة وكان هذا المبلغ يساوى
وحده ستة آلاف من القروش بعملة البلدة وهو ما كتب في الكشف

كتبوا الى المايين تلغرافا اخبروه فيه عن قتل الرجلين فلم يصدق عبد الحميد بل قال انهما قد فرا واذا كانا قد ماتا فاي مرض اصابهما فنظم الاغوات والبشوات والاطباء مضبطة وبعثوا بها الى المايين وكلفوا بعض الاهالي المقيمين بالقرب من القلعة التصديق على المضبطة فلم يوافقوهم قائلين نحن لم نر شيئا فلا نصدق على مضببتكم وحضر الميرالاي محمد لطفى الى السجن بعد الجناية بايام لتخفيف حزن السجناء وقال لهم ان امر القتل قد بلغ الينا بواسطة بحرى بك بن بدرخان باشا وارسل المايين برقيات متعددة الى الوالي قائلا لو انطت هذا الامر بأحد افراد الجاندرمة لاتممه لليوم

وهنا شيء يستجلب النظر وهو انهم قد حاولوا كتم الجناية ولكن اخبارها قد انتشرت بين اهل الطائف ووصل صدى شاعتها الى اهل المدينة المنورة واهل مكة بسرعة عجيبة

وحضر بعض الهنود والمسلمين التابعين لحكومة فرنسا بقصد الحج فبلغهم هذا الحادث الجلل فاخبروا قناصلهم وكتب الاخيريون الى بلادهم عن اسرار الجناية فنشرتها جرائد اوربا مفصلة

لم يصدق عبد الحميد خبر وفاة مدحت باشا بل ظن انه فرّ واذاع بعضهم ان الشريف عون الرفيق باشا قد ساعده على الفرار فصدق عبد الحميد وارسل رجاله مرتين لاثهار الحقيقة فبعث بحسين بك في المرة الاولى (هو الفريق حسين باشا اليوم) وفي المرة الثانية بعث الياورشاكر بك (وهو اليوم الفريق شاكر باشا التترى فرأيا السجناء وعائنا حجرتى مدحت باشا ومحمود باشا واجريا تحقيقات عميقة في الطائف وفي سنة ١٣٢٢ صدر في اوربا كتاب قال فيه مؤلفه ان اوهام عبد الحميد قد تغلبت عليه فأرسل الى الطائف أمرا قاضيا بحفر قبر مدحت باشا ونزع رأسه من جسده ووضعه في صندوق وارسله الى الاستانة وقد كتبوا على الصندوق (مصنوعات من العاج لجلالة السلطان) تهريه من الجمر ك اثناء مروره من قتال السويس ويقول بعضهم ان على وصفي افندى قد توجه الى القبر الذى يظن انه

قبر مدحت باشا بعد اعلان القانون الاساسى ونبشه فوجد الرأس ووجد بعض الاسنان باقية وبعضها منزوعة وهي تشابه اسنان مدحت باشا تمام المشابهة ونحن لم نقف لليوم على نصيب هذه المسألة من الصحة فيجب علينا السكوت الى ان تنجلي الحقيقة التي لاريب فيها

﴿ اللاتحة التي عزم الوكلاء على تقديمها للسلطان عبد العزيز ﴾

ان جلالة مولانا السلطان الذي اشتهر بكلماته العلمية والعملية وزين الاريكة بمجلوسه وشهد له العدو والصدىق ببعده النظر وعلو المكانة وصدق الفراسة فجعل نصب عينيه رفع شأن حكومته المحروسة بعناية الله وسلم اليه الجمهور أمورهم متقادين مطمئنين يد ان الطوارئ الداخلية والخارجية تؤثر في احوال الدولة الاقتصادية والسياسية خصوصاً في هذا العصر عصر الدسائس والمكائد التي لا نأمن مغبتها بسبب موقع بلادنا فيجب علينا تغيير اعمالنا الحالية

وقد صدرت ارادات جلاتكم وخطوطكم الهامونية وصرحتم في خطاب العرش بلزوم اتباع الاصلاح المطلوب ومع هذا فقد انتجت كثرة تبديل موظفي الدولة تغيير الاحوال وضل اكثرهم الطريق ولم يسيروا وفق مطلوب جلاتكم بل خرجوا عن جادة الاستقامة وأفسدوا ما أحدثته يد الاصلاح وقد اوقع الناس في حيرة اختلال المالية وحدا بهم الى نشر الارجيف في داخل البلاد وفي الخارج وسيؤثر في الافكار العمومية تأثيراً سيئاً على تهادى الايام فالناس يقولون اليوم ان هذه الاحوال تنتج اقراض الدولة وهذه الدولة التي قد نجحها الله من المخاطر والازمات بقدرته وكرمه لا تخرج اليوم من الضيق الا بتدبيركم وحكمتمكم فاذا لم تتلاقوا هذا الامر بسرعة وقمت في كوارث وانتم الساهرون على راحة رعاياكم ورفاه اتباعكم وقد اضطررنا وطينتنا الى عدم السكوت والوقوع فيما لا تحمد عقباه فنجأنا الى اعتباركم الشاهانية لان الدواء قد تعذر والشفاء قد عجز ولا يخفى على حكمة جلاتكم ان الدواء الشافي لهذه العلة هو اجتثاث اسبابها التي نعرفها حق المعرفة فاذا

أزيلت الاسباب زالت العلة وخطوط جلاتكم الهايونية واراداتكم السنية قد بينت الداء والدواء فاذا اصدرتم خطأ همايونياً جديداً حتمتم به اتباع القوانين والنظامات والمساواة بين الغني والفقير والكبير والصغير في نظر القانون وارجعتم المحلات الخيرية الى أصلها وصرقتم الاموال في سبيل ما خصصها له الواقفون واعدتم مرجع امور الدولة الى الباب العالي فقرر قراراته وعرضها على جلاتكم ولم يستأثر بشيء من حقوق الدولة المالية والملكية ولم تصرف المالية قرشاً واحداً الا برأي الباب العالي ويجب ايضاً تحديد وظائف كبار الموظفين واصاغرهم من جديد وجعل النظار مسئولين من نتائج أعمالهم باصدار اراداتكم السنية وتحتميم اتباعها على خواصكم ورجال حاشيتكم فاذا بذل الجهد لاتباع تلك الارادات حصلت النتيجة المطلوبة بعونه تعالى ووصلت الدولة الى الطريق الذي ترجوه جلاتكم

هذه الاقوال هي نتيجة تفكيرنا وربما اخطأنا ولم نصل بها الى الغاية المطلوبة وعليه فنحن نطلب من جلاتكم تخلص الامة التي قد اصبحت مصالحها بين يديكم من ازمتهما الحاضرة وعلى كل حال فالرأي لكم أفندم
(أقوال احد اكابر الانكليز)

كتب السر هانري اليوث في مجلة (ناينتينس سانشوري) التي تصدر في لندره بامضائه سنة ١٨٨٨ في عدد شهر فبراير سنة (١٣٠٥ افرنجية) قال
قابلي احد اعضاء حزب مدحت باشا ذاك الحزب الكبير الذي قد ضم تحت جناحيه عدداً كبيراً من الكبراء والامراء والوزراء وقال لي ان غرض حزبهم وهدفه الوحيد الذي يرمى اليه هو اعلان الدستور في تركيا وكان كلامه لي قبل عقد مؤتمر الاستانة فالتقانون الاساسي (الدستور) لم يعلن في تركيا لتثبيط همم رجال المؤتمر اذ ذاك

وبعد أيام قلائل حضرتي مدحت باشا نفسه وحادثني في هذه المسألة فقال:
ان التبذير في بلادنا قد بلغ درجه لا تطاق فالمالية ترسل الاموال الى المابين فيصرفها السلطان في ملذاته والوكلاء (النظار) يبيعون الوظائف بيع السلع فالوالي يشتري

وظيفته من الصدر الاعظم ويذهب الى الولاية فيعامل الاهالي بأنواع الظلم وضروب الجور الامر الذي خرب الولايات وهذه هي الاسباب الوحيدة التي أوقعت الدولة في أزمة شديدة لا سبيل لها الى الخلاص منها الا بتبديل الادارة الحالية ويلزم تبديلها أولا احداث مجلس ملي وجعل النظار مسؤولين أمامه وثانياً ان يكون المجلس ملياً بحيثاً فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب والعناصر وثالثاً ان يوضع الولاية في الولايات تحت رقابة شديدة

قال لي هذا الرجل الكبير المحرب هذه الاقوال وهي عين الواقع فوافقته على اصابتها وباركت له

وقد سأني مدحت باشا عن درجة تأثير هذه الاصلاحات في انكسار وما سيكون عليه الرأي العام الانكليزي بعد اجرائها فقلت له ان الانكليز سيجذبونها ويتمنون له التوفيق لانهم مثلي يبغضون الاستبداد ويحبون الشورى قلت له ذلك بصفة خصوصية لاني أعرف ان الانكليز يجزمون بنجاح الدستور في تركيا ويفرحون اذا خلصت من براثن الاستبداد انتهى

المكتوب الذي أرسله السلطان عبد الحميد الى مدحت باشا

وزيرى سمير الصداقة مدحت باشا

ان لائححة الدستور التي قدمتموها لحضورنا العالي قرأناها ورأينا في غضونها ما لا يوافق احتياجات البلاد ولما كان جل مقاصدنا هو حفظ مستقبل البلاد بل وضع نظمات جديدة لاسعاد الاهالي فنحن نجد ما بذله رجالنا لهذه الغاية وعليه فقد وضعنا لائححةكم على بساط البحث بين أيدي الوكلاء لتحويلها وجعلها وفق المطلوب فبلغوا سلامنا للصدر الاعظم واعرضوا عليه أمرنا هذا واقبلوا سلامنا واجعلوا المسألة مكتومة بينكم وهذا جل مطلوبي

عبد الحميد

٩ ذى القعدة سنة ٩٣

من مدحت باشا الى باشا كاتبا الماين الهايوني
عطوفتو أفندم حضر تلى

ان العنايات التي يبذلها ولي نعمتنا المعظم نجعل هذا العبد عاجزاً عن اداء
فرائض الشكر وقد قدمت من مدة الى العتبة العليا اللائحة المختصة بالدستور فسلمني
جلالة السلطان بلطفه ونظر الي نظرة لا أنساها ما كر الجديدان وتعاقب الموان
أما اللائحة التي قدمتها الى جلالة مولانا السلطان فاني أعترف بنقصها أيضاً لاني لم
أقدمها بقصد الاسراع في تنفيذها بل كتبها كسودة قابلة للتغيير والتبديل وعرضتها
على العتبة السنية بناء على طلب سابق لجلالة السلطان

وقد صححت بعض موادها ووضعتها على بساط البحث في مجلس الوكلاء
وجاء دورها وبلغت أمس ارادة جلالة مولاي الاعظم الى الصدر الاعظم
وأرى الاخلاص يضطرني الى تكرار ما قلته لجلالة السلطان وهو ان لنا
طريقتين للخروج من الازمة الحاضرة أولها القيام بما وعدنا به الدول الغربية واجراؤه
قبل عقد المؤتمر الذي لم يبق لعقده وقت سوى ثلاثة أيام والثاني قبول تكليف
الدول والبقاء تحت وصايتها الى أبد الآبدين فاذا لم نسلك الطريق الاول أو نعلنه
قبل عقد المؤتمر اضطررنا الى الثاني والامر لكم

مدحت

١١ ذى القعدة سنة ٩٣

من الصدر الاعظم مدحت باشا الى الماين الهايوني

ان اخطارات الموسيو تيرس تحذو بنا الى تحسين ادارتنا أعني الى اظهار الافعال
لان حلفاءنا يشيرون علينا بذلك وقد ورد اليوم تلغراف من موزروس باشا
فخواه ان اللورد دربي يعد انحلال المؤتمر ظفراً للدولة العثمانية ويبارك للدولة العلية
وينصح لنا بعقد شروط الصلح مع الصرب بسرعة واعلان الدستور واجراء ما
قبلناه في المؤتمر من المواد التي لا تخالف الدستور وقد نظرت الى هذه الامور نظر
المعتبر وابتدأت باجراء ما يلزم من الاعمال وصدرت ارادتك السنية قاضية بعدم
قبول أبناء غير المسلمين في المكاتب العسكرية وهي مما يثبط هم المخلصين الذين

يريدون اصلاح شؤون الامة وبناء عليه فان هذه المادة قد حالت بيننا وبين تنفيذ غيرها من المواد النافعة للوطن والتي قد سبق العزم على وضعها اليوم في مجلس النظار على بساط البحث وقد كتبت عن هذه المسألة مذ أمس فلم يصلني الجواب فخر كاتنا البطيئة نحو الاصلاح تسوقنا الى مراجعة مرحة جلالكم الجليلة ولا تقول غير ذلك أفندم

٩ محرم سنة ٩٥ مدحت

من سعيد باشا باشكاتب المابين الى مدحت باشا الصدر الاعظم

ان لائحة سالسبورى ولوائح أعضاء المؤتمر محتوية على مواد غير قابلة التنفيذ كما أخبرتم ولما كانت اللائحة الثانية لم تصل الى على علمكم فاذا لم تقرر الدول الغربية قبول ما أحضرتوه من الاجوبة فانظروا في كل ذلك وضعوه على بساط البحث وفكروا في مواد القانون الاساسي ووالوا اجتماعاتكم في أيام العيد السعيد كما اقتضته ارادة جلالة السلطان والامر لولى الامر

العبد

سعيد

٨ ذي الحجة سنة ٩٣ في الساعة ٣ ليلا

غيره

ان ارادة جلالة السلطان قد صدرت قاضية بتبليغ العبارات الآتية اليكم بسرعة. مذ أيام حاول سفير روسيا حمل ملك الملوك على تنفيذ التكاليف المعلومة وقد امتدت الثورة في طول البلاد وعرضها ولا سبيل الى الخروج من هذه المآزق الا باستجلاب رضاء دول الغرب واذا دامت الخال على هذا المنوال فانخطر ملحوظ والمسؤولون عن تبعته هم مسبوه بلاشك هذه هي أقوال سفير الروس وقد ظهرت على وجهه علامّ الانفعال وشاهدها مخاطبوه وبعد مدة استأنف الكلام فقال ان روسيا لا تريد اعلان الحرب وانه يقابل جلالة السلطان ويحادث أرباب الحل والعقد ومديري دفة الحكومة للوصول الى نتيجة مرضية وقال أيضاً انه سيقابل سفراء بقية الدول ويحادثهم في هذا الشأن ويحتمهم على الاتفاق معه لطلب نفس مطالبهم لتلافي اعلان الحرب ثم أوصى بتبليغ كل أقواله الى جلالة السلطان فقابل الوسيط الذي حادثه ملجأ الشوكة وبلغه رسالة السفير فقال له الخليفة ان العثمانيين يعرفون

من أين يأتيهم الضرر وقد اتحد المسيحي والمسلم واستعدوا لمقاومة كل قوة وثار ثائر
 الافكار فاتحد البلغاريون مع المسلمين على الاعداء وهم هم الذين تحاول روسيا
 حمايتهم وأعمالهم اليوم تثبت صدق ما قلناه فاذا أصرت أية دولة على تلك المطالب
 اضطررنا الى مجاراة تيار الرأي العام فرجع (ايغنايف) عن رأيه بعد هذه الاقوال
 وسكنت سورة غضبه أما خطة سالسبورى فستبدل أيضاً وقد أوصينا أعضاء المؤتمر
 باتباع هذه الخطة في محادثاتهم لان اتباعها لا يخلو من الفائدة والامر والفرمان
 لولى الامر

العبد

سعيد

٢٢ ذي الحجة ٩٣

غيره

ذكرنا مسألة القائمة فقال جلالة السلطان ان سقوط أثمانها سببه هو ان الموسيو
 ظربنى قد أخرج منها عدداً كبيراً بلا روية وان ناظر المالية قد أخطأ الهدف ولم
 يفكر في المسألة وأنا أتقل لكم حديث الامس فقد قال غالب باشا اذا كان ناظر
 المالية غير مقتدر فتبديله واجب بل يتحتم تعيين رجل لم يدنس شرفه في الامور
 المالية فصدرت الارادة السنية قاضية بتعيين رجل بهذه الصفة وقد قرأ جلالة السلطان
 تلغراف أوديان أفندي فاذا قابل (الماركى دي سالسبورى) وحادثه عن الاحوال
 الحاضرة فيجب عليه عدم السكوت أو الجاء محدثه الى مراجعة الباب العالي بل
 يتحتم عليه الاستناد على الادلة التي قد اتبعها الباب العالي لرد المطالب المعلومة عملاً
 بارادة السلطان لان القومسيون المختلط يؤثر في استقلال الدولة ويخل نظامها وأقرب
 طريق هو حل المسألة بغير وساطة الاجانب وهذا غير ميسور ولما كانت الغاية حفظ
 استقلال الدولة فيجب التفكير وقد كتبت صورة حل لاوديان أفندي بالأمس كما
 دل على ذلك التلغراف الذي أرسله وعليه وفي المسألة أمل يبعث على الاعتقاد بقرب
 النتيجة هذا ما قاله المتبوع الاعظم وقد أرسلت لكم ما قدرت على كتابته في قومسيون
 صباح اليوم اتباعاً للارادة السنية التي صدرت لى في هذا الصدد

العبد

سعيد

٢٥ ذي الحجة سنة ٩٣

غيره

ان ترجمة تفراف أوديان أفندي قد وصلت الى عبدكم بعد عودته الى منزله وكان جلالة أفندينا صاحب الشوكة قد شرف الحرم الهايوني فلا سبيل الى عرضها على مسامع جلالته وعليه فقد أقيمت المسألة للغد لاعرضها عليه وأعرض ما يصدر به أمر أبهتكم

والظاهر ان التفراف الذي أشار أوديان أفندي الى ان اللورد ديسرائيلي أرسله قد حضر ولذا فان المسئوليات يقول ان الاحوال الحاضرة ستتج الاصلاح السريع ويقول بان الدولة العثمانية ميالة للاصلاح وان المؤتمر سيتم عمله في القريب العاجل بيد انه قد بقي عنده أمر واحد هو وضع نظام قومسيون مختلط موقت قال ذلك علناً وأنا أنقل اليكم أقواله لاعتمادي على شهادتكم وليس قولي من قبيل الرسميات فقبولنا الاحكام الدستورية يبطل مساعي أعضاء المؤتمر وما قاله أوديان أفندي هو في مصلحتنا واذا راجعتم فكر أبهتكم اتضح لكم اني قد قلت لكم مثل ذلك مذ عشرين يوماً فالقانون الاساسي الذي هو من حسناتكم لا تقوم له قائمة الا بهذه الطريقة وعليه فلا سبيل الى اضاءة الوقت بالأخذ والرد والسؤال والجواب بل يتحتم الحضور الى السراي ومقابلة جلالة السلطان وارشاده الى الحقيقة للوصول الى الغاية المطلوبة وعلى كل حال فالامر لمن له الامر
الى الغاية المطلوبة وعلى كل حال فالامر لمن له الامر
في الساعة ٦ ليلا ٢٥ ذي الحجة سنة ٩٣
العبد
سعيد

غيره

فهمت ارادة أبهتكم السامية وعدت أمس من حضوركم السامي ورأيت القومسيون مجتمعاً فقلت ان معاهدة باريس قد كفلت استقلال الدولة ولا يجب ان نشقها بيدنا لان انعقاد مؤتمر في الاستانة سيفتح لنا باب المؤتمرات أما سفير فرنسا فيقول ان رئاسة المؤتمر ستكون لنا وان رأي أعضائه الاجانب يكون شورياً لا قطعياً والظاهر ان سفير روسيا لم يبق له أمل في الباب العالي فهو يريد حل كل شيء بواسطة السراي الهايونية وجلالة السلطان لا يظهر الا الثبات والانصاف

وقد شعرت من جلالة قبل وصول ارادة أبهتكم بأنه سيحادث (الماركدي سالبوري)
عن آمال العثمانيين وعن حقوق الدولة الشرعية ولا يخرج عما يقتضيه هذان
الواجبان الوطنيان فثقوا بان الذي سيحصل لا يغير مصالح الوطن وعلى كل حال
فالأمر لولي الأمر

العبد

سعيد

غيره

وصلت أوامركم الخديوية العالمة ليد العبد العاجز ولا يخفاكم ان جلالة
السلطان مصاب بألم في أسنانه ولذا فانه لم يشرف المابين الهايوني في هذا اليوم
حتى ان ناظر باشا قد حضر الى المابين الهايوني لعرض مقررات المؤتمر وترك
الاوراق والتلغرافات ولست أدري هل يمكن عرض أوراقه أم لا وقد اشهر
رشدي باشا بذ كائه النادر وآرائه الصائبة بين دول الشرق والغرب واشتهرتم
بفضائلكم وبوضع القانون الاساسي الذي سيخلص الدولة من هذه الازمة ويقول
أوديان افندي في تلغرافه ان أعضاء الوزارة سيقدمون استقالتهم بسبب خلاف
حدث بينهم فيجب عليكم تكذيب تلك الاشاعة لازالة سوء تأثيرها في سمعة
الدولة والأمر لكم أفندم

العبد

سعيد

٥ محرم سنة ٩٤

غيره

ان تذ كرتكم السامية المحتوية على بعض المواد المتعلقة بقبول ابناء غير المسلمين
في المكاتب العسكرية ستقدم الى الخاقان الاعظم وقد أرسلنا لابهتكم بعض
الارادات السنية في هذه الاونة وكنا قد كتبناها بالامس ولكن الوقت لم يساعد
على ارسالها والسبب في كتابتها هو ما قرأه سفير روسيا على أعضاء المؤتمر وخلاصتها:
ان جلالة السلطان قد صدق كل أقوالكم السابقة وختم المؤتمر بخطبة (ايغنايف)
التهديدية قد آسف جلالاته وهنا نقطة أخرى توجب الاسف وهي ان
الدولة العلية قد اعلنت الدستور مختارة فقال هذا السفير بأعلى صوته في المؤتمر ان

دستورنا حبر على ورق ثم استطرد فذكر غير المسلمين وقال اننا لا نحافظ على عاداتهم
وتقاليدهم وقال ان فرمان المحتوي على خمس مواد الصادر في زمن محمود باشا قد
أهمل ولو روعي لكان أحسن من الدستور وخرج عن دائرة وظيفة المؤتمر والذي
جرأه على ذلك هو استماع الحاضرين وتركهم التصدي له وتزييف اقواله وكان
الواجب علينا التأخر عن حل المؤتمر وتأخير امضاء أوراقه وكتابة لائحة تزييفاً
لمقرراته واثباتها في أوراق المؤتمر فانتشار قرارات المؤتمر بهذه الصورة لا يخلو من
سوء التأثير فاذا امكن انذار الرجل فقد صدرت الارادة السنية بذلك والامر
لمن له الامر افندم

العبد

سعيد

٨ محرم سنة ٩٤

نمرة ٦

قرانا مكتوبكم الوارد بتاريخ ٢٤ نيسان سنة ٩٤ بكال الالهية وعلمنا ان
الوطن قد وقع في مصائب لم تقع لغيرنا من الامم كما اخبرتم فيا اسفى على ابناء الوطن
البؤساء كيف يتحملون هذه الارزاء فيلزمنا اليوم شيء واحد وهو مقابلة المصائب
بالصبر والثبات ومشاورة ذوي الراي والحصافة وعليه فاجتاع اهل الروميلي في
الاستانة قد شكل جمعية كبيرة وهذه الجمعية قد انضمت اليها وهذا مما يوجب اعلاء
شرف الوطن ولا يخفى علم دولتكم ان مصائب الوطن المتوالية قد تسببت عن اشتغال
عطاء الامة بمنافعهم الذاتية وعدم قبولهم تبعة أعمالهم

اعتقد ان عدد الاهالي كان كافياً لمنع الروس عن اقتحام البلقان ولكن
القائلين بان الروس يضمرون لنا الشر لم تسمع اقوالهم ولو جمع اهالي الروميلي جمعهم
ودافع كل واحد عن ماله واولادهما وصلت البلاد الى حالة الخراب وظن الاقارب
والاباعد ان الاتراك قد اصبحوا في عداد الاموات

وقد اظهر عساكرنا والحمد لله شجاعتهم وشهد بها العالم وحمل الاهلون السلاح في
هذه الايام فهاب الاعداء سطوتهم واثروا منظرهم في الدول الاجنبية التي تحاول اقتسام
اسلاب العثمانيين فتبدلت الاحوال وتطورت المسألة بطور غير طورها فغير القائلون

بوجوب اخراج المسلمين من الروميلي لهجتهم وقالوا بوجوب تأسيس ادارة مشتركة في الروميلي وساعدهم الانكليز وغيرهم ولا يخفى على فطنتكم ان الدول المخالفة لنا لا يمكنها المجاهرة بمساعدتنا في زمن الحرب فلا سبيل الى طلب الاعانة خصوصاً بعد مطالب الانكليز التي تشير الى احد الامرين وهما اما الصلح واما الحرب فاذا حصل الصلح وفقنا الى عقد شروط مواقعة لشرف دولتنا بسبب كثرة العدد والعدد واذا اعلنت الحرب كان النصر لنا بعون الله تعالى فبناء على ما تقدم يلزم حث الذين قد خرجوا الى الجبال على الصبر والثبات واتهواز الفرصة للتكيد بشراذم الاعداء والامتناع عن التعرض للفيالق الكبيرة ليقع الروس في مأزق الهلاك والمنظون ان اهالي الاستانة في هرج ومرج فيلزمهم السكون والصبر في هذه الآونة لان العدو على الابواب

٧ مايس سنة ٩٤

نمرة ٧

ان العاجز قد سر بتوجيه مقام مشيخة الاسلام الى رشادتكم ولما كنت اول المخلصين لكم فاني ارجوكم الظفر والتوفيق في خدمة الدولة الاسلامية وأنتم واقفون على غوامض اسرار الحقائق ولكن اخرج عن دائرة الاعمال يرى ما لا يراه الداخل والذي يلعب الشطرنج لا يرى من الدقائق في لعبه مثل اخرج عن دائرة اللعب ولذا فاني ابدى لكم بعض ارأئى مع ان حالي وصفني لا يميزان لي التداخل في الامور غير ان حال البلاد وما وقعت فيه من المهالك والمخاطر العظيمة يضطر كل فرد من ابناء هذا الوطن الى القيام بنصيبه وانا أيضاً اقوم بهذا الواجب لاني من ابناء الوطن فبسبب هذه الوظيفة المشتركة أعرض خلاصة أفكارى وهي

اولاً ان ما كلفنا به اعداؤنا كان نتيجة انهزامنا في الحرب الاخيرة فقد رفضنا ما عرضه علينا مؤتمر الاستانة واعلنا الحرب صيانة لشرف الامة العثمانية وكان الانكليز والنمساويون والافرنسيون ينتظرون انهزامنا فاستمرت الحرب ثلاثة اشهر وآب الروس بالخرزي والوبال وعرف العالم المتمدين قوة دولتنا وسطوتها ولم يقولوا

ان العثمانيين قد ماتوا وما ذلك الا بفضل قائدنا الكبير ودرايته العسكرية
 وكان عدد عساكرنا في جهة الروميلي غير قليل وانتظر الناس انتصاراتنا بيد
 ان احوال القائد المعلومة قد افضت الى نتائج غير منتظرة فبدل بسرعة وتولد الامل
 في صدر كل وطني واخذت آثار التحسين تظهر وكنا كل يوم نسمع بمصائب الروميلي
 وهاجر الاهالي زرافات ووحداً الى الاستانة وثار اهالي كريت وظهرت نبات
 اليونان فقال الناس لا بد من الصلح للخلاص من هذه الكوارث واقترب العدو
 من قلبه وادرنه وفي الحقيقة فان الذي اعياه التعب يميل الى الراحة بيد ان الدولة
 العثمانية هي حامية الاسلام الوحيدة والصلح يعود على المسلمين بال وبال اذا حصل
 عقيب الهزيمة وتصل حالة اهالي الروميلي الى اقصى دركات الذل ويصبح المسلمون
 ككتار القديم والتاريخ يثبت ان الصلح المنعقد في ادرنه ومعهده فينارجه قد بقي
 ضررها في دائرة محدودة ولكن هذه الحرب لا تشبه الحروب التي انتجت تلك
 المعاهدات لانها قد أعلنت لاجتثاث أثر الدولة الاسلامية فالذين يميلون الى الصلح
 يجب ان يضعوا نصب اعينهم ما ستلاقيه الامة العثمانية من الذل والضعف في
 المستقبل وعلى هذا فالحرب لا توصلنا الى دركات الحضيض اذا قاومنا العدو بثبات
 وصبرنا صبر الشجعان الى امد غير بعيد

والثاني احوال نصارى الولايات العثمانية لانه لا يخفى علم رشادتكم ان الروس
 تذرع بمسألة الشقاق الحاصل بين المسلمين والمسيحيين لقلب افكار اوربا واستعمالها
 ضدنا فهي تحرك المسلمين ضد النصارى للوصول الى بغيتها واذا تخاضم الفريقان
 حركت دول اوربا قائلة انظري الاتراك يقتلون المسيحيين وهذا هو سلاح روسيا
 ضدنا وقد دست الدسائس في الروميلي منذ ١٥ سنة ولكنها لم تتوصل الى غايتها
 بيد انها قد بذرت بذور الفساد في افكار اوربا بسبب حادثة فلبا التي حصلت في
 العام الماضي ونهت اعصاب اهالي روسيا فهذا هو سلاحها الذي تفعل به ما لا تفعله
 بالسيف والمدفع واذا استوت روسيا على بعض البلاد استعملت القوزاق والبلغار
 لاهلاك المسلمين فثار هؤلاء وقتلوا عدداً من المسيحيين لتثير ثائر اوربا وتحرك

احقادها وسبب بقاء رعايا الروس في بلادنا هو لهذه الغاية فهم يشتغلون ليل نهار لتوليد الشقاق وحمل المسلمين على قتل عدد من الاجانب ولهذا السبب فان ما اعلتموه من وجوب الوعظ في الجوامع يؤثر تأثيراً حسناً ويعلم المسلمون في الاستانة وفي الخارج ان روسيا لا تغلبنا بالسلاح بل بمثل هذه الاعمال فاذا قام المسلمون في بلدة او في ولاية من الولايات ضد المسيحيين ضاعت البلاد والعياذ بالله لان التآليف بين قلوب المسلمين والمسيحيين في بلادنا هو سلاحنا القاطع فليفكر في هذه المسألة انصار الدين والدولة ويحافظوا على صداقة اخوانهم في الوطن ويفضوا الطرف عن مساوئهم فذلك أولى لهم

والثالث الادارة العرفية وفي الحقيقة ان هذه الادارة تعلن في زمن الحرب كما صرح بذلك القانون الاساسي (الدستور) ولكنها قد أعلنت في الاستانة قبل اوانها فصدرت الاحكام على بعض الاشخاص وفرت عائلاتهم الى اوربا وصادف فرارهم وجود بعض افراد العساكر المسيحيين الذين فروا من قانون التجنيد الجديد فنفر الافرنج من ادارة تركيا الجديدة ونحن في موقف يجب علينا فيه ارضاء دول الغرب وهم يرون عائلات المسيحيين بلا ناصر ولا عائل وهذا هو نتيجة استئثار بعض الاشخاص بادارة الدولة بل ربما كان هؤلاء الاشخاص من صنائع الروس الذي يعملون باشارات تلك الدولة وعليه فيجب النظر الى هذه النقطة لتسكين أفكار ساسة دول الغرب والرابع اختلاف عطاء الدولة ومشاحنهم وكان يجب ترك الضغائن والاحقاد في مثل هذا الوقت ونظارة الخارجية هي المحور الذي تدور عليه حياة الدولة ومماها وكان يجب على رجالها الثبات واظهار الثبات امام دول الغرب فهم يدبرون الامور كما شاؤوا وشاءت هواؤهم وفضلاً عن هذا وذاك فهم يقولون ماذا فعل اذا هاجمتهم السفارات ثم يعززون تبعه اغلاطهم الى رؤسائهم قائلين اننا قد نصحنهم فلم يسمعووا واذا ارادوا وضع مسألة على بساط البحث اوصلوا اسرارها الى سفير الروس وكتبت عنها جرائد اوربا وانتقدتنا بقوارص الكلم وهذا مما يوجب الاسف ولا يخفى عليكم ان امبراطرة روسيا والمانيا والنمسا قد اجتمعوا ببرلين منذ

ثلاث سنين وقر قرارهم على تقسيم قطعة الروميلي فلم توافق انكثره ولذا فان روسيا قد اجتهدت لايجاد حكومات في البلقان ولما اعلنت الحرب في هذه المرة حاولت اخراج عزمها الى حيز الفعل أيضاً وهو عزم لا يوافق مصلحة النمسا لان تشكيل الحكومة البلغارية يجعل القسم السلاوي ميالا للاستقلال برايتها ويخرجه من تحت راية النمسا وينضم القسم الالماني أيضاً الى المانيا ولا يبقى تحت حكم النمسا سوى المجرين الذين لا يبقى لهم أثر فقرار الروس اذاً مخالف لمقاصد النمسا ولكن النمساويين يداهنون الالمان خوفاً من قوتهم وبطشهم والالمان يريدون الفتك بالنمساويين ولكنهم يخادنونهم ولذا فان البرنس بسمرق قد اشار الى النمسا باحتلال البوسنه والهرسك احتلالاً مؤقتاً واثار عليها بالحاقها باملاكها اذا تشكلت الامبراطورية البلغارية وهذا ما حدا للنمسا الى حشد عساكرها على حدود البوسنه فاذا تقدمت روسيا في حروبها ادخلت النمسا عساكرها الى بلاد البوسنه واعطت المانيا بوهيميا في مقابل البوسنه وسلانك واذا لم يرض الانكليز بهذه القسمة فهم لا يقدررون على الوقوف امام ثلاث دول فالستقبل ينذر بالخطر الكبير لان انكثرا تطمح الى مصر واليونان يمنون النفس بالاستيلاء على ترحالته ويانيه والايطاليون يريدون تخليص نيس وصاوا فهم يتفقون اذا مع المانيا وربما تجاوزوا على بلاد الالبان ونحن ننظر عناية الله ليل نهار آمليين النصر من عنده لا تقشاع هذه الغيوم والحرب وحدها لا تكفينا للتخلص من هذه الازمة بل الذي يقذف الدولة هو تدبير رجال نظارة الخارجية

الخامس مسألة العلم النبوي فقد نشرت بعض الجرائد خبر عزم الدولة على اخراجه لسحق اعدائها وفي الحقيقة فان كل دولة قادرة على اتباع عادتها القديمة واخراج العلم النبوي لا يبرهن على اعلان الحرب ضد غير اعدائنا غير ان ما اذاعه الروس عنا من الترهات والاكاذيب والاحاديث المفتراة لا يساعد على اخراج العلم في هذه الايام فيجب علينا تأخير اخراجه وليكن ذلك ولكن بعد اليأس اكتب اليكم هذه الملاحظات لتذكركم وما حداني الى كتابة ما كتبه سوى

الفيرة الوطنية وعلى كل حال فاقم مخيمون بين الرد والقبول

نمرة ٨

الى كامل بك ناظر التشريرات

عالي المهم سيدي العزيز

أعرف انكم لا تجسرون على مكاتبي في الوقت الحاضر ولكن الضرورة
تضطرني الى مخاطبتكم

سمعت ان بعضهم قد اعترض على ما كتب في جرائد الاستانة وانا اعرف ان
اخوانكم يتأثرون من كتابة المنفين لانها تؤثر في الرأي العام وأنا أعلم ذلك ولكن
هذه الملاحظات تشابه الدفاع عن الروح والمال . ان محافظتي على حياتي في هذه
الظروف الحرجة يعد جناية كبيرة وما كتبه في مكتوبي من العبارات لا ينكر أحد
انه عين الصواب اذا نظر اليه بعين الانصاف والذين وشوا بي عند السلطان قد
استعانوا بالجرائد والشعراء وشنوا علي غارة شعواء بدسائسهم ورددائلهم فصبرت على
أكاذيبهم المختصة بشخصي وسأصبر أيضاً على ما نسبوه الي من الخطأ والخطل ولكن
ما أستحقه من وظيفة الدفاع عن الوطن المشتركة بين ٣٠ مليوناً قد أضع صبري
اذ نظرت الى ما وصلت اليه حالة هذا الوطن فلا تعجبوا

أعرف ما يكون عليه النظار من الاضطراب في هذه الظروف فأطلب من الله
جل وعلا توفيقهم وأري من الواجب عدم ابداء رأبي ولزوم السكوت بيد ان الوقت
قد ضاق وظهر الخطر المدلهم وباب السلطان مفتوح لابناء الوطن واذا سد في وجه
أحدهم لجأ الى كل الوسائط لفتحه

الذي يقول الصدق صادق للسلطان والذي يكذب يخونه وقد جاء الزمان
اللازم لفهم هذه القاعدة وظهرت نيات الخونة الذين أضرموا الخيانة لوطهم فأمل
ان يترك هؤلاء الخونة الشخصيات ويشغلوا بخلاص البلاد من أزمته الحاضرة
وأرجو غرض الطرف عن مكتوبي الخالي من أفاظ الرياء والمداهنة

مدحت

١٧ ذي الحجة ٩٤

من كامل بك ناظر التشریفات الى مدحت باشا

معروض عبدكم

ذ كركم السلطان منذ أيام فقلت انكم في حالة اليأس والكدر وانكم تسيرون من بلد الى بلد فسأل عن أسباب معيشتكم فقلت انه يعيش بالقروض فظهرت رقة قلبه التي يشهد بها العالم وبكى وقال ارسلوا له الآن الف ليرة ليستعين بها على امر معيسته فقلت اني سأسأل عن واسطة ارسال هذا المبلغ فقال جلالة بوجوب كتم المسألة ثم استطرد فقال : قد خدعوا المسكين : أما مستقبل حالتكم فالظروف تضمن حلها بالمكاتبة كما اقتضت ذلك ارادة جلالة السلطان فاذا وصلكم مكتوبي هذا فاسرعوا بارسال الجواب واكتبوا عريضة تشكر الى جلالة السلطان وارسلوها مع الجواب وعلى كل حال فالامر لسيدي

عبدكم

ناظر التشریفات العمومية كامل

٢٣ تشرين ثاني سنة ١٢٩٣

(حاشية) ارجوكم كتم ما احتوى عليه مكتوبي لان جلالة السلطان قد اوصاني

بذلك مراراً

الجواب

على الهمم سيدي وعزيزي

اخذت مكتوبكم رقيم ٢٣ تشرين الثاني وكنت اتعجب من صديق لم يجسر على كتابة كلمة سلام لي من يوم مفارقة الاستانة فلما قرأت المكتوب المرسل بخطه عرفت سر المسألة وقد اجبتم السلطان حين تلتطف بالسؤال عن احوالي بقولكم : اني اسير من بلد الى بلد في حالة اليأس والكدر : جلب شفقة جلالاته فأشكركم ولكن لا يخفى على علمكم ان هذا التعبير لا يوصف به الا فاقدى العقل الذين لا عمل لهم وقد ابعثنى السلطان عن الاستانة لاعادة الامن لان بقائي يثير الشعب كما زعم بعضهم وعليه فلا يجوز ان تعبر عني بهذه الالفاظ بعد ان نلت ا كبر رتبة ووجه الى مسند الصدارة لانه يحط من شرفي ومن شرف الدولة ولو قلت : انه

يعيش منفرداً ويقضي وقته بالدعاء للخليفة ! لنطقتم بالصواب واصبتم الهدف الذي يرمى اليه السلطان

وما قلتموه عن اسباب معيشتي هو عين الصواب لاني افتخر في كل وقت بأحوالى المالية فقد ولدت عارى الجسد وسأفارق الدنيا عارى الجسد ايضاً ومع هذا فقد فارقت الاستانة واحسن على جلالة السلطان بخمسمائة ليرة فصرفتها واقترضت من خرستاكى في نابولى عشرة آلاف من الفرنكات فنفدت وأنا اليوم مضطرا الى الاقتراض لسد رمقي ورمقي أفراد عائلتي المقيمة في الاستانة وأرباب الاموال في لوندرة يقدمونلى ما أطلبه من النقود بلا فائدة وقد قضيت أيامى لليوم بهذه الطريقة ولولا وصول حالة الخزينة الى ما هي فيه من الضيق لساعدنى جلالاته بأكثر من ذلك لانه يحب عبيده الاخضاء وقد خدمته أربعين سنة ورفلت في أبواب نعمته وعرفت جوده وكرمه وهما لا يسمحان له بترك عبده في هذه الحالة بعد وصوله الى هذا السن وقد أثبت بما فعله أخيراً صدق ظن عبده فأنا أقدم له جزيل الشكر أما ما ورد في مکتوبكم من العبارات فانى أطلب منكم الاذن لابداء ما عندي من الكلام في شأنه ولا يخفى عليكم انى ولد المدعو حاجي أشرف أفندي ولم أنتسب الى غير الله وقد اجتهدت لتحصيل الفضائل وتهذيب النفس فلم أوفق الى بغيتي فدرجتى اليوم أقل بكثير من درجات أقرانى العلمية أما الذي أوصلنى الى هذه الدرجة فهو انى لم اقل الا الحق في أيام حياتى وقول الحق هو الذي اوصلنى الى ما ألاقه من الشدائد فقول السلطان انهم خدعوني قد يكون صحيحاً والانسان يخدع عادة ولكنى اذا طلبت العفو اقررت بشيء غير واقعي والاقرار بغير الواقع هو عين الكذب والكذب على امير المؤمنين كفران لنعمته وما الذي فعلته حتى أطلب العفو فقد اقتضت الظروف تولية سلطان بعد عبد العزيز فأجاسنا مراداً فرض وقطعنا الامل في شفائه فخلع . وجلس مكانه السلطان عبد الحميد وكان جلوسه موافقاً لاعلان الدستور وخطت الدولة خطوة نحو الاصلاح وقد اظهر لى جلالاته انواع الرعاية والاكرام والمخالصة ان الناس قد وصلوا الى بغيتهم فالكافر الخائن

المنافق هو الذي ينسى كل هذه الامور ويقول غير هذا القول حسبنا الله
 قدم المرحوم مصطفى فاضل باشا الى السلطان عبد العزيز لائحة قال فيها ان
 آخر ما يدخل قصور الملوك القول الصحيح والحقيقة هي ما قاله والكلام الصحيح
 يضر قائله بيد انه ينفع السلطان وينفع رعيته منفعة لا تنكر فوائدها وانا ارجح
 المنفعة العامة على المنفعة الخاصة ولذا فاني اذ كر ما يوقع الدولة في مأزق المهلكة
 وما يسبب خلاصها من المآزق واعلم ان ذوي الاغراض قد استعملوا اقوالى كسلاح
 انتقام ضدي ولكن احوال الدولة في هذه الايام قد اثبتت صدق اقوالى فوصلت
 الى دركات الحضيض والذين قد اشتغلوا بأمور الدولة واستبدوا قد اوقعوا أنفسهم
 في هذه الورطة واوقعوا الامة ايضاً

وعلى كل حال فاني لا اطلب الا بقاء السلطان وادعو لجلالته وقد اشتغلت
 بذكر محاسن نيات جلالته من يوم خروجي من الاستانة الى هذه الدقائق وسأفعل
 مثل هذه الافعال في المستقبل يقر بذلك كل من عرفني وتبته اقوالى الصحيحة
 انا اليوم افكر فيما وقعت فيه الدولة من المهالك بعد كارثة الحرب اولا وفي
 نفسي ثانياً سيدى العزيز انى قد وصلت الى السادسة بعد الخمسين فأنا قريب من
 سيدى في السن وستعمرون طويلا ان شاء الله اما انا فلا امل لى في الحياة لان
 اسلافي لم يصل احدهم الى الستين فرشيد باشا والقبرسلي محمد باشا وعالى باشا وفؤاد
 باشا كلهم معلومون فكل ما افعله هباء في هذه الايام المعدودة فالذى يجب فعله
 بعدكم هو حالته على المعاش ليعيش منفرداً ويقضي بقية عمره بالدعاء لولى النعم الاعظم

مدحت

٢٩ تشرين ثانى سنة ٩٣

من كامل بك ناظر التشرىفات الى مدحت باشا

يعرض عبد كم انه قد اشار عليكم باستعمال اللين وطلب العفو من جلالة الخليفة
 في مكتوبه فارسلتم بالضد مكتوباً كان كالعروض العارية الجسم وتأسفت وايم الله
 غاية الاسف لان هذه العبارات قد اخرت مقصدى وتركت مقدماتي عقيمة
 خصوصاً بعد ان ذكرتم ما يشيعه خصومكم من عزمكم على تبديل الخليفة والعياذ بالله

انا اليوم سأقيم في مصر شهرين فأرجوكم ارسال جواب هذا المكتوب الى
ارض الفراغة باسم عبدكم وعلى كل حال فالأمر لسيدي
٢٤ كانون اول سنة ١٢٩٥

عبدكم
كامل

سيدتي صاحبة العفة

قد وصل صاحب الدولة والايمة الباشا الى كريت وقد حررت لكم قبل اليوم
تذكرة اخبرتكم بها عن ارادة جلالة السلطان وازيدكم اليوم علما بان الواور
المخصوص الذي سيوصلكم الى كريت سيحضر في هذا الاسبوع وقد أحسن
عليكم جلالة السلطان بحماية ليرة لتستعينوا بها على السفر وسيُرسل جلالة الخليفة
احد رجاله على الواور ليبلغ الباشا بعض ارادات جلالته فاخبروني عن اليوم الذي
قد قررتم السفر فيه

على فؤاد

٢ شوال ٩٥

غيره

سيدتي صاحبة العفة

ان الرجل المقرر ارساله الى ابهتلو دولتو الباشا لتبليغ بعض الارادات السنية
قد تأخر لضيق الوقت وسيسافر على احد وابورات پوستة وقد صدرت ارادة
جلالة الخليفة قاضية بتبليغ سلامه الى دولة الباشا فبلغوه اليه

باشكاتب المابين

٨ شوال سنة ٩٥

الهمايوني

اللائحة التي ارسلها مدحت باشا الى مقام الصدارة

خصوصي

معروض عبدكم

بعد ان خدمت الدولة اربعين سنة بلا فاصلة وصل جسيمي الى الضعف
وخارت قواي وفضلت العزلة على العمل بعد عودتي من اوربا وكانت ارادة جلالة

مولاي السلطان قد صدرت لي بالاقامة في كريد مع عائلتي فصادف صدورها الهدف المقصود واقت مدة مستريحا من عناء الاعمال يسد ان جلالة السلطان قد ولاني أمور ولاية سورية فشكرت جلالتك وتوجهت الى مقر وظيفتي الجديدة فوصلتها بعناية الله وكنت قد حضرت الى هنا مئتان وثلاثين سنة بوظيفة كاتب تحريرات واقت بضع سنين وحضرت ايضا مئتين سنة بوظيفة موقته ولهذا فاني اعرف البلاد السورية وطبائع سكانها ومع سابق معرفتي بهذه البلاد فقد وجدت الحالة متغيرة عن ذي قبل فقد صبغت احوال الولاية الملكية والسياسية بصبغة غير صبغتها الأولى لان الانكليز والفرنسيين يبدلون مساعيهم من اربعين سنة لتقوية نفوذهم في هذه البلاد وقد اوصلوا جبل لبنان الى حالته الحاضرة وهم يحاولون ايصال بقية البلاد الشامية الى ما وصل اليه الجبل والدول تنظر اليهم بعين المقلد فالأمريكان يريدون اعلان حمايتهم لجبل النصيرى فيفتحون المدارس ويشوقون الاهالي الى قبول الحماية الأمريكية والامان يرسلون مهاجرينهم الى سواحل القدس لاسكانهم في القرى المجاورة والخلاصة فان كل حكومة تريد وضع يدها على قطعة من الشام فالاسبانيول قد انشأوا كنيسة ومدرسة بحجة يافا للوصول الى نصيبهم من الاستعمار ولذا فان ابناء المسيحيين قد انقسموا الى احزاب فمنهم من يحاول الالتحاق بانكلترا ومنهم المتزلف الى فرنسا وحاول الدرور أيضا تأسيس حكومة درزية اعتماداً على دولة انكلترا اما المسلمون فقد صاروا في حيرة من هذه الاحوال وبين تلك المفاسد وقد شغلت المسألة الحربية دار الخلافة ولم تبح لرجال الدولة النظر الى حالة سورية المحزنة فالوامر التي ترسل من الاستانة قاصرة على طلب المال والجند وهذه الحالة تفتح للاجنبي باب الاستعمار خصوصا بعد ان اشتغل موظفو الولاية بمصالحهم الشخصية وتركوا المصلحة العمومية فاخلوا بواجباتهم وفسدت اخلاق الاهلين بسبب اعمالهم وكثر القتل والنهب واختل الأمن العام فوصل عدد الجنائيات في جهتي (عكار) و (صافيتا) تسعين في اربع سنين ولم تقف الحكومة على اشخاص القتالين بل لم تجازي احدهم وطالما سجن الجناة وافرجت عنهم ويوجد في

سجن طرابلس قوم قد سجنتهم الحكومة احدى عشر سنة بلا حكم قانوني وقد اخلينا سبيلهم في هذه الآونة والحالة في القرى والبلاد التي يحكمها القائمقامون توجب الاسف اما ايرادات الحكومة فقد اخبرتكم عنها بلائحة غير هذه فقلت ان الوركى قد وصل الى النصف وان الاعشار قد خربت بيوت الاهالي وقد زادت الطين بلة مسألة القائمة التي قد نزلت بسببها وارادات العام الماضي الى النصف

هذه هي مختصر خلاصة احوال الولاية الاجالية والذين يشتكون من هذه الحالة هم الافرنج لانهم يريدون التهام البلاد بهذه الوسطة فاذا لم تنته من هذه الازمة وتخلص الاهالي من برائتها بسرعة تداخل الانكليز في احوال الاناطول بحجة الاصلاح وتداخل الافرنسيون في احوال سوريا بهذه الحجة وانخل سائد في البلاد وليس ثمة اسم للاصلاح وجرائد اوربا تكتب المقالات تلو المقالات مظهرة سوء المغبة فاذا تعرضت لاستقلالنا دولة او اكثر من دولة واقفا الرأي العام الاوربي وقام المستعمرون الذين انشأوا المدارس في بر الشام طالبين الاشتراك في اقتسام السلب وعليه فقد اخذت في الاصلاح من يوم حضوري الى هنا لايقاف هذه الحركة وقد انتهت مسألة متصرف المركز بهمة دولتكم ولكن الامور لا تتم بحلها فقط فالولاية محتاجة الى اصلاح احوالها المالية ومحامها ومنع الرشوة التي تورث الخجل وتجعل الوطني منخفض الرأس امام الاجانب وانخلاصة فان الواجب تطبيق قوانين المحاكم التي اسسها السلطان لاعادة الامن والسكينة الى قلوب الناس وما دام الحال على هذا المنوال فالدولة لا تصل الى الاصلاح المطلوب لان مجلس الوكلاء يصدر القرارات ويبيث بها الى الولايات غير ناظر الى احوال بعض الولايات الراقية واحتياجاتها فتبقى القرارات حبرا على ورق وهذا الذي حدا بالافرنج الى عدم الاعتماد على قوانين الدولة العلية فارجوكم الاسراع بالقوانين المطلوبة لان المنظمات الموجودة لا تفيد في الاحوال الحاضرة والذي يعتقد ان الحالة تستمر طويلا بلا خطر يخطى في تصويره وانا اعرف الدواء والداء وارى السكوت عجزا ولذا فقد عرضت المسألة على نظركم

سألم عن القوانين والنظامات الجديدة فاجبتكم قائلاً انها موافقة لروح العصر بيد ان اختلاف المشارب والعوائد لا يجعلها صالحة للاجراء في كل بلدة وطالما بقيت بلا تنفيذ فاذا نفذت انت بعكس المطلوب وما ذلك الا لما قلناه وقد صدرت الارادة السنية قاضية بان احور بعض مواد تلك اللوائح فشكرت جلالة السلطان على حسن عنايته ولما كانت تلك اللوائح كثيرة العدد رأيت ان مثلي لا يقدر على احصائها بيد اني رأيت من الواجب على الاشارة الى ما يصادف في سبيل تنفيذها في الولايات العثمانية من العقبات لان القانون لا يسمى قانونا الا اذا سرت احكامه على الكبير والصغير والغني والفقير وهذه نظرية يعترف بصحتها الجمهور والقوانين في بلادنا لا توافق كل الولايات فالتانون الذي يوافق ولايات حلب وسورية و بغداد لا يوافق ولايات بروسه وازمير وادرنه وانخلاصة فان في بلادنا قوانين يعدها اهل نقطة من البلاد عدلا وتكون في عرف سكان غيرها ظلما فيجب النظر الى هذه النقطة لتبديل القوانين وتطبيقها على الافراد بلا استثناء لمصادفة الهدف المطلوب ان أخذ القانون من اوربا واجرائه في بلادنا لانه افاد اهل الغرب يشبه أخذ مكنة أو آلة من الآلات المستعملة عندهم للنسيج وجلبها الى بلادنا لاستعمالها وليس عندنا فرد يقدر على ادارتها ولا الاستفادة من سرعتها ان مسألة استقلال المحاكم واصول جباية الأموال وقانون الضابطة وغيره من القوانين والنظامات قد استعملها الافرنج فافادهم تطبيقها بسبب رقي الاهالي هناك ومدنيتهم فقانون الاراضي مثلا يقضي علينا بتعيين المهندسين ومعرفة مقادير اراضي بلادنا واصحابها ووضع الضرائب اللازمة وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتعاطى من الحكومة راتبا قدره ١٥٠ غرشا فالافرنج يعينون في كل قرية لجانا ومهندسين لمعرفة مقدار الاراضي وتقدير قيمة الضرائب ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان

بلادنا فكيف نعرف مقدار الاراضي ومع هذا فقد ابتدأنا بتطبيق هذه القواعد والقوانين فنحن لانوفق اذاً الى غايتنا المقصودة

يلزمنا تدريب الرجال على اعمال المحاكم والقاء ازمة الامور اليهم بالتدريج لان بعض الجهلاء لا يعرفون القوانين وتستخدمهم الحكومة في محاكمها فيجنون على الحكومة وعلى الامة معا والوالي يصدر أوامره الى قومندان الجاندرمة فيسجن ويضرب ويجازى الاربياء ويعفو عن الجناة على ان الامور تسير على الضد في اوربا والقوة العسكرية بعيدة عن القوة الملكية فاقوة في الجاندرمة عندنا مرهوبة بناظر الحرية والوالي يأمر وينهى وقومندان الجاندرمة يطيعه وهذا الامر عجيب في باب

تسأل الضابطة في اوربا عن سبب تعدد الجرائم أما عندنا فالولاية والمتصرفون مسأولون عن الأمن

في اوربا يراجع الدفتردار نظارة المالية المسأولة عن الصادر والوارد ويراجع رجال الضبط الحربية ورجال الادارة الداخلية ورجال القضاء يخابرون نظارة الحفانية أما عندنا فالامور منوطة بالوالي

اذا كان جلالة السلطان يريد ايصال الادارة في بلاده الى مثل ما وصلت اليه اوربا فقد وصلت الاخيرة الى ما هي فيه من المنظمات والرقى بالعلوم والمعارف ثم سنت القوانين واتبعها الاهالي ونحن لانصل الى تمدن الافرنج الا بعد نشر العلوم وانشاء المدارس وترقية أحوال الشعب

أعلنا القانون الاساسي (الدستور) ووعد جلالة السلطان باعطاء سلطة تامة للولاية فاذا انشأنا الطرق والاسلاك التلغرافية والخطوط الحديدية واعطينا للولاية سلطة غير هذه السلطة وشبه استقلال وصلنا الى الاصلاح المنشود لان جعل امور الولايات مرتبطة بالمركز العمومي لاينفع الدولة في حال من الاحوال

ان احتياجات اهالي الولايات متفاوتة كما قدمت ولا أقدر على شرح احوالها ولاية ولاية بيد أني قد شاهدت في هذه الولاية مذ سنتين شيئاً واحداً وهو اختيار

احد أمرين اولها ادارة الولاية بأمر الوالي واناطة كل امورها به او اصدار الاوامر من دار السعادة وجعل الوالي غير مسأول هذا هو رأيي وعلى كل حال فالامر لكم

مدحت

٧ مايس سنة ٩٦

الى ولاية سوريه

ان حسن باشا نجل اسماعيل باشا خديوي مصر السابق قد تحرك من برنديزى ووجهته دار السعادة وقد صدر لوالده الأمر بعدم الاقامة بها بعد خلعه وهو يعنى نفسه ببعض امور لان الدولة العلية هي صاحبة السلطة على مصر والسياسة تقضى بايصال الضرر الى الدولة العلية اذا استمر الوالد وولده على اعمالهم وحاولوا الوصول الى ضالتهن المنشودة وقد قرر مجلس الوكلاء باتفاق الآراء عدم التصريح لاسماعيل باشا ولا لانجاله بالاقامة في دار السعادة ولا في الولايات وعرض الامر على جلالة السلطان فقال بوجود عرض الامر على وزراء الدولة المعزولين لاخذ رأيهم فاعرضوا رأيكم بالتغرف واقتم على هذا القرار او لم توافقوا واشرحوا المسألة شرحا مسبا وارسلوه بواسطة البريد كما اقتضت ذلك ارادة جلالة الخليفة المعظم

باشكاتب المابين

٣٠ كانون أول سنة ٩٥

على فؤاد

الى باشكتابه المابين

قد خدمت الدولة اكثر من اربعين سنة ووصلت الى سن الشيخوخة فلم يبق لي جلد على مواصلة العمل فارجو اعفائي من خدمة ولاية سوريه واصدار الامر لي بالاقامة بمنزلي الكائن في دار السعادة او في جزيرة مدلى واذا لم يوافق ذلك فمروا باقامتي في احد سواحل سوريا مع عائلتي لاقضى ما بقي من ايام عمري بالدعاء لجلالة الخليفة وقد لجأت الى لطف جلالة السلطان وعنايته لاجابة سؤالي

مدحت

٧ تشرين أول سنة ٩٥

الى الصدر الاعظم

قد وصلت الى سن لا يمكنني من القيام باعباء وظيفتي وكنت قد عولت على

الاستعفاء في المستقبل بيد ان تعيين محمود نديم باشا لنظارة الداخلية قد اضطرني الى تعجيل استعفائي وهذا هو السر في تقديمه في اليوم الذي وجه اليكم فيه مسند الصدارة فاشفقوا لي لدى المتبوع الاعظم واعملوا جهدكم خلاصي واصدار الامر لي بالاقامة في احدى البلدان مع عائلتي لاقضى بقية ايام حياتي بلا احتياج الى الغير
٧ تشرين اول سنة ٩٥
مدحت

جواب السلطان الوارد من الباشكتابه

عرضت لتلغراف استغاثتكم على جلالة السلطان ولما كانت اجراءاتكم الاصلاحية قد ظهرت ظهور الشمس واقربها السريارد عند عودته من سوريه وكتب لكم جلالة السلطان تلغرافاً اظهر به رضاه وكان عازماً على تحرير مكتوب سؤلكم عما تلاقوه في سبيل الاصلاح من الموانع لازالتها فتأسف لورود تلغراف الاستعفاء

تقولون في تلغرافكم ان وصولكم الى سن الشيخوخة يقضي عليكم باعتزال الاعمال والشيوخ المجربون هم الذين يخدمون الحكومات باعمالهم وتجاربهم وقد حنكتهم التجارب وعجمتم عود الايام باعمالكم فلا يجب عليكم ترك الخدمة في مثل هذه الظروف واذا صادفتم في طريق الاصلاح مانعاً فاخبروا المايين عنه بتلغراف الارقام كما اقتضت ذلك ارادة جلالة السلطان
عبدكم
١٠ تشرين اول سنة ٩٥
على فؤاد

جواب الى المايين الهايوني

اخذت جوابكم رقيم ١٠ تشرين اول فانا اشكر نعم جلالة السلطان وما اضطرني الى الاستعفاء سوى ضعف صحي واحوال الولاية التي انا مسؤول عنها لان احوال هذه الولاية قد وصلت الى ما لا يمكن رتقه من الفساد فظهرت الاساكل بمظهر مستعمرات اجنبية اما البلاد الداخلية فقد اختل نظامها بعد المسألة الحربية ولا سبيل الى اعادة السعادة الى تلك الربوع الا باصلاح احوال الاهالي وهذا لا يتم الا بالاعمال الملائمة لطباعهم اما نحن فنعمل هنا اعمالنا في ولايات

قونيه وادرنه وارضروم وهي اعمال توسع شقة الخلاف بين الالهالى وبين الحكومة
وتحدو بهم الى حب الاجانب فيكون الوالى مسؤولاً عن تبعة اغلاط غيره وهذه
الحالة لا تدوم سنة او نصف سنة ولذا فقد عرضت استعفاًى وانا لا انظر الى صحتي
بل اخدم جلالة السلطان بكل افتخار غير ناظر الى غير رضاء جلالته اما اصلاح
احوال هذه الولاية فيتوقف على تعيين احد الولاة المقتدرين واعطائه سلطة مطلقة
وجعل القوة العسكرية تحت امره كما فعلتم معي في بغداد وهناك يتم الاصلاح
المطلوب وقد حررت لكم ذلك لعرضه على العتبة العليا وافادتي عن رأي مولاي
الاعظم

مدحت

١١ تشرين اول سنة ٩٥

الجواب التلغرافي

عرضت مكتوبكم الوارد على جلالة السلطان فامتن جلالته خصوصاً عند
قراءة عبارتكم المسطورة وهي عزمكم على افناء عمركم في خدمة جلالته ولذا فقد
امرني بتبليغكم سلام جلالته وبعد ثلاثة ايام تعطى لكم السلطة اللازمة وسيرسل
اليكم ايضاً احد رجال المايين ليبلغكم بعض ارادات جلالته وقد اصدر اليّ
الارادة السنية بما كتبته

عبدكم

على فؤاد

١٢ تشرين اول سنة ٩٥

الجواب التلغرافي الوارد من الصدر الاعظم

الى مدحت باشا

قرأنا في مجلس الوكلاء (النظار) تلغرافكم المرسلين الى نظارة الداخلية
بتاريخ ١ تشرين اول سنة ٩٥ وحبذنا ما اجرىتموه من الاعمال لتسكين ثورة
حوران وكتبنا الى السر عسكر لتلبية طلباتكم المختصة بالرديف فاخبرونا عن مسيبي
هذه المسألة وابقوا عساكر الرديف تحت السلاح الى يوم اعادة الامن الى نصابه
الصدر الاعظم

سعيد

٣ تشرين اول سنة ٩٥

الجواب التلغرافي

وصل تلغرافكم رقم ٣ تشرين اول وبه تسألون عن سبب اتساع مسألة حوران وفات علمكم ان اهالى جبل الدروز قد اعتادوا العصيان من زمن حكم المصريين وشقوا عصا الطاعة فلم يعطوا الدولة ضرائب ولا عسكرياً وقد كثرت وقائع القتل والسرقه في هذه الجهات بسبب عصيان هذه القبائل وعدم وضع بلادهم تحت الاحكام القانونية وهم الذين قد صادروا بوسطة الانكليز في العام الماضي وقتلوا افراد احدى القوافل في هذا العام وقد وجدت الحيوانات المسلوبه في جبل الدروز ولم يلق الفاعلون جزاء ما جنته ايديهم

امتنع الدروز عن تأدية الضرائب والتجند فاصبحت بلادهم ملجأ للاشقياء وصارت مقراً للعصاة منذ ست سنين فكثرت جموعهم وضاق بهم البلاد فاستولوا على بعض القرى المجاورة لحوران وبلغ عدد ما استولوا عليه اليوم ١٧ قرية وهم يستولون لليوم على القرى الباقية في قبضة الحكومة واحدة بعد واحدة فيثور تأثرهم لكل حركة صغيرة واهالى حوران يعرفون ذلك ولذا فانهم قد جمعوا لهم الجموع وتأهبوا لقتالهم في هذه المرة وقد ارسلنا لهم النصحاء فانصاعوا لاوامرهم متقادين اما الدروز فقد اصروا على طلب مجازاة الجناة فارسلنا اليهم من يصلح ذات بينهم هذا ما وصل الى علمنا فسلوا دولة المشير عن التفصيلات

عبدكم

مدحت

٦ تشرين اول سنة ٩٥

التذكرة التي كتبها مدحت باشا الى احمد ايوب باشا مشير الفيلق الخامس

دوتلو افندم حضرتلرى

قرأت في هذه الدقيقة تحريركم وعلمت ان الدروز يحاولون الصلح من جهة ويسعون من الجهة الثانية في قطع الماء عن العساكر وهذه المسألة قد وصلت الى درجة توجب التفكير والتشاور وقد اشرتم في تحريركم الى مسائل يجب الجواب عليها وهي انكم تقولون اننا لا نعرف سبب حدوث الحادثة وقد كتبت لكم بتاريخ ٢٦ ايلول و١ تشرين اول سنة ٩٥ بعض مكاتيب ذكرت لكم فيها

ان سبب الثورة هو احدى الفقيات فقد ظهرت مشاجرة بسببها فتشاجر اهالى
 بصر الحريري مع احد الدروز فقام سكان احدى القرى المسكونة بالدروز لنصرة
 اخوانهم وقتلوا عدداً من اهالى بصر الحريري وكثر النزاع بين الفريقين فاجتمع
 الدروز ووصلت المسألة الى ما وصلت اليه فتجهر الحورانيون والدروز فسبب المسألة
 معلوم ولكني لا أعرف اسم اهل القرية التي قد بدأت بهذه الاعمال الدموية
 اذ لا لزوم لمعرفةهم لان المسألة قد احدثها جماعات لا افراد
 تقولون في مکتوبكم ايضا ان اهالي حوران قد قبلوا تأدية الدية والحكومة
 قد ارسات بعض موظفيها ليتفقوا مع مشايخ المتخاصمين وفي المسألة وجهين أحدهما
 يعد من الامور الشخصية والوجه الثاني هو ما يتعلق بالحقوق النظامية فاذا تصالح
 الخصوم انتهت مهمة العساكر ووضعت المسألة على بساط البحث بين ايدي موظفي
 الملكية وعندي ان ترك المسألة في تيار مجراها الطبيعي لا ينتج سوى اضاءة الوقت
 فيجب البحث عن اسباب الثورة ومنشأها واطهار الفاعلين والجناة واصدار الاوامر
 للقواد والعساكر باجراء ما يلزم اجراؤه لان الناظر الى الحادثة يتضح له انها حدثت
 بين طائفتين من رعايا الدولة العلية قد لجأ كل فريق منهم الى السلاح واراد قتل
 خصمه وقد حصل ذلك بالقرب من الفيلق الهياوني فلا يجب عليه ان يقف كالمترجم
 بل يتحتم عليه مقابلة الجناة بالقوة والبحث عن حقوق المحق واعادتها اليه وقد ظهرت
 المسألة بشكل اعتيادي ثم كبرت فلم تكن قوة الجاندرمة كافية لكبح جماح الثائرين
 فكتبت لكم تذكرة اشرت عليكم فيها بجمع قوة من الجنود وجلب المدد من
 بيروت ثم اجراء ما يلزم من الاصلاحات بعد اعمال القوة وعليه فأخذ الدية ومداخلة
 موظفي الحكومة لايحوزان الا اذا فرضا ان القوة العسكرية عاجزة عن العمل
 ولا يخفاكم ان اهالي حوران قد نالهم الظلم في هذه المسألة وهم لا يطلبون
 سوى محاكمة الذين قتلوا بعض افرادهم وهو طلب لا يأتيه الشك ولا يعنونه
 الاعتراض فاذا كانت قوة الحكومة غير قادرة على جلب خصومهم فسيجلبونهم
 بقوة السلاح كما اظهروا ذلك وقد اجتمعوا لهذه الغاية فاذا اصطالح الخصمان ودفع

الدروز الدية وجب علينا السكوت مؤقتا وعدم الاغضاء عن ضبط الجناة ومجازاتهم في المستقبل واذا كان طلب الصلح قد وقع من الحكومة فما الفائدة من وجود القوة المسلحة والعساكر والفيالق هناك وهل يصبح الدروز في المستقبل عصاة جناة بفاة اذا اغمضنا الطرف عن افعالهم نعم سيكون اهالي حوران تحت رحمة الدروز اذا صرفنا النظر عن المسألة وتركناها في مجراها الطبيعي

وقد ارسلنا عددا من رجال الدولة لاصلاح الفاسد ولما كبر الامر ارسلنا جميل باشا واعدناهم وقد شفي سليم بك من مرضه وتوجه الى المعسكر فيجب اصدار الامر الى القوى الموجودة هناك لاتباع أمر القومندان

مدحت

١٢ تشرين اول سنة ٩٥

التلغراف الوارد من الصدر الاعظم

الى مدحت باشا

يحضرنى سفير انكلترا تارة وطورا يتوجه الى نظارة الخارجية بسبب ما اتخذتموه من الاحتياطات لتأديب الدروز . ان فرنسا تعاون الموارنة وانكلترا تساعد الدروز فالانكليز لا يسرون بما تتخذ من التدابير لتأديبهم وقد وصلت حالة الموارنة الى ما لا تمد عقباه بسبب عذرهم ولذا فان قنصل فرنسا يسأل عن حركات العساكر وسكناتهم وحركات الدروز توجب الجزاء واذا لم يجازوا وترك جيلهم على غاربهم اثج تركهم احتقار الحكومة بيد ان تماديبهم في العصيان يرجع الى وقت بعيد ولم يحن وقت تأديبهم وقد اضطرت الحكومة في هذه الايام الى استعمال القوة لارهابهم ولو كانت القوة كافية فان غرضنا الوحيد هو تحييب ادارة الدولة الى الدروز والموارنة واستعمال القوة لا يوصل الى تلك النتيجة وانتم لتجهلون هذه الحقيقة ونحن نرى ان ترك المسألة الى زمانها الموافق اليق ونحبذ الاصلاح بين المتخاصمين

وقد قلم في محرراتكم ان اهالي حوران قد قبلوا اعطاء مبلغ معلوم ومالوا الى الصلح والحكومة ترى من واجباتها الاصلاح بين المتخاصمين ولا تتأخر عن دفع الدية من خزيتها منعا للقال والقبل وبمخلصا من اصرار بعض الدول

والخلاصة فقد امرنا السرعسكر بارسال ما يلزم من القوة اللازمة اتباعاً لامركم
 بيد أنا ننتظر بكل سرعة حسم المسألة بالسلم وذلك ان ترسلوا عدداً من المسموعي
 الكلمة عند المتحاربين وتوجهوا أنتم اذا اقتضت الحالة لاتمام المسألة بلا حرب
 ولا اراقة دم ونحن في الانتظار
 الباش وكيل
 ١٣ تشرين اول سنة ٩٥
 سعيد

الجواب المرسل الى الصدر الاعظم

قلت لكم قبل اليوم ان مسألة حوران قد تسببت عن منازعة بسبب فتاة ثم
 كبرت فبلغ عدد المتجمعين اربعة آلاف شاكي السلاح وكثر القتل ولم يبق ثمة
 وجه للنظر الى المسألة من بعيد فارسلنا الموظفين ورجال الضابطة اولاً ثم ارسلنا
 الجنود للتفريق بين المتخاصمين فقال الحورانيون ان الدروز قد قتلوا منهم عدداً غير
 قليل ويجب على الحكومة مجازاة الجناة واذا لم تجازم اخذوا ثأرهم بيدهم لانهم
 اكثر عدداً منهم واصروا على قولهم اما الدروز فقد امتنعوا عن تسليم الجناة ولجأوا
 الى القوة ومنعوا الماء عن الجيش واستولوا على بعض القرى وقتلوا اربعة من
 النفوس فارسلنا لهم غير مرة طالين تسليم الجناة فابوا ثم وافقوا على اعطاء مقدار
 من النقود فلم يقبل ذلك الحورانيون

والسياسة لا تقضي بترك الحورانيين اسارى في يد الدروز ومع هذا فستكون
 النتيجة خضوع جهة حوران وتوابعها للدروز ولا سبيل الى الخلاص من ذلك الا
 باستعمال القوة العسكرية التي قد ابتدأنا باستعمالها مع الشكر

١٤ تشرين اول سنة ٩٥
 مدحت

الجواب التلفزيوني

انكم متحدون معي في الرأي لاصلاح المسألة الدرزية وقد اشرت الى وجوب
 سرعة حل هذه المسألة وارسال بعض ذوي النفوذ للاصلاح بين المتخاصمين وتوجهكم
 اذا اقتضت الحالة وقد قتل الدروز احد الضباط فقابلهم العساكر بالمثل وكان يجب
 عليهم عدم الاسراع الى مقابلة القوة بالقوة

وستتحرك في هذا اليوم او بعده وابور (موردنصرت) وعليه خمسة طواير
للتوجه الى بيروت كما افاد السر عسكر وقد اشعرتكم بذلك

الباش وكيل

سعيد

١٢ تشرين اول

الجواب التلغرافي

ان القصد من ارسال القوة العسكرية الى حوران هو تشتيت شمل المتخاصمين
فقد تجمهر منهم نحو العشرة آلاف وحاول كل فريق الفتك بخصمه ولا سبيل الى
الوقوف والنظر اليهم من بعيد وقد جازت الحكومة موظفيها سنة ٧٦ لانهم تركوا
حبل الثوار على غاربهم ولم يمنعوهم عن اراقة الدماء ونحن لا نريد سوى منع اراقة
الدماء واغاثة المظلومين باعادة حقوقهم المقتضية فاذا وصل رجال الحل والعقد الى
غايتهم ظفرونا ببعض المطلوب لاننا لم نعامل رؤساء الدروز بغير الرفق واللين فقد
كان بعضهم في الشام يوم ظهور الحادث فارسلناهم بوظيفة الى بلادهم وبذلنا لهم
انواع العز والاكرام فانجازوا الى اخوانهم واجروا انواع الخيانة وضروب الغدر فلم
تقابلهم بالقوة بل استعملنا اللين لايقافهم عند حدهم وارسلنا رستم باشا للقيام بهذه
المهمة فلم يرجعوا عن غيهم بل اعلنوا ضد الفيلق حرباً شعواء فقابلتهم قوة مؤلفة
من ثلاثة بلكات فاصلاهم الدروز ناراً حامية فقتل اثنان من افراد الجاندرمه
وجرح احد الضباط فأرسل القومندان جميل باشا بلوكين فصوب الدروز مراعى
بنادقهم وقتلوا منهم يوز باشيا وخمسة عشر من العساكر وامتدت الحرب الى نصف
الليل فرجع العساكر ادراجهم وجمع المشير عدداً غير قليل من الجنود وارسلت
الحكومة هونو باشا مع احد اعضاء مجلس الادارة وعلى كل حال فانتهاء المسألة
متوقف على تشتيت شمل جماعة الدروز الموجودة بحوران بالقوة وهذا لا يتم الا
بارسال الجنود الموعود بارسالهم من دار السعادة

مدحت

١٧ تشرين اول سنة ٩٥

تلفراف الصدر الاعظم

قرأنا التلغراف الوارد من دولتكم المختص بمسألة الدروز وقرأنا ايضاً تلفراف
السر عسكر في مجلس الوكلاء وقد اصدرنا الاوامر للسر عسكر بارسال القوة اللازمة
واظهرنا لدولتكم لزوم اتمام المسألة بلا حرب واشرنا بوجوب توجيهكم الى محل
الواقعة والمسألة معلومة فنرجوكم اللطف والاسراع الى محل الفيلق لعقد الصلح
وهذا لا يبعد على همتمكم

الباش وكيل

سعيد

٢٢ تشرين اول سنة ٩٥

الجواب التلغرافي

هذا هو جواب تلغرافكم السامي رقم ٢٢ تشرين اول سنة ٩٥ اذا كان
جلالة السلطان يريد حسم مسألة الدروز بلا حرب فاتركوا لي هذا الامر واصبروا
خسة ايام وانا اعدكم باتمام المسألة بلا سلاح ولا اراقة دم

مدحت

٢٣ تشرين اول سنة ٩٥

التلغراف المرسل الى باشكتابه المايين

قد انتهت المسألة الدرزية في ظل جلالة السلطان المعظم لان جماعة من
مشايخهم قد حضروا بالامس الى مركز الولاية وقدموا عرائض اظهروا بها الخضوع
للحكومة وسلموا اربعة من مسبي حادثة بصر الحريري فسجنناهم لتسليمهم الى المحكمة
ولم يسلم الدروز جناتهم قبل اليوم الى الحكومة فتسليم هؤلاء الاربعة يعد فالاحسنا
وسنبذل الجهد للشروع في الاصلاح اللازم وقد استغفينا عن القوة العسكرية وكتبنا
بذلك الى دولة المشير

مدحت

٢٩ تشرين اول سنة ٩٥

التلغراف المرسل الى باشكاتب المايين

قدمت من مدة تلغرافا الى جلالة مولاي المعظم طلبت به اقالتي من وظيفتي
فجاءني الجواب بالسلب وامتلأت لان مسألة ثورة الدروز اضطرتني الى البقاء وقد
انقضت هذه المسألة والحمد لله ولم يبق في الولاية ما يكدر صفاء الامن فارجو من

جلالة السلطان اعفائي من هذه الوظيفة التي لا يمكن بقائى فيها لاسباب غير مجهولة
واتجاسر برجاء تلبية طلبى

مدحت

١٨ مايس سنة ٩٦

التغراف الوارد من باشكتابة المايين

عرض تغرافكم رقم ١٨ مايس سنة ٩٥ على النظر العالي ولا يخفاكم ان
مكاتباتكم ترد بواسطة الباب العالي وتعرض على جلالة السلطان وكان جلالتيه
عازماً الى ارسال احد رجاله الامناء لتبليغكم بعض اراداته فلم يوفق الى ايجاد رجل
حائز لهذه الصفات وهذا الذي أخر ارسال الرجل الذي سبق الوعد بارساله الى
هذا اليوم

وقد بنيتم استعفاءكم على اسباب غير مجهولة وكنتم قبل اليوم قد بنيتم
الاستعفاء على سببين احدهما وصولكم الى سن الكهول والثانى تقييد حركاتكم
وتحديد سلطتكم في الولاية اما عن الاول فالهرم لا يمنع الخدمة واما عن الثانى فقد
احضرت الحكومة لأئحة لتوسيع سلطة الولاة وستنشرها في القريب العاجل فيزول
هذا السبب ايضاً وهذه هي خلاصة الارادة السنية الصادرة من جلالة الخاقان

عبدكم

الاعظم

على فؤاد

١٩ مايس سنة ١٢٩٦

الجواب التغرافي

ان استعفاي مسبب عن امور غير المذكورة في تغرافكم فالمشاكل التي حدثت
بسبب النظمات والقوانين الجديدة والهجو والتحقير الموجهان ضدي قد سببا لي
الاضطرار الى تقديم الاستعفاء وقد قلت في احد تغرافاتي السابقة انى مستعد
لافناء ايام حياتي في خدمة جلالة السلطان وليس للعمر عندي قيمة بيد ان لشرفي
قيمة لا تقدر

ان الهجاء الموجهة الى مجهول الاسباب وقد يكون الذمامون مصيبين بيد ان
هجومهم يؤثر في وظيفتي وفي مركزي الرسمي وينتج نتائج وخيمة العواقب وقد خدمت

الدولة اكثر من ٤٥ سنة وحافظت على شرفي اكثر من محافظتي على صحتي ولا اريد اليوم ان يداس هذا الشرف ولذا فاني قررت ترك كل مطلب والعيش منفرداً واجابة هذا الطلب لا تكبر على لطف جلالة ولي النعم الاعظم

٢١ مايس سنة ١٢٩٦ مدهت

التلغراف الوارد من باشكاتب المايين الهايوني جواباً عن السابق عرضت تلغرافكم رقيم ٢١ مايس سنة ٩٦ على جلالة المتبوع الاعظم وكلنا عالم بما يبذله جلالة ولي النعم من العناية للمحافظة على الشرف والعرض وذاتكم الخديوية لا تجهل ذلك بالطبع بل تعترف به وتقر بصحته

وقد خدمتم الدولة العلية مدة طويلة ونتم رتبة الوزارة ولذا فان جلالة المتبوع الاعظم يتكفل لكم بحفظ شرفكم من اليوم

واذا كانت القوانين التي تلاقون المصاعب في أمر تنفيذها هي قوانين العدلية فهذه القوانين موجودة في كل ولاية وتنفيذها موقوف على وجود الرجال الاكفاء لاناطة أمر تنفيذها بهم وقد ابان ذلك السر ليلارد في لائحته وهي لازمة في كل بلدة وقد اعترف بلزوم وجودها احد العطاء أمس في القصر الهايوني

ولا يخفى على همتكم ان اول ما يلزم اجراؤه من الاصلاحات هو نشر المحاكم وقوانينها التي نصادف العقبات لتنفيذها في كل انحاء المملكة

وقد قضيتم زمناً في خدمة الدولة في وظائف العدلية والملكية ووقفتم على اسرار ادارة الامور وخبرتم اخلاق الاهالي فاكتبوا لائحته واشروا ما يلزم ادخاله من التحوير والتبديل في لوائح الدولة ونظاماتها الجديدة وارسلوها مع من تعتمدون عليه الى المايين الهايوني ولما كان جل مقصدكم خدمة الدولة بصدق فيجب عليكم عدم الاصغاء الى

القبيل والقال لان جلالة المتبوع الاعظم يقدر خدماتكم قدرها وقد امرني بتبليغ سلامه الشاهاني اليكم فبشركم بذلك وعلى كل حال فالامر لكم افندم

٢٣ مايس سنة ٩٦ العبد

علي فؤاد

الجواب التلغرافي

قرأت تلغرافكم رقيم ٢٣ مايس سنة ٩٦ ولذا فأنا اقدم فرائض الشكر الى
العبه السنية لسبب النعمة التي وجهها اليّ جلالة السلطان بتبليغ سلامه
أما بقية المباحث فأقول: اني لا اقول بوجود سن قوانين وانشاء محاكم فقط
فطالما ناديت بمليء في طالبا سن القوانين وانشاء المحاكم وانتم لا تجهلون كل ذلك
غير ان الفرمان الذي كتب لي عند توجيه منصب ولاية سوريه يعترف صراحة
بوجود ما طلبته وسأطلبه وهو مراعاة عوائد سكان الولاية ومشاربهم ومصالحهم
ولكننا لم ننظر الى هذه الواجبات بل اصدرنا اللوائح وحاولنا اجراءها في جميع
البلدان ولم نصلح بعضها اصلاً جزئياً بل لم نسمع بعض الشكايات وقد اتبعنا
مواد القوانين في بعض البلاد ولم ننفذها في بعضها وتركنا القديم ولم تتبع الجديد
فظهرت البلاد بمظهر غريب وزاد الطنبور نعمة هذا الخلاف القائم بين دوائر
الحكومة الملكية والعسكرية فاذا طلب الوالي مقداراً من العساكر لاعادة الأمن
الى نصابه في ولاية مثل سوريا رفض القومندان واذا ارسل مقداراً من الجنود الى
بلدة واراد اعادتها امتنعت عن العودة واذا كتب الى القائد عن أمر تأخر الجواب
فاذا كان هذا الفعل الشخصي فكيف تصبر البلاد على تديجته الوخيمة واذا أقام
الوالي ببلدة ولم ير المشير مرة في ستة اشهر فما يكون حال هذه البلدة وقد قلت
عدد عساكر الجاندرمة فضعفت قوتها ونزلت مرتبات موظفي الحكومة فاستعانوا
بالرشوة والنهب والسلب واتبع رجال المحاكم خطة غير مرضية فاصبح الامن مهدد
الاركان في طول البلاد وعرضها ومع كل هذا فالتلغرافات الواردة يومياً تلقي تبعة
ما يحدث على عاتق الولاة وهذا ما يحدو بالانساب الى عدم التحمل وقد ارسلت
احد عبيدكم بلائحة وسأنتظر اني عودته اتباعاً لاوامر جلالة ولي النعم لاني اعد
ان الذمة تحتم علي كل ذلك

الى الصدر الاعظم

نشرت جريدة (ترجمان حقيقت) في عددها الصادر بتاريخ (٥) كانون اول سنة ٩٦ خبر فحواه ان الجريدة التي تصدر ضد الدولة العلية في اتينا (عاصمة اليونان) قد نشرها اسعد افندي الذي كان منفيًا في الشام ثم فر الى بلاد اليونان وادعت انى ساعدته مساعدة مادية وادبية ونشرت هذا الخبر ايضاً بعض الجرائد الافرنسية والانكليزية في هذا الاسبوع

اما احوال صاحب ترجمان حقيقت السافل فمعلومة والذين يرون اسعد افندي في الشام الى يومنا يشهدون بان ما اشيع هو محض افتراء وزور وبهتان وانا لا افوه بنت شفة واذا وجب علي ان افعل شيئاً فالحاكم مفتوحة الابواب ومحكمة الرجل غير جائزة في نظري

وهذه الاذاعات الكاذبة لا تمس شخصي وحده بل تؤثر في سمعة الدولة فاني اتولى اليوم امور ولاية من اكبر ولاياتها واذا عاوتت جرائد اليونان معاونة مادية وحرصتها على الكتابة ضد حكومتي اثبت ذلك شيئاً واحداً وهو ان الدولة تضع ثقتها حيث لا يجب وضعها فهذه المقالات تؤثر في شرف الدولة خصوصاً بعد ان نشرتها جرائد عاصمة السلطنة تحت ذقن الباب العالي وقد رأيت من الواجب علي الاستقالة من وظيفتي حفظاً لشرف الدولة وحررت لكم ذلك من باب الاخبار بالشيء

مدحت

٢٥ كانون اول سنة ٩٦

محررات مختلفة

صورة المذكرة التي ارسلها مدحت باشا الى عائلته من سجن ازمير وهي تتعلق بأراضي جهة ماصلاق :

الى السيدة حليلى

في داخل الحقيبة السوداء ورقة في ظرف ازرق وهي مختصة بالجلوس الهايوني

ويجب تسليمها الى وارث العرش في المستقبل فارسلوها الى صاحب العنوان الآتي:

موسيو مويره بلنדרه

ايست انديا آونيو نمرة ٦

وإذا كان الشخص غير موجود فمزقوها لمنع وصول ايادي عونة عبد الحميد اليها

مدحت

صورة التقرير الذي قدمه مدحت باشا الى عبد الحميد

ان غرضنا من اعلان الدستور ازالة الاستبداد وارشادكم الى وظائفكم وتحديد وظائف وكلاء الدولة وايجاد المساواة الكاملة بين افراد سكان الولايات العثمانية والسعي في اعلاء شأن الدولة بالاتحاد

ستكون الخطوط الهايونية التي صدرت منذ ٣٠ سنة مرعية الاجراء كالمخطوط التي تصدرونها اليوم لأن غرضنا من اعلان القانون الاساسي لا يقتصر على حل المسألة الشرقية وذر الرماد في عيون الافرنج واسكاتهم بل المقصد الوحيد هو ان تعرفوا وظيفتكم المنوطة بكم أولاً لانكم مسئولون عن حركاتكم وسكناتكم امام الامة وليكن عمال الحكومة آمنين ليخلصوا الدولة مما وقعت فيه من اشراك التذني التي ولدها الدهان اني احترمكم غاية الاحترام غير اني لا أطيعكم اذا خالفتم الشرع واقترقم ما من شأنه الاضرار بأمتنا لان التبعة التي قد وضعت فوق عاتقي كبيرة وأنا أخاف ضميري وقد تعهدت امام قلبي بخلاص الوطن وسلامته واخاف ان تسألني الحكومة في المستقبل عن هذه الافكار وتلك الافعال فلا تدخلن قلبكم الشبهة من كلماتي الصحيحة التي سأذكرها وما الحيلة فاني أخشى تعذيب ضميري والوقوع تحت طائلة توبيخ الامة فهذه المحاوف هي التي تحدوني الى الاقدام على تصديق ذاتكم الملوكية

مولاي يجب أن يكون العثمانيون قادرين على اصلاح أنفسهم بأنفسهم فهل تعرف ما هو النظام الذي تطلبه الامة المحكومة بالشورى؟ أنا لا أحتاج الى التفصيل. ثقوا بعبدكم وثقوا أيضاً برجال الدولة.

مولاي : اني تحت حمل ثقيل وسأجرى وظيفتي كهتائي واذا كان الموظف يتبع صوت ضميره لاجراء وظيفته فالوزير أيضاً يجب أن يكون مسئولاً امام ضميره وامام الامة وانا افتخر واظن اني لم أفعل ما يوبخني عليه ضميري واطلب من الامة ان تبحث عن غلطاتي وتعدها علي وافتخر بهذا الحال

مولاي : مضت تسعة ايام على معروضاتي التي لم تسمعفوني بانجازها فانتم تردون النظمات المستعجلة التي تشابه آلات العمال والعمل لا يتم بلا آلة

أقدر ان أقول ان البلاد كالبناء الذي قوضته الزلازل ونحن نريد تعميمه وانتم تحاولون هدمه فاذا كنتم تريدون عزلي لهذه الاسباب فأرجوكم تسليم زمام الامور الى يد رجل قادر على تخليص الحكومة من ورطتها الحاضرة من الذين يوافقون مزاج جلاتكم

عبدكم

مدحت

في ١٨ كانون ثاني سنة ١٢٩٣

ما أجراه مدحت باشا من الاصلاحات في ولاية نيش

لما أرسل القبرصلي محمد باشا مدحت باشا الى ولاية نيش تقول الناس اقوالا كثيرة فمن قائل ان الرجل قد عرف غلطاته السابقة واراد تبرئة نفسه امام الامة واظهار صدق نيته للرأي العام ومن قائل ان ثورة البلغار في تلك الأنحاء ستفضي الى نتائج وخيمة وستكون تبعه هذه النتائج ملقاة على عاتق مدحت باشا ولذا فان خصمه قد ارسله للتنكيل به والحقيقة هي غير ما يقولون فان محمد باشا القبرصلي قد اشتهر بصدقه وجده واستقامته بيد انه كان يسمع نمام التمامين وقد خدعوه اذ وشوا بمدحت باشا فكفر عن ذنبه بعد ان علم بكذب مقترياتهم

وعلى كل حال فقد توكل مدحت باشا على الخالق وتوجه الى مقر وظيفته الجديدة ورأى الولاية في حال يرثي لها العدو قبل الصديق رأى عدداً كافياً من الجنود مقيماً في جهات مختلفة من الولاية واقامته لا تفيد البلاد لان الامن مههدد والبلغاريون يهاجرون زرافات ووحداً والمسلمون يسامون الخسف وليس ثمة من يدافع عنهم فعزم على اعادة الامن الى نصابه لا باستعمال القوة بل بازالة الاسباب

التي قد ولدت هذه المصائب فدعا اليه رؤساء البلغاريين والمسلمين وسألهم عن أسباب تهقر البلاد فقالوا له انا محرومون من طرق المواصلات فمحصول اراضينا يبقى في القرى الى ابد الأبدين واخبروه أيضاً ان البلاد مملوءة بعصابات اللصوص وقطاع الطريق وهذا الذي اوقف حركة البلاد التجارية ورمى الاهالي في مآزق الفقر المدقع فلم يقدر الجباة على تحصيل أموال الحكومة منذ سنوات فأصبح أرباب الشغالك مدينين للحكومة بعشر ملايين من القروش واستولى عليهم اليأس وقد امتلات بلاد الصرب بالطرق وضرب فيها الامن اطنا به فاضطر البلغاريون الى ترك بلادهم والتوجه الى بلاد الصرب اما الحكومة فلم تبحث عن الاسباب بل وضعت على حدود القرى البلغارية عدداً من عساكرها لمنع البلغاريين عن الهجرة فكانوا يدخلون بيوت القرويين فيضطرونهم الى النزوح عن اوطانهم باعمالهم الاستبدادية

علم مدحت باشا بكل ذلك فدعا اليه رؤساء القرويين ووعدهم باتمام الاصلاح المطلوب في سنتين واعفائهم من الضرائب المتركمة على شرط ان يفعلوا ما يأمرهم به فتلقوا أقواله بالقبول ثم أعاد العساكر الموجودة في القرى البلغارية الى بلادها وقطع مرتباتها وشرع في انشاء الطريق الموصل بين نيش وصوفيه بعد ايام قلائل وارسل العساكر اللازمة فقبضت على الاشقياء وسلمتهم الى المجلس الموقت فحكم عليهم ونفذ قرارات القومسيون الذي قد اناط به محمد باشا القبرصلي أمر تدقيق حسابات البلغاريين مع أصحاب الشغالك فتولد الامل بعد اليأس في قلوب الاهالي بعيد هذه الاعمال ثم أعلن اعلاناً رسمياً بين الاهالي فخواه ان الذي يريد الهجرة الى بلاد الصرب يجب عليه عدم الفرار لان الحكومة لا تمنعه عن الذهاب الى حيث شاء فلم يتوجه احد الى صربيا بعد هذا الاعلان ولم تمض السنة الاولى حتى كثرت طرق المواصلة في طول الولاية وعرضها وكان الحمل الصغير لا ينتقل من بلد الى بلد الا بشق النفس فأصبحت الاثقال تنقل بواسطة العربات بكل سهولة بفضل هذه الطرق

ولما رأى البلغاريون فائدة الطرق النقلية طلبوا الى مدحت باشا الاكثر منها
 قدم في السنة الثانية الطريق الموصل بين نيش وقومانوه وهو يمتد (٢٤) ساعة
 والطريق الثاني وهو من نيش الى صوفية وطوله (٣٠) ساعة والثالث وهو من صوفيا
 الى دونيجه وطوله (١٨) ساعة وآخر من شهر كوى الى اسوتى فيقوله فقضاء لوم
 وطوله (٢٤) ساعة هذا عدا الكباري التي تخترق الانهر الصغيرة والكبيرة والتي قد
 انشئ منها ثلاث كبار فوق نهر (موراوه) وانشأ مدحت باشا الحافر لحراسة الطرق
 في الاماكن اللازمة وخصوصاً على حدود الصرب ولما تمت الطرق وسهلت
 المواصلات بدأ الاهالي بقفل بضاعتهم الى سلانك ومناسير وغيرها وكثر الاخذ
 والعطاء وعاد الذين هاجروا الى بلاد الصرب من هجرتهم وكان الرأخ والغادي
 يخترق بلاد الصرب للذهاب والاياب فأخذ الناس يخترقون هذه الولاية لسهولة
 المواصلات واستتباب الامن

عادت الى البلاد روح العمران بتسكيل الاشقياء وانشاء الطرقات وكانت ثلة
 من العساكر تقيم بجهة نيش وليس لافرادها مأوى فكانوا يسكنون البيوت ويزعمون
 السكان فبنى مدحت باشا ثكنة لهؤلاء العساكر خارج البلدة باعانة الاهالي واتمها
 في ستة أشهر ورأى السجن متداعياً الى السقوط فبنى سجنًا جديدًا وأسس شركة
 عربات لنقل البريد والسياح فبدأت أعمالها وكان نهر نيشاوه يفيض في كل سنة
 ويفرق قسماً من اراضي المدينة وبيوتها فأمر مدحت باشا بمخر جدول في وسط
 البلدة فامتلاء الجدول بالماء زمن الفيضان ولم يحصل الفرق المعتاد ورأى اختلال
 الادارة واعتلال الامور فألف قوميوناً ودعاه (بمجرة المركز) وجعل ابوابه
 مفتوحة لذوي الحاجات ليل نهار وألغى وظائف الكتخدا والقواس باشى والقواس
 وأمثالها واحال اعمالها الى رجال الضابطة ومنع بعض العادات المقوتة كصرف
 المبالغ الطائلة للزواج فقد كان الرجل يصرف مصارفاً تنقل ظهره فوضع حداً لهذه
 التبذيرات ورأى الايتام من ابناء المسلمين والمسيحيين يجوبون الشوارع والازقة
 بلا عمل ولا صنعة ويموتون جوعاً ففتح لهم مدرسة واحضر عدداً من المعلمين

وخصص للمدرسة مقداراً من المال لنفقة الاساتذة واطعام الايتام واراد وضع اسم هذه المدرسة ففتح المصحف ووقع نظره على الاية الكريمة (و يسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير) فسماه باسم (اصلاحخانه) ومن هذا التاريخ كانوا يسمون كل مدرسة يقصد بها تعليم الايتام وتهذيبهم في الولايات وفي الاستانة بهذا الاسم

الحاق ولاية برزرين بولاية نيش

وصلت ولاية نيش الى هذه الدرجة من الرقي في ثلاث سنين اما ولاية برزرين فبقيت على ما كانت عليه وكان اهالي ابيك وياقوه وقبائل المليس لا يعطون الحكومة ضرائب ولا جنوداً وزاد الطين بلة قيام اهالي ياقوه وطردهم موظفي الحكومة وزد على ذلك ثورة اهالي ابيك وهجومهم على المستشفى العسكري وضرهم قاتمهم بلدتهم شاهين بك بالرصاص الامر الذي استجلب نظر وكلاء الدولة وحدا بهم الى عزل والى برزرين واحالة شؤون تلك الولاية الى مدحت باشا فتوجه اليها لتنظيم امورها بعد صدور أمر الباب العالي

وكان اهالى تلك البلاد يثرون كلما لحقهم ضيم الحكومة فترسل الاخيرة اليهم العساكر لتسكين سورة حذتهم فتزيد الامور ضعفاً على ابالة ففكر مدحت باشا في ازالة الاسباب التي حدثت بهم الى شق عصا الطاعة لازالتها لأن هذه الطريقة هي أقرب الى اعادة الامن وترك استعمال القوة العسكرية ولذا فانه قد استصحب بلوكا واحداً من العساكر عند حركته من نيش متوجهاً الى برزرين وجمع اليه رؤساء عشائر ابيك وياقوه وما ليسيا وراغوه وغيرهم عند وصوله وسألهم عن أسباب الثورات فأتضح له من خلاصة أقوالهم ان سببها هو طلب الثار لان الصغير والكبير يحمل السلاح ويظن نفسه قادراً على كل شيء وهم مع هذا وذاك صادقون في أقوالهم لا يكذبون ولا يداهنون واكبر جرم عندهم التعرض للاعراض ولكن موظفي الحكومة يخالفون هذه القواعد ويقربون الفواحش ولا يجتنبون الكبائر وطالما فعلوا ما يحرم له وجه المرؤة عند جمع الاعشار وتجنيد الافراد فلجأ الاهالى الى السلاح

الذي هو عدتهم الوحيدة عند الشدائد ولذا فان مدحت باشا قد قرر ازالة هذه الاسباب لمنع نتائجها

على هذا أصدر مدحت باشا أوامره الى رؤساء العشائر وناط بهم بعض أمور للتجربة منها منع الاهالي عن حمل السلاح وترك الثارات القديمة والاستعاضة عنها بمبالغ نقدية يتفق عليها المتخاصمون ومنها التطوع للجنديّة كما تقتضيه قوانين البلاد واعطاء الاموال الاميرية المتركة وتسليم قاتلي القائمقام وناهي المستشفى العسكري الى الحكومة وقبول نظام الضابطة وعدم التعرض لكنيسة النصارى الموجودة بين ابيك وياقوه

طلب مدحت باشا من الرؤساء اجراء هذه الامور فقبلوها بلا تردد وتركوا عنده بعض اشخاص بمثابة رهن وبدأوا بتنفيذ ما تعهدوا به في طول البلاد وعرضها فجمعوا السلاح واجتمعت لجان متعددة لتقدير ديات للمقتولين حقنا للدماء فقدروا أربعة آلاف من القروش لا قارب القليل وألفا للجرجح وأتموا أربعة آلاف من المسائل في أربعة أشهر وقسطوا أموال الحكومة وشكلوا فرق الجاندرمة وبدأوا بتحصيل الاموال وأحضر الرؤساء ناهي المستشفى العسكري وعددهم (١٢) ولكنهم لم يقبضوا على قاتلي القائمقام بسبب فرارهم الى جهة البوسنة

كان مدحت باشا ينتقل من قرية الى قرية للملاحظة هذه الاصلاحات بنفسه وبعد أيام سلم أمور السنجق الى نظيف باشا متصرف برززين وعاد الى نيش ولم تكلف الحكومة سياحته سوى ٢٤ ألف غرش

احداث قانون الولايات وتشكيل ولاية الطونه على سبيل التجربة

انتهت ثورة برززين على هذا النسق وعاد الأمن الى نصابه أما ولاية نيش فوصلت الى ما لا يصل اليه غيرها من الرقي في ثلاث سنين ونظر اليها الناس بعين الاعجاب وانتطعت دسائس الاجانب اذ لم يبق من انحلال ما يتذرعون به لنيل ما ربههم وكانت حالة البلغار في جهات ودين وسلسلته توجب الاسف لسوء الادارة فحاول الروس ايصال صدى شكايات البلغاريين الى أوربا وكثرت أعمالهم المبذولة

لهذه الغاية ورأى المرحومان عالي باشا وفؤاد باشا أعمال مدحت باشا الاصلاحية فأرادوا التدرج بها الى احداث قانون الولايات وكانوا مصممين على احداثه ليكون مقدمة لاعلان الدستور ولذا فقد طلبا مدحت باشا في سنة ٨٠ الى الاستانة

وصل مدحت باشا الى الاستانة وأشار عليه الصدر الاعظم بتوحيد سلسلته وودين ونيش وجعلها ولاية واحدة وتسميتها باسم ولاية الطونة وقال اننا نفعل ذلك على سبيل التجربة واذا حصلت النتيجة المطلوبة جعلنا النظام شاملا لعموم الولايات وقرر الوكلاء تعيين مدحت باشا لهذه الولاية وصدرت بذلك الارادة السنية وكان فؤاد باشا ومدحت باشا يواصلان الليل بالنهار لوضع نظام الولايات الى ان تم وضعه ووجهت أمور ولاية الطونة الى مدحت باشا سنة ٨١

لم يكن القصد من احداث نظام الولايات سوى ضبط الواردات والمصروفات والنظر في أحوال رعايا الدولة واصلاحها ولكن شيخ الاسلام المدعو سعد الدين أفندي قد حاول ابطال هذا القانون بسبب العداوة الشخصية الكائنه بينه وبين فؤاد باشا فلم يوفق الى بغيته بل كان رأي الباشوات مدحت وعالي وفؤاد هو النافذ وقد تعهد اذ ذاك مدحت باشا بتحمل تبعه هذا القانون وتوجهتوا الى ولاية الطونة وحد النظام الجديد ثلاث ولايات وقسمهم الى متصرفيات وقائمقاميات ونواح والحق ست آلاف قرية بولاية الطونة وحتم انتخاب المتصرفين والقائمقامين والمديرين والضباط والجاندرمة ومجالس الادارات وغيرها مما يتبع النظام الجديد اشتغل مدحت باشا بهذه المسائل صباح مساء وكان يشغل أيضاً من جهة أخرى بأعمال الولايات الثلاث وكانت الحكومة تعين للوظائف أعداء هذا المشروع فاشتغل سروري أفندي نائب رسحق (لهذا النائب دور مشهور قد لعبه في محكمة مدحت باشا) ومكتوبجي الولاية سنيح أفندي بتنفيذ الناس من النظام الجديد وتبعهما نظيف أفندي مفتش الحكام فظهرت نتائج سعيهم وكان سروري أفندي يقول للمتقاضين اذا حضروا الى المحكمة ان القانون الجديد سيلغي الشريعة فكان السذج يظنون كلامه صحيحاً ولولا نصح محمد أفندي المفتي لثار ثائر الجهلاء وكان

سعد الدين أفندي شيخ الاسلام يغري البسطاء ويشوق الناس الى اختلاق الزور وتزويق الكذب وحضر المدعو نصرت باشا لاسكان محاجري الشرا كسة وأفهم المهاجرين انه هو الحاكم المطلق وان الولاية والوالي وأتباعه غير مسيطرين عليهم وكان بعضهم قد سجن فحضر نصرت باشا الى السجن بنفسه وكسر الابواب وأخذ السجناء عنوة وأظهر للسذج ان المهاجر غير تابع للحكومة ولم يكن قصده سوى القاء العثرات في سبيل تنفيذ هذا القانون

(المترجم) نصرت باشا المذكور هنا هو نصرت الذي كان يلقبه الاتراك بالدلي نصرت يعنون نصرت المجنون وقد خدم عبد الحميد بالتعجس مدة ثم نفاه الاخير الى بغداد فمات هناك غير مبكي عليه)

وكان الفساد يمنع اجراء الاصلاح فأرسل مدحت باشا هؤلاء المفسدين الى الاستانة وأحل بعض ذوي الاستقامة محلهم واستمر في طريق الاصلاح فنفذ المنظمات الاساسية في ستة أشهر فطبقت الحكومة نظام الولايات في ادرنه وفي حلب وعمته أخيراً

الوسائط التي أُجريت لاعمار البلاد وتزويد الثروة

لم يكن القصد من تبديل شكل ادارة الولايات غير اعمار البلاد واسعاد الاهالي فمجالس القرى والنواحي والقائمات والمتصرفيات والولايات واجتماع المجلس العمومي مرة في كل سنة وتعيين معاون للولاية ومتصرف مركز ومديرين للامور الاجنبية وللنافعة كل ذلك لم يقصد به سوى تقدم البلاد واصلاح شأن الاهلين وهؤلاء الموظفون هم كالات التي يحركها الوالي ويستعملها لافادة الوطن وقد رأيت ولاية نيش من العمران ما لم يره غيرها في مدة قصيرة بسبب انشاء الطرق وقرب المواصلات ولذا فان مدحت باشا قد جعل هذه الاعمال مقدمة للاصلاح المنوي ومع هذا فقد أسس صناديق التوفير ووابورات التجارة وشركات العربات ومدرسة الصنائع وبعض المعامل والمستشفيات وامر ببناء السجون والخلصة فقد وصل الاهالي في مدة ثلاث سنين ونصف سنة الى اعلى درجات العز والرفاه

وزادت إيرادات الحكومة (٥٠) في المائة

ان الاصلاحات التي اجراها مدحت باشا تحتاج في تعدادها الى المجلدات فقد اصبحت ولاية الطونة كنموذج اصلاح لكل الولايات وتحديث الافرنج بتقدمها فلا بأس من ذكر نبذة من اعمال مدحت باشا الاصلاحية في تلك الولاية أنشأ مدحت باشا الطرق والمعابر ولم يراع قانون الحكومة القاضي باشتراك الاهالي في عمليات الطريق بدفع الاعانة او الاشتغال اياماً معدودات لان هذا النظام لا يفيد ولذا فان مدحت باشا كان يرسم الطريق ويكلف اهالي القرى الذين يستفيدون منه الشغل فكانوا يقبلون او امره بكل ارتياح وقد جرب هذه القاعدة في نيش فنجحت فأتبعها في الطونة وبلغ طول مجموع الطرق ثلاثة آلاف من الكيلومترات وعدد الكباري الصغيرة والكبيرة ألفاً وأربعمائة وعشرين وأعاد مدحت باشا الامن الى نصابه فقد كان اهالي الروميلي يشكون قطاع الطريق فأرسل الباب العالي مدحت باشا الى الجهات الجبلية من تلك البلاد سنة (٧١) فظهر البلاد من اللصوص ولكن رجال الحكومة قد تساهلوا مع رجال العصابات وتركوهم يعيشون بالامن بعد عودته الى الاستانة فاجتث في هذه المرة جرثومة فسادهم مستعيناً بالضابطة وكانت حديثة العهد في تلك البلاد فعاد الأمن الى سابق عهده

وأسس مدحت باشا صناديق التوفير لتخليص الاهالي من براثن المرابين وذلك ان محصول الذرة في تلك البلاد جيد فكان مدحت باشا يعطي مقداراً من أراضي الحكومة الى الاهالي ويأمرهم بزراعة من هذا الصنف فاذا جاء زمن المحصول باعه بواسطة مجلس الادارة وسلم أثمانه الى تاجرين أحدهما مسلم والآخر مسيحي وأناط أمر الكتابة باحد الكتاب المكفولين وكانت صناديق التوفير تفتح أبوابها في الاسبوع مرة أو مرتين وتعطي للأكارين ما يلزمهم من النقود بعد أخذ الشهادات المصدقة من مجالس الادارات أما النائدة التي كانت تأخذها الحكومة فهي واحد في المائة عن كل شهر وكانت هذه الاموال ملكاً للاهالي فرأت الحكومة من

الواجب بل من المحتم رؤية الحساب مرة في السنة وصرف ثلث الارباح لتنظيم الطرق وانشاء ما يلزم لاصلاح البلدة فبلغ مجموع المبالغ الموجودة في صناديق التوفير ثلاثمائة ألف ليرة في مدة ثلاث سنين وبعدها بلغ مجموع النقود نصف مليون من الليرات كما أعلنت ذلك الجرائد

استغنى الاهالى عن مراجعة الغير بصناديق التوفير واستتب الامن في بلادهم وكانوا يتقلون المحصول من بلدة الى اخرى بسهولة بواسطة الطرق والمعابر فتقدمت ثروة البلاد وأصبح جيرانهم الصربيون والاولاح يغبطونهم ويحسدونهم على ثروتهم أما شركة وابورات تجارة الطونه فقد أفادت فائدة فوق المطلوب لان الجهات الصالحة للملاحظة من هذا النهر تبديء من ودين الى أسفل وكانت حكومة الاستانة قد تركت تلك الجهات بلا وسائط تجارية فاحتكرتها حكومة النمسا وكان من الصعب وصول وابوراتنا الى ما وصلت اليه الوابورات النمساوية بيد ان مدحت باشا قد رأى مسألة اشتغال وابوراتنا بنقل البضائع من ودين الى بعض النقط البعيدة غير خالية من الفائدة فأوجد المبالغ اللازمة لشراء تلك الوابورات وشرعت في نقل البضائع أولاً الى (قره صو) ثم الى (جمه پنايرلى) وذلك انه قد أصلح الطرق البحرية ثم أنشأ أسا كل ومستودعات في الاسواق لأموال التجار فبلغ المتحصل من امجارات هذه المستودعات بعد مرتبات الموظفين ثلاثة آلاف من الليرات بعد تنزيل المصاريف ونفى في الاسواق الدكاكين بما توفر من هذه المبالغ وقد بلغ اذ ذاك ثمن الذراع الواحد في تلك الاسواق مائة غرش

وكان الاهالى قد وقعوا في خلاف مستمر بسبب الغابات الكائنة بجهة (طورنوى) فصالحهم مدحت باشا وقسم هذه الغابات مراعيًا عدد الاهالى وسلم الى كل قرية سنداً خاقانياً أثبت به حقها فاستفاد الاهالى وعمرت الغابات التي كانت قد خربت بسبب الاهمال والمنازعات

وقد اشترى مدحت باشا أولاً وابور نيش وسياره ثم صوفيه فوابور (مدحت

باشا) وكثر عدد الوابورات

وأسس شركة عربات الركوب والنقل فأحدثها أولاً في نيش ثم عممها في جهات الولاية فكانت تسير على الطرق الزراعية وقد أحدث لها المحطات والمواقف وهناك بدأ الصانع في طول البلاد وعرضها بصنع عربات الركوب والنقل وكانت سهوم الشركة تباع للاهالي بثمان ٢٠ ليرة عن السهم الواحد وتقدمت الشركة فوزعت على أرباب السهوم من الارباح ليرتين عن كل سهم ولما توجه مدحت باشا الى ولاية بغداد كتبوا له يقولون ان عربات الشركة قد بلغ عددها ٣٠٠ عربة وبلغ عدد خيلها ٥٠٠ وأكثر من هذا العدد وقد افادت هذه الشركة الاهالي في روحاتهم وحيثاتهم وسهلت سبل التجارة ونقل البريد وكان قانونها مطبوعاً ومحتويًا على (٢٧٠) مادة

وقد افادت مدارس الصنائع أهالي البلاد فائدة لا تنكر فقد أنشأ احدها مدحت باشا في نيش ثم أنشأ غيرها في رسجق وثالثة في صوفيه وناط بها تربية أيتام المسلمين وغير المسلمين وتعليمهم الصنائع والقراءة والكتابة ووضع لها بروجراماً مخصوصاً ثم أحدث لأول مرة جريدة دعاها جريدة الطونة وأحضر لها الاحرف والآلات وأمر ببعض الايتام فأخذوا يعلمونهم صنعة ترتيب الحروف فضلاً عما كانوا يعلمونهم في الاصلاحخانة من التجارة والحياكة والخياطة وصنعة العربات

بلغ عدد الاطفال الموجودين في كل مدرسة من هذه المدارس (٢٥٠) وبلغ ايراد مدرسة نيش وحدها ٢٠٠ ألف غرش أما ايراد مدرسة صنائع روسجق فكان أكثر من هذا لان مدحت باشا قد أمر ببناء بعض مستودعات على طول الخط الحديدي فكانت تلك المستودعات تؤجر سنوياً بمائة الف غرش وربما ايراد مدرسة روسجق على الثلاثماية ولذا فقد بنى مدحت باشا مدرسة صنائع للبنات أيضاً

وفكر مدحت باشا في امر اسكان مهاجري التتر والشرا كسة فأسكن من حضر منهم في جهة نيش قبل تشكيل الولاية واسكن نصرت باشا المهاجرين الذين جاؤا

الى سلسلته ووردين فلم تبق للمهاجرة حاجة الى المنزل والسكن بيد ان عدد هؤلاء يفوق (٣٥٠) الفا وفيهم العاجز والصغير الذي لا يساعد سنه على الدخول في الاصلاحخانات وهؤلاء محتاجون الى القوت والملبس وليست في قرى المهاجرين جوامع لاقامة الشعائر الدينية ولا مدارس لتعليم الاطفال والحكومة تعفي المهاجر من دفع التكاليف الاميرية من يوم هجرته لمدة (١٠) سنين وقد مضت مدة واشتغل بعضهم بالزراعة فاذا أخذ منهم جزء من الاعشار بعد رضاهم انتهى هذا المشكل ايضاً وتساوى المهاجر بابن البلد وقد جمع مدحت باشا رؤساءهم وعلماءهم فأفهمهم الموضوع وشكل قوميوناً تحت رئاسة شاكرك بك مأمور اسكان المهاجرين لجمع القرضيين الاعشار من المهاجرين وباعها وصرف اثمانها لاحتياجهم الضرورية في السنة الاولى فبنى في بعض القرى الجوامع والكتاتيب وعين مرتبات لمحتاجي الشيوخ والاطفال وفي السنة الثانية زاد مرتبات هؤلاء البؤساء واكثر عدد الكتاتيب وعين المعلمين واعتني بأمر الذين لا يجدون عائلاً ولا نصيراً

تحسنت احوال الشراكسة ولكن اكثرهم اسير لبكواتهم وفيهم الشيوخ الذين لا يقدرون على شيء والبكوات يدهون امتلاك اولادهم واحفادهم اما نظامات الدولة فلا تساعد على شيء من ذلك والانسانية تأباه ايضاً ولذا فان مدحت باشا قد دعا اليه امرأته ورؤساءهم وافهمهم سر المسألة وفي الختام اغمض الطرف عن الصغار الذين لا يتجاوزون العاشرة والتاسعة وحتم على البكوات بيعهم لا بأهم ثم حتم عليهم اعتناق الباقين

واصلح مدحت باشا ايضاً السجون ودور الحكومة فقد كان القاتمقام لا يجد مكاناً للاقامة فيه وتنفيذ اوامر الحكومة وكذا الوالى والمتصرف والحاكم (القاضي الشرعى) وكانت السجون قد وصلت الى درجة الانهدام فبنى مدحت باشا سجن ودين ودار الحكومة وبنى ايضاً دائرة الحكومة وسجن روسجق وكان تجار الاهالى وأغنياؤهم يجمعون الاموال لانشاء السجون ودور الحكومة ويقدمونها الى اللجان بكل افتخار

واحدث مدحت باشا دوائر البلدية التي لم تكن موجودة الا في دار السعادة وانتظام المدن يتوقف على وجود هذه البلديات ولذا فقد انشأها مدحت باشا ونظم الشوارع والازقة وحافظ بواسطتها على الاسعار والاوزان فظهرت آثار فوائدها في طول البلاد وعرضها

وكان انتظام البلاد يتطلب ايجاد عدد من رجال البوليس وكان البعض يفر من هذا الاسم ويعده ممقوتا فعين مدحت باشا رجال هذا الصنف وسماهم باسم المفتشين واستخدمهم لايفاء وظائف البوليس في القرى وفي البلدان

وبعد هذا وذاك فقد نظم مدحت باشا أمور المالية بمعاونة اديب افندي دفتر دار الولاية ونظم لائحة وامر بتطبيقها بلا تردد وامر بترك ما تراكم على الاهالي من الاموال التي لا يمكن تحصيلها وكان انفار الضابطة في ذلك الوقت يسألون عن مقدار المطلوب من القرية ويوزعونهم على الاهالي وهي خطة عقيمة يعتمدها الظلم ولذا فان مدحت باشا قد غير هذه القاعدة وحدث وظائف الجباة وسن لهم لائحة تحتم عليهم اخذ اول اقساط الاعشار والويركو والبدل العسكري في شهر مارس وحتم على الجباي تسليم اقبال الى يد المدين وطبع الايصالات وفرقها عليهم وبهذه الطريقة نمت ثروة الاهالي وانتظم ايراد الحكومة في سنة (١٨٢) لم يبق على الاهالي غرش واحد من الاموال الاميرية بل سددت كل هذه الاموال في السنة نفسها ولم يحدث مثل ذلك في احدى ولايات الدولة بل انفردت به ولاية الطونة وحدها ولذا فان الاهالي كانوا يتعجبون في الاستانة وفي بقية بلاد الدولة

ساعدت هذه الاعمال أهالي البلاد على ا كثار ثروتهم وكانت ايرادات الحكومة تزيد ايضا كلما زادت ثروة الاهلين فامتلات الخزائن بالاموال تشكلت الولاية وكان دفتر المرسل من نظارة المالية والمحفوظ في صندوق الدفاتر محتويا على ٢٢٦ الف كيس من النقود وهي عبارة عن ايرادات سلسلته وودين ونيش بعد اخراج واردات الجمارك والملح والدخان وبعد هذا صدر الامر بالغاء بعض الرسوم ومنعت الاغنام التي كانت تحضر للمراعى من بلاد النمسا

فامتنع عن الخزينه ما كان يعطيه هؤلاء القوم من النقود وانقطعت الاموال التي كانت تأخذها الحكومة عن اثمان المراعي ايضا بسبب ورود الشراكسة ولم تصدر الحكومة أمرا بزيادة شيء على الرسوم المقررة ولكن وارداتها قد بلغت في سنة (٨٢) ٣٠٠ الف كيس بفضل التقدم والاصلاح الذي اجراه مدحت باشا ابو الاحرار وفي سنة (٨٣) بلغت الواردات ٣٥٠ الف كيس وبعد سنة ايضا ٣٧٠ الف كيس اعني مليوناً وثمانماية الفا من الليرات

واذا ذكرنا المصروفات فقد كان ضباط الجاندرمة وافرادهم وكل موظفي الحكومة يأخذون ستة آلاف كيس اكثر من مصارف الولاية قبل الاصلاح ولكن الايراد قد زاد عشرين مرة عن ذي قبل أما اهل الاستانة ووزراؤها فكانوا يظنون ان الاصلاح لا يتم الا باعطاء الموظفين مرتبات لا تكفيهم اثمان خبزهم ولذا فقد عزلوا معاون الولاية ومدير الأمور الأجنبية وغيرهم فمالت حالة الولاية الى التدني وبدأت الواردات تقل عن ذي قبل

حدث هذه الاحوال بالاھالي الى التوسع في التجارة والصناعة والتفنن في الارباح فاحضروا الآلات الزراعية من اورپا وأنشأ مدحت باشا شغلها للتجارب الزراعية بجهة روسجق فمال الاهی الى الامور الزراعية والخلصة فان ولاية الطونة قد وصلت في سنتين الى اعلى درجات الاصلاح وسار ذكرها في الآفاق وسر الباب العالی لهذا الاصلاح فعم نظام الولايات وصدرت الارادة السنية قاضية بارسال صور الاوامر الصادرة الى موظفي ولاية الطونة مدة سنتين فكتب مكتوبي الولاية رفعت أفندي (رفعت باشا الوزير الآن) صورها وأرسلها الى الاستانة فطبعوها في دار السعادة وارسلوها الى الولاية في الولايات لتكون دستوراً للعمل وطبعوها في مجموعة الدستور

وقد اتبعوا هذه النظمات في اكثر الولايات غير أننا اذا استثنينا بعض الولايات الفنية كازمير وادرنه وسلانك رأينا ان هذه الاجراءات لاتناسب احوالها لفقر الاهی ولذا فان عقد نظامها قد انفرط ونجحت صناديق التوفير في بعض

الولايات فبلغ مجموع الاموال الموجودة في صندوق ازميز سنة ٩٧ مايتي الف ليرا
وكانت ولاية الطونة منقسمة الى سبعة سناجق و٤٧ أفضية و١٥ ناحية وكان
المتصرفون في تلك الارزاء من ذوي العفة والاستقامة كصبري باشا ورأسم باشا
وعبد الرحمن باشا وكان القائمقامون والمديرون من الذين قد ثبتت استقامتهم
بالتجارب أما موظفو الشرع فقد انقضت ايام معظمهم فانتخب مدحت باشا بدلهم
رجالا من الامناء وابقاهم بصفة دائمة وكانت المرتبات وافية بالمرام فلم ينظر احد
الى الرشوة والارتكاب وعاش الموظفون كابناء عائلة واحدة في بيت واحد وانقطعت
السرقا والغارات والسلب وقطع الطريق وقلت المشاحنات والمضاربات العادية
ورأي الاهالي المسلمون وغير المسلمين حركات الحكومة فعاشوا عيشة الاتحاد
والوثام وانقطعت دسائس الروس التي كانوا يدسونها في البلاد مذ خمس عشرة سنة
غير ان روسيا تقصد دائما ايقاظ العنصر السلاوي والتوحيد بين عموم البلغاريين
فكانت الجمعيات السلاوية التي تقيم بالروسيا تجمع الاموال وتأخذ كل سنة عددا
من ابناء البلغاريين لتعليمهم على زعمها فاذا عادوا من البلاد الروسية اضلوا امثالهم
وكانت هذه الاحوال معلومة غير أن قوانين الدولة لا تتيح منع طالبي العلوم من
التوجه الى البلاد الاجنبية وفضلا عن هذا فان البلغاريين يكونون القسم الاكبر
من اهالي الولاية ولم تعاونهم الحكومة على تأسيس مكتب بل لم تؤسس لهم
مكتبا أيضا وفي البلاد مكاتب قد انشأها الحكومة لابناء المسلمين وهي غير كافية
لهم اذا روعي العدد ولذا فقد فكر مدحت باشا في هذه المسألة ورأي من الواجب
احداث مدارس مختلفة للتعليم الابتدائي لتعليم المسيحي وحده والمسلم وحده والجمع
بينهما في المدارس الثانوية لمنع ذهاب البلغاريين الى البلاد الاجنبية وانشأ مكتبا
سلطانيا في مركز الولاية وفي السناجق السبعة سبع مدارس اعدادية وانشأ لها شعبا
في بعض القائمقاميات واحضر لها معلمي اللغات التركية والفرنسية وخصص نصف
مصارف هذه المدارس البالغة ٥٠ الف ليرا من ايراد الحكومة والنصف الثاني
من الاهالي

دسائس سفير روسيا

لترك مدحت باشا يصلح ما هدمته يد الاستبداد ولننظر الى رؤساء احزاب
 السلاويين في البلاد الروسية فقد ساءهم تقدم البلاد ورأوا ان اعمالهم ستبقى عقيمة
 فالسفير الروسي في الاستانة افرغ جهده لاستطلاع احوال ولاية الطونه وصاغ انواع
 الاكاذيب واستعمل الدسائس لايقاف حركة الاصلاح وكانت مدة اقامته قد
 طالت في الاستانة فوقف على غوامض اسرارها وعرف اطوار المايين الهابوني
 وأوضاعه فافهم السلطان عبد العزيز ان هذه الاعمال ستكون ضربة قاضية على
 استقلاله وان مدحت باشا سيستقل بهذه الولاية فعرف عبد العزيز منشأ هذه
 الرواية واسبابها ولم يعرها جانبا من الاهمية ولكن بعض رجال الحكومة كانوا يحاولون
 الحط من قدر مدحت باشا واظهار اعماله بصورة غير صورتها وصادف ان مجلس
 الولاية العمومي قد اجتمع فكتبت عنه جريدة الطونة فصلا طويلا وذكرت اعضاء
 المجلس العمومي بغير هذا الاسم فقالت سهوا انهم اعضاء مجلس المبعوثين فزادت
 اقوال الوشاة وتأخرت اللائحة المرسلة الى الاستانة لانشاء المدارس بهذا السبب
 بل رفضها ارباب الحل والعقد رفضا باتا قائلين ان الاحوال المالية لا تساعد على
 صرف هذه المبالغ الكبيرة

ثورة البلغار

نال اهالي ولاية الطونة مالم ينله غيرهم من الثروة والعز والرفاه فلم يوفق اخوانهم
 اعضاء الجمعيات السلاوية الى اثارهم بانواع الاكاذيب والترهات ولذا فقد ارسلا
 لهم طائفة من العصابات لتدعوهم الى الثورة بقوة السلاح وعلم مدحت باشا بكل
 ذلك فكتب الى عالي باشا الصدر الاعظم يخبره بالحادث فاجاب ان الباب
 العالي قد وقف على الحقيقة وأمر في جوابه مدحت باشا بالتحوط للأمر فكنتم
 المسألة واحضر العدة والعدد اللازم وانتظر اخبار الاشقياء ومن أين يأتون وكيف
 يثورون وفي سنة ٩٣ في اوائل شهر مايس ورد تلغراف من زشتوى فحواء ان
 الاشقياء قد ظهروا من جوار زشتوى المذكورة مدججين بالسلاح وأمجدوا مع ابناء

البلدة البلغاريين وقابلوا خمسة من رعاة الضأن المسلمين خارج المدينة عند الفجر
 وجرحوهم جراحا قضت على حياتهم ثم ساروا ووجهتهم طورنوى
 اخذ مدحت باشا هذا التلغراف فأمر باحضار بلوكين من العساكر واركبهم
 وابورا بسرعة فوصلوا الى زشتوى ورأوا المسلمين والنصارى في حالة يرثى لها العدو
 قبل الصديق واطهرت التحقيقات ان عدد الاشقياء يبلغ المائتين اذا حسبنا عدد
 الذين انضموا اليهم من اهالي زشتوى أيضا وكانوا كلما تقدموا في داخلية البلاد
 انضم اليهم شبان البلغاريين وكان قصدهم الوصول الى غيروه ومنها الى الجبال وكان
 مدحت باشا قد وضع وراء غيروه في قايينوه اربعة طوابير من العساكر ومثلهم في
 ايلانوه ووضع في طرونه طابورين لعلمه ان هذه النقط هي مجمع اشقياء البلغار وملجأهم
 الذي يلجأون اليه عند الثورة فلم يتوجه الاشقياء عند تلك الجهات بل قصد معظمهم
 جبل طوسه فحاط به عدد من العساكر

قتل هؤلاء الجناة في زشتوى عدداً من الاطفال الذين لا يتجاوز اقدم الثامنة
 من عمره وغرضهم من ذلك إيجاد العداوة بين النصارى والمسلمين وهي فعلة قد
 دبرها رجال العصابات وامروا رسلهم باجرائها فارسل مدحت باشا الى تلك الجهات
 عدداً من الوعاظ لمنع الاهالي عن القيام بالوعظ وساق الى طرنوى عدداً من
 العساكر وعين النقط في البلاد لحفظ خط الرجعة. قطع هؤلاء البغاة نهر الطونة منذ
 ثلاثة ايام ولكنهم قد ظهروا في اسلميه وقازغان وطوريان وغيرهم من البلاد التي
 لا يصل اليها السائح الا في خمسة ايام فكانت تظهر منهم في بعض البلاد العصابات
 المؤلفة من العشرين والعشرة من شايكي السلاح وبعضهم يركب الخيل وقد انتشروا
 انتشار الجراد في جهات طرنوى وسلوى ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم من الامتعة
 التي صادفوها في الترى التي مروا بها فلجأ النصارى الى الكنائس خوفاً من المسلمين
 ولجأ المسلمون الى الجوامع خوفاً من النصارى وفي هذه الاثناء انتهز بعض الاوباش
 فرصة هذه الاحوال ولجأوا الى السلاح وصلوا على الضعفاء ولم يتركوا باب توحش
 الاطرقوه اما أصل العصاة فقد حاصرتهم الحكومة في الجبل السالف الذكر ولا بد

ان تفتك بهم فتكا ذريعاً ولكن الحذر كل الحذر هو من انتشار اللصوص في طول البلاد وعرضها ولذا فان مدحت باشا قد اهتم بهذه المسألة غاية الاهتمام ومنع الاجانب عن حمل السلاح منعاً باتاً بصفة موقنة وأمن أهالي القرى والبلاد على أرواحهم وقبض على الذين قاموا للسلب والنهب وعدوا المسألة فرصة للاستفادة من التلصص وقطع الطرق فأرسل الضباط والعساكر في كل الجهات فقبض على عدد غير قليل من الاشخاص وزجهم في السجون وتشاجر الاشقياء الذين لجأوا الى جبال طوسه مع الاهالي والعساكر فقتل منهم عدد غير قليل وقبضت الحكومة على عدد من العصاة وشكلت قومسيوناً من ستة من المسلمين وستة من المسيحيين في طربوزي لمحاكمتهم وحضر من روسحق بعض القناصل وارسل بعضهم من ينوب عنهم لحضور المحاكمة فجرت بحضورهم لان المسألة كانت غير محتاجة الى التطويل فهي عبارة عن حضور اشخاص من البلاد الاجنبية وتشويقتهم أهالي البلاد الى شق عصا الطاعة في وجه الحكومة وقتل اخوانهم ومقابلة العساكر النظامية بالرصاص وقد دلت على ذلك اقوالهم وحركاتهم وشهد ضدهم الشهود فأعدموا اما الذين ساعدوهم بالسلاح ودلوهم على الطريق من بلغاري البلاد فقد حكم عليهم بالاشغال الشاقة وارسلوا الى ودين وكانت الاخبار ترسل يوماً الى الباب العالي وكان الصدر الاعظم يجذب افعال مدحت باشا ويرسل له تelfرافات التبريك

وكانت الاحكام تصدر بسرعة وانتظام ولكن السجون قد ضاقت وهناك عمدت الحكومة الى طريقة التحقيق الدقيق فافرجت عن الذين تجمروا وحاولوا شن الغارة على القرى لتهبها واكتفت باخذ سلاحهم وسجنت الذين ثبتت عليهم الجنايات وامرت بضرب الاقباط والمتشردين وتخليصة سيبلهم وقبضت الحكومة على قاتلي الاطفال واعدمتهم في محل الجناية وسجنت عدداً غير قليل منهم وفي اثناء هذه الاحوال ظهرت حادثة غريبة في بابها وهي ان احد البلغاريين كان يشتغل في زراعته هو وزوجته فقتلا معاً وظن الناس ان هذه الجناية قد احدثها المسلمون وكانت تلك البلاد خالية من مسلمي الاهالي فكان مدحت باشا يرسل

الموظف تلو الموظف للبحث عن الفاعلين فوجدوهم وسجنوهم لاجراء التحقيقات اللازمة

وجدوا القتيلين ووجدوا معهما سيفاً ملوثاً بالدماء ففتشوا العساكر ووجدوا سيوفهم معهم وكانوا قد القوا الشبهة على محمد شاوش فوجدوا سيفه معه وكانوا قد رأوه بحالة توجب الشبهة في تلك الليلة

وبعد تحقيقات عميقة اتضح ان السيف هو سيف الشاوش المذكور وانه تركه عند القتولين وارسل الى صانع الاسلحة ابنه مدعيًا ان سيفه قد ضاع فأرسل اليه سيفاً وقد أقر الجاني أخيراً بجنايته قائلاً انه قد تعرض لزوجة الرجل بشهوته البهيمية فحاول زوجها منعه فقتل الاثنين فحكم المجلس العسكري على محمد شاوش بالاعدام واعدمه رمياً بالرصاص عملاً بالقانون العسكري

وقد اشتدت الحادثة ثلاثة ايام في هذه المدة صلب عدد غير قليل وجلد عدد من المسلمين وغيرهم بلا تفريق وقتل محمد شاوش بهذه الصفة فانطفت جذوة الفساد وكان البلغاريون متأهبين للثورة فثاب اليهم رشدهم بعد هذه الاعمال وعليه فقد بقي مدحت باشا في جهة طرنوى ثم عاد الى زشتوى بعد اعادة الامن الى نصابه في تلك البلاد

وكان الاشقياء قد كثر عددهم في جهة زشتوى وانضم اليهم عدد غير قليل من الاهالي وملأوا بعض الكنائس بالاسلحة والزخائر وكان اهالي زشتوى يعرفون كل ذلك بلا شك ولا جدال فتزك مدحت باشا في تلك البلدة مقداراً من العساكر وبعد صدور الحكم على خمسة من قتالي الاطفال اجري اعدامهم وبعد تحقيقات طويلة قبض مدحت باشا على ٨٤ من الاشقياء واخذهم في وابوره وتوجه بهم الى روسجق

واشتغل المجلس الكبير في روسجق بالتحقيقات فاعدم الجناة واعاد بعض الاجانب الى بلادهم ونفي بعض القسيسين والرهبان وانتهت المسألة وكتب عنها الى الباب العالي

على هذا النسق عاد الامن الى ربوع الولاية وفي هذه الاثناء عاد السلطان عبد العزيز من أوروبا الى الطونة وورد الى مدحت باشا خبر عزمه على الحضور فتوجه الى بشته وقابل السلطان فبقي الاخير ليلة في ودين وليلتين في روسجق واثني على أعمال مدحت باشا وكافأه مكافأة جديدة

تجنيد اهل القرى

عاد الامن الى ربوع الولاية ولكن جمعيات السلاو الثورية في روسيا وفي بكرش كانت تحمى الى الظن بان هذه الحركات لا تنتهي وان هذه الجمعيات ستشغل باحداث الثورات في المستقبل وتوقع البلاد في ازمت اكبر من الاولى ولا سبيل الى ايجاد العساكر في كل نقطة واهل القرى غير مستعدين لمقابلة الطوارئ واذا حدث شيء من هذا القبيل وقعوا في حيرة وقام المسلم ضد المسيحي كما ثبت بالفعل في الحادثة الاخيرة ولا بد من ايجاد علاج شاف لهذه الخطوب ولذا فان مدحت باشا قد اوجب على أهالي القرى حمل السلاح وحتمه على الشاب الذي يبلغ (١٥) من سني حياته الى الشيخ الذي يبلغ (٦٠) وقرر تعليمهم ونصب رؤساء منهم واعدادهم لما يطرأ من الحوادث ليكونوا تحت امره الضباط وقرر اعطاء كل شخص أربعين بارة من الحكومة وعرض المسألة على الباب العالي وطلب اربعين ألف بندقية لهذا الجيش الجديد فصدق على طلبه الباب العالي وورد قسم من البنادق فوزعه على الاهالي فتكونت في الولاية قوة جديدة غير القوة العسكرية وبطل قول الذاهبين الى ان ولاية الطونة ستكون يوماً تابعة لروسيا ولذا فان محمود باشا نديم قد مزق شمل هذا الجيش خدمة لما رب الروس يوم تولى مسند الصدارة

احداث الخفراء على سواحل وحدود ولاية الطونه

ان حفظ الولاية في الداخل مهم واهم منه المحافظة على الحدود والسواحل وخصوصا فان ولاية الطونة محدودة ببلاد الصرب من جهة ومن الأخرى ببلاد الافلاق والبعدان وهذه الممالك قد اوجدت عددا غير قليل من القراقولات على حدود نهر الطونة اما نحن فلم نعبأ بهذه المسألة ولذا فان بلادنا خالية من خفراء

الحدود وهذا الامر ينافي الشرف والحيطه معا ولا سبيل الى ايجاد عدد كاف من الخفراء لان النهر ممتد واذا اريد وضع العساكر على طول النهر وجب صرف ثلاثين الف ليرة فلا سبيل اذا الى حفظ حدود البلاد الا بالاستعانة بالاهالي ولا فرق بين المسلم وغير المسلم في هذه المهمة وقد ابتداء مدحت باشا من ودين فوضع بعض القراقولات للتجربة على الطريقة الآتية

وضع مدحت باشا في كل قراقول نفرا بمثابة الاونباشي وجعل خمسة من القرويين يتناوبون الحراسة في القراقول فيقيمون اسبوعا واحدا في كل ثلاثة اشهر فاذا اتقضى الاسبوع خلفهم غيرهم وخصص لكل قراقول ٧٠٠ من الاقباط والجراكسة والبلغار والمسلمين

حادثة وابور جرمانيا

ظهرت في هذه الاثناء حادثة وابور جرمانيا الشهيرة وهي ان جمعيات السلوا الكائنة في بكرش وابرائيله وكشنو وقلاصي كان يزيدون في افسادهم كلما زاد الامن استتبابا في ولاية الطونة فكانوا يرسلون العصابات والاسلحة وقام اثنان منهم بوظيفة من قبل هذه الجمعيات من (قلاص) ووجهتهم بلغراد ثم عادوا الى قلاص وارفقهم مدحت باشا باثنين من الموظفين فصحبوهم في سفرهم وركبوا معهم احد وابورات النمسا فتوجه احد الموظفين معهم الى قلاص ودخل في زمرة الفرقة الثورية التي الفوها وحاز ثقتهم ووقف على حركاتهم ونياتهم وكتب الى مدحت باشا مكتوبا وارسل اليه رسمه هو ورئيس العصابة الثورية وقال له انهم سيعودون الى بلغراد على وابور النمسا المدعو جرمانيا وكان الشقيان قد اشتهرا بالقتل والسلب ودل عليهما رسمهما فحاول مدحت باشا القبض عليهما فوصل الوابور الى رسجق ولكنه يحمل الراية الاجنبية وعدد ركابه يربو على المائتين فكيف يمكن القبض على الشقيين بالقوة ولذا فان مدحت باشا قد ارسل المفتشين الى الوابور وبعث معهم باحد موظفي سفارة النمسا فسألوهما عن احوالهما وجواز سفرهما فخبدا بهما غرور الرئاسة الى تصويب مسدسيهما نحو موظفي الحكومة وضربهما بالرصاص ثم فارقاها

ودخلا حجرة الوابور ولم يصب رصاص مسدسيهما الموظفين فامتنع الاخيران عن اتباعهما أما ركاب الوابور فقد رأوا الشقيان وشاهدوا اسلحتهم وبنادقهم ورأوا ما بيدهما من معدات الحرب فتركوا الوابور وتركه أيضاً ربانه وعماله ولم يبق فيه سواهما

وهنا أرسل مدحت باشا عدداً من العساكر لمحافظة السائحين الذين فارقوا الوابور واحاطة الاخير من اطرافه الاربع فحضر قنصل النمسا الى مدحت باشا مع وكيل الشركة وتذاكروا في أمر إعادة الامن في الوابور واعادة الركاب ولكن الشقيين قد لجأوا الى حجرة الوابور وأغلقوا بابها ووقفوا وفي يدهم السلاح واذا لم يخرجوا فلا سبيل الى دخول السياح الى اماكنهم وسفر الوابور كما قال السياح وفي هذه الاثناء حضر قبطان الوابور ووافق على أقوال السياح أنفسهم ودخول أملاك الاجانب ممنوع غير ان القنصل قد لجأ الى الحكومة وطالب منها اغائته بقوتها ولذا فان استعمال القوة جائز في مثل هذه الاحوال خصوصاً بعد موافقة القنصل ولهذا فقد صدر أمر مدحت باشا الى رجل برتبة (طابور أغاسي) بالتوجه مع القوة اللازمة الى الوابور واخراج الشقيين قسراً فتقرب من الحجرة شاويشان ونفران من رجال الضبطية ونصح لها الطابور اغاسي فقابلاه بالسب والشتم فاضطر الى كسر الباب بالمعاول فظهر الرجلان وفي يدي كل منهما مسدسان ورموا بمقذوفاتها الجنود فاصاب رصاصها حافظ چاويش في صدره فخر على الارض فقابلهم الجنود بالرصاص وقتلوا أحدهما وقبضوا على الثاني جريحاً فمات بعد ثلاث ساعات

وبعد كل ذلك ركب السياح وابورهم واستمر الوابور في طريقه وكتب مدحت باشا الى الباب العالي لتغرفات عن هذه الحادثة فجاوبه عالي باشا بحبذا أفعاله الاصلاحية ونشر الخبر في جرائد أوروبا والسيارة لمنع اعداء الدولة الافاكين عن القيل والقال وكانت المسألة قاصرة على اعدام الشقيين ولكن رجال الحكومة النمساوية قد ارادوا تكبيرها فوجهوا الى القنصل تهماً لا تنطبق على العقل وعزلوه وقدم الصربيون شكاياتهم الى الباب العالي اعتراضاً على قتل احد الشقيين التابع

لحكومتهم وعد الجنرال ايغنايف المسألة فرصة وطلب عزل مدحت باشا من ولاية الطونه واخذ كتخدا الصرب مراراً وتوجه معه الى المايين فقالوا له ان مدحت باشا قد فعل ما تحتّمه عليه وظيفته وعرفت الحكومة النمساوية ما لحق قنصلها من الظلم بسبب عزله فعينته قنصلاً لولاية طرابزون مكافأة له على حسن خدمته

قصده اغتيال مدحت باشا

كان الصربون والروس يريدون عزل مدحت باشا من ولاية الطونه فلم يوفقوا لي بغيتهم فقررت الجمعية السلاوية الموجودة في الصرب قتل مدحت باشا ووافقها على قرارها ميشل أمير الصرب وارساوا أولاً شخصين فلم يجسرا على تنفيذ القرار ولكنهم اطعموا صانع الاحذية في مكتب الصنائع بالاموال وحضر مدحت باشا الى بستان المكتب يوماً فاخفى الرجل وكان من أصل نمساوي وحاول اطلاق طبنجة فلم تساعده جسارته ووقع على الارض مغشياً عليه وندم على فعلته ثم توجه الى قنصل النمسا وفي احدي يديه الطبنجة وفي اليد الاخرى النقود المعطاة له وشرح المسألة شرحاً شافياً فكتب القنصل تقريراً وأرسله مع الرجل الى مدحت باشا فابقاه الباشا في خدمته لان ماضيه غير ملوث لاسيا وقد اعترف بانه قبل هذه المهمة وهو في حالة السكر وفي هذه الاثناء تقدم شاب صربي الى مدحت باشا طالباً الحاقه بخدمة وكيل خرج فرفض الباشا طلبه فظن انه لم يقبله لانه مسيحي وقدم طلباً الى المتصرف مظهراً رغبته في اعتناق الدين الاسلامي فقبل طلبه ودعا نفسه بعمر وعاد الى مدحت باشا لطلب الخدمة وهو من الذين ولدوا في بلاد الصرب وله امرأة وأولاد فكيف ترك أهله وبلاده وحضر وطلب خدمة صغيرة كهذه يوجب الريية وطلبه اعتناق الدين الاسلامي يوجب كثرة الارتباب ولذا فان الحكومة قد أمرت العيون ليراقبوا حركاته فعاد احدهم الى الحكومة بعد عشرين يوماً وقص العبارة الآتية وهي ان عمر يقيم في منزل احد الصربيين المدعويون وقد كتب مكتوباً سرياً الى بلاد الصرب وجوف عصراع ووضعها فيها وسلمه لاحد البلغاريين ليوصله الى بلغراد عن طريق البر فأرسلت الحكومة الرجال فقبضوا على الرسول مع عصاه

في جهة بلونه واعادوه ثم وجدوا في عصاه مكتوباً ذا صيقتين كبيرتين فترجموه من الصرية الى التركية وهو مكتوب الى ميشيل أمير الصرب وكاتبه يوان وخلصته ان الرجل قد حضر الى تركيا بأمر البرنس وأراد التقرب الى مدحت باشا بخدمة فلم يقبله الباشا فاعتنق الدين الاسلامي ولم يوفق الى الاندماج في سلك خدام الباشا أيضاً ولذا فانه عول على استعمال السلاح لتأدية ما انيط به وسيقتله حراس الباشا فهو يرجو البرنس النظر الى عائلته الموجودة في بلاد الصرب

ولما أحضروا الرجل واستكتبوه ثبت ان الخط خطه ولم يتصل من تبعه مكتوبه بل قال انه كتبه وهو في حالة السكر وقد حقق مجلس تمييز الولاية المسألة وأرسل الاوراق الى الاستانة لان مدحت باشا لم ير من الصواب اصدار حكمه على رجل حاول قتله وكان الجنرال ايغنايف يبذل الجهد لتخليصه ولكن مساعيه لم تثمر لان الحكم صدر عليه بالسجن المؤبد وأرسل الى سجن قلعة ديار بكر

وقد ظهرت حوادث متعددة بعد هذه الحادثة قبضت الحكومة على المتآمرين ولم تترك لهم مجالاً للعمل وفي هذه الاثناء طلب مدحت باشا الى المايين للمذاكرة في بعض الامور

تعيين مدحت باشا لرئاسة مجلس شورى الدولة

توجه عالي باشا الصدر الاعظم الى جزيرة كريدو كان فؤاد باشا ناظر الخارجية يقوم بتأدية وظيفة الصدارة العظمى فاستدعى مدحت باشا للتشاور في أمور تختص بولاية الطونه وغيرها من الولايات وعزم مدحت باشا على العودة بعد اتمام ما انيط به وفي هذه الاثناء عاد عالي باشا وقرر بالاتفاق مع فؤاد باشا احداث مجلس شورى الدولة وديوان الاحكام العدلية وأصدر ارادة سنية قاضية بتعيين مدحت باشا لرئاسة الاول وجودت باشا لرئاسة الثاني وعين صبري باشا والي ازمير لولاية الطونه لانه كان قبل تعيينه لهذا المنصب متصرفاً في ودين

وفي ذلك الزمان كان مجلس الوالا مرجعاً لكل الامور فأحلوا محله مجلس شورى الدولة واشتغل مدحت باشا بتعيين الكتاب والعمال في سنة وسن اللوائح

والنظامات وقرر مقادير الموازين والاكيال وحوّلها الى الاصول الاعشارية وقوانين
التبعية ونظام المعادن وغيره

تأسيس مكتب الصنائع في دار السعادة

كان مدحت باشا يتولى أمور رئاسة شورى الدولة وينظر فيما يعود على الامة
بالفائدة فما أحدثه صندوق الامنية ومكتب الصنائع لان الاصلاحات (مدارس
الصنائع) التي أحدثها في الولايات كانت ملجأ للفقراء والايتم وفضلاً عن ذلك فقد
كانت السبب في زيادة عدد الصناع في داخلية البلاد ولذا فان الوكلاء قد طلبوا
احداث مثل هذه المكاتب في دار السعادة وجعلوا محل (قليج خانة) القريب من
جامع السلطان احمد مقراً لهذه المدرسة وقرروا أخذ أجور عبور من الذين يرون
على الجسر العتيق فتكون من محصوله أربعماية ألف من القروش فخصوا هذا المبلغ
بمصاريف المدرسة ولكن المبالغ التي كان يتطلبها هذا المشروع كثيرة وهذا القدر
غير كاف ولذا فان الوكلاء ظلوا يتذكرون اكثر من سنة في الموضوع ولم يحظ
أحدهم بطائل ولما تشكل مجلس شورى الدولة حولوا المسألة على مدحت باشا
وكان مدحت باشا يفتخر باحداث مثل هذه المآثر فقبل ما أنيط به على شرط عدم
تداخل غيره وباشر عمله ففتح المدرسة في ثلاثة أشهر وقبل فيها مائتين من الطلاب
وبعد هنيهة كان عدد تلامذتها ٥٠٠ طالباً ونظم لها النظامات الداخلية والخارجية
اللازمة

عين النظار ايراد الجسر القديم لمصاريف مدرسة الصنائع ولكن محمود نديم
باشا ناظر البحرية اذ ذلك كان يحاول حجز ايراد هذا الجسر باسم نظارة البحرية
فأعطى عالي باشا المكتب الخزان الموجود بغلطة المدعوخان القومسيون وايراده
أربعماية وخمسين ألف غرش وموقع الخزان وحاله يساعد على اكثر ايراد وكان
ذا دور واحد ولذا فان مدحت باشا قد اقترض عشرة آلاف من الليرات وبنى
دوراً ثانياً للخزان ونقل اليه بورصة غلظه فبلغ ايراده الجديد ضعفي القديم
وكان الايتام يدرسون في المكتب القراءة والكتابة والحساب والرياضيات

والصنائع المتنوعة كالحدادة والتجارة وترتيب الحروف وتجليد الكتب وصنعة
الليطوغرافيا وصنع الكبريت وسبك الحروف والخطاطة وغيرها
احداث صندوق الامنية في دار السعادة

ذكرنا ان مدحت باشا قد أسس صندوق الامنية لاسعاف ذوي الحاجات
في الاستانة وهذا الصندوق موجود لليوم وهو يقبل ايداع الاموال ويقرض ذوي
الحاجات بفائدة قليلة

ثورة الطونه الثانية واعادة مدحت باشا لتسكينها

لما فارق مدحت باشا ولاية الطونه خلا الجو لعصابات السلاو فدرسوا
الدسائس وأعلنوا العصيان ورتبوا في صيف العام التالي ثورة اكبر من ثورتهم الاولى
ودبت عقارب كيدهم الى قلبه وغيرها وخاف أهالي أدرنه وغيرهم شرمهم ولما علم
عبد العزيز سر المسألة دعا اليه مدحت باشا وقال له : أنت تؤدب هؤلاء الاوباش
وتعود في القريب العاجل : ووجه اليه الوظيفة واصدر اليه ارادته بالتوجه الى ولاية
الطونه وكان الواجب حاضراً فتوجه مدحت باشا الى روسجق ومنها الى طرنوه وكان
عدد الاشقياء في هذه المرة اكثر من ذي قبل ولكن الاهالي قد اعتادوا الحركة
البغارية في العام الماضي فلم يكثرثوا لها هذا العام

فعل مدحت باشا بالاشقياء ما فعله في العام السابق فانطلقت جذوة نار الثورة
في عشرين يوماً وعاد مدحت باشا الى الاستانة

عاد الامن الى ربوع الولاية ولكن صبري باشا والي الطونه قد وقع في نالسة
وقدم استعفاؤه الى الاستانة فعينوا مكانه عاكف باشا والي سلانك
وأرسلوه اليها

مدحت باشا في ولاية بغداد

كان مدحت باشا في رئاسة شوري الدولة يسن القوانين ويحدث اللوائح وكان
من الواجب على الحكومة احالة كل شيء على هذا المجلس ولكنها لم تفعل ذلك
بل كانت تصدر بعض النظمات قبل عرضها على شوري الدولة فلم يقبل مدحت

باشا أعمالها وعزم على التوجه الى احدي الولايات وصادف عزل تقي الدين باشا والي بغداد فأظهر مدحت باشا ميله الى تلك الولاية فوجهت اليه وظيفة والي بغداد مع نظارة الفيلق السادس

الغاء الرسوم المضرة في بغداد واحلال الاعشار محلها لما أحدثت الحكومة نظام الولايات جعلت بغداد ولاية أيضاً وبقيت أحوالها المالية والادارية على ما كانت عليه في السابق فلم تحدث اصلاحاً ولا تبديلاً بل ظلت تأخذ الايراد كما كانت تأخذه قبل اليوم ولم ترسل عساكر الاترك الى بلادهم وتجنّد العساكر من أهالي البلاد وبعد هذا وذلك فانها لم تترك أيضاً الاستبداد القديم بل كانت تقبض على الافراد وتجعلهم خاضعين لنظام العسكرية واذا حكم على احدهم بالسجن لجرم عادي أدخلته في سلك العسكرية وقد جعل مدحت باشا هاتين المسألتين نصب عينه

ولاية بغداد بلاد واسعة يلزم لكل منها متصرفاً ولكن هذه الولاية كان يلتزمها ناصر باشا وهي فعلة تحالف قوانين الدولة ونظاماتها فرتب مدحت باشا الامور وقسم البلاد الى تقسيماتها الادارية المتبعة

اجراء الاقتراع والقتل التي حصلت بسببه

اشتغل مدحت باشا بالاصلاحيات الادارية والمالية وعزم على جمع افراد العساكر النظامية من بغداد ومن غيرها غير ناظر الى ما يحول دون ذلك من المصاعب وقد رأى من الواجب الابتداء بمركز الولاية ليكون أهلها قدوة للناس وأمر من يلزم بمباشرة العمل في اليوم التالي وفي قرب المساء وقبل غروب الشمس سمع أصوات الرصاص فسأل عن السبب فقيل له ان أهالي البلدة قد اجتمعوا في أماكن متعددة ونهبوا بعض الدكاكين ثم توجهوا الى محلات اليهود والنصارى أما كن متعددة ونهبوا بعض الدكاكين ثم توجهوا الى محلات اليهود والنصارى استعفاء مدحت باشا بعد ان أخذوا منه نظارة الفيلق

جرت عادة حكومة الاستانة من قديم على خطة الجمع بين ادارتي الملكية والعسكرية ولكن بعض ذوي الاعراض قد سعوا بمدحت باشا فأخذوا منه نظارة

الفيلق فاستعفى من الولاية بعيد توجهه الى بغداد وقد حدثت الثورة الاهلية بعد استعفاء مدحت باشا وكان المأمور بقيادة العسكر ساح باشا ولكن سبب ثوار الاهالي مسألة الاقتراع وهي من أعمال مدحت باشا ولذا فان الاخير قد توجه الى الثكنة العسكرية وأعطى الاوامر اللازمة للعساكر وأمر باحاطة محلة اليهود والنصارى بالقوة الكافية لمنع المسلمين عن التعدي على أموالهم وأرواحهم وأحاط المدينة بالجنود لمنع العصاة عن الفرار ولما رأى الثوار هذه الحركة تفرقوا شذراً وشذراً وانتهت المسألة بسلام وفي اليوم الثاني والثالث بحث مدحت باشا عن مسببي هذه الحادثة وأدخلهم في سلك العسكرية بلا منازع ولا قرعة

إبقاء نظارة الفيلق في يد مدحت باشا

بعد انتهاء الثورة بأسبوع تقريباً ورد لتلغراف من الاستانة مفاده أن نظارة

الفيلق باقية كما كانت في يد مدحت باشا

وصادف في هذه الاثناء ان شاه العجم أرسل موظفاً مخصوصاً الى بغداد يقول ان أهالي (اورامان) الكائنة على الحدود العثمانية والتابعة لبلاد العجم قد خالفوا حكومتهم وعزمت على تأديتهم وصدر أمر الباب العالي بمنع أهالي هذه القرية عن تجاوز الحدود العثمانية وكان تنفيذ أمر الباب العالي يتوقف على وجود قوة عثمانية على حدود العجم لان أهالي الحدود المذكورين هم من الشجعان الذين لا يهابون الموت ولذا فقد أرسل مدحت باشا خمس طوابير لمنع مرورهم

ودخل عساكر العجم بلاد العصاة وعاملوهم بقسوة لم يسمع بمثلا فاضطروا الى دخول الاراضي العثمانية ورأوا عساكرنا على الحدود فجأوا الى عبارة وحيدة في بابها وهي انهم اشاروا على النساء فحملن الاطفال وتقدمن وتبعن الرجال وهكذا استمر هؤلاء الاهالي وعددهم يبلغ العشرين ألفاً على الابتعاد عن بلادهم حتى وصلوا الى السلمانية فانزلتهم الحكومة هم وأولادهم على الرحب والسعة وقامت بقوتهم وقوت عيالهم مدة ثلاثة أشهر وبعد ذلك عفت عنهم حكومتهم بواسطة الباب العالي فعادوا الى أوطانهم

قتل منصرف الخلة وضباطها ومسألة دغاؤه

كان تقسيم أموال الحكومة في بلاد العراق يخالف بقية الولايات وكانت النية معقودة على اصلاح هذه النقطة أيضاً لأن الاموال كانت تحصل بقوة العساكر وكانت العشائر تفتصب أموال الحكومة وتأخذ أراضيها وترفض دفع الضرائب وفي هذه الاثناء أرسلت الحكومة الى ديوانه مقداراً من العساكر لتحصيل الاموال تحت قيادة الميرالاي وكان متصرف الخلة معهم وكان المدينون من العربان سكان الخيام فنصب العساكر خيامهم في جهات دغاؤه وعفك وكان عددهم (٣٨٠) على ان المكان الذي نزلوه محتو على بعض القبائل الوحشية وقبيلة عفك عازمة على الثورة ولذا فان المتصرف والميرالاي قد توجهوا الى هذا المكان ونزلا في مكان محاط بالثخيل فأرسل رؤساء الثوار عشرة آلاف من الفرسان والرجال فقطعوا عنهم الماء وحاصروهم من جهاتهم الاربع فقابلهم الاهالي بالسلاح ودخل الفريقان في معركة دامت ثلاثة أيام وقتل فيها عدد غير قليل من العساكر وبينهم المتصرف والميرالاي والبكباشي ولما علم مدحت باشا باشتداد الازمة أرسل ساه باشا وأرسل الى ناصر باشا وأخيه فخفوا الى العدو بعدد من العرب

كل هذه الحوادث هي مقدمة المسألة الشهيرة بمحادثة دغاؤه على هذا النسق وصل عدد العساكر المحتشدة في ديوانه الى سبعة طواير من المشاة والآلي من الفرسان وأربعة آلاف من فرسان جهة (متفك) واكثر من ألف وخمسمائة من الاكراد كاملي العدد والعدد ولما وصل الفريق الى ديوانه مر عليه شهر ولم يأت بحركة فحمل العرب سكوته على الخوف واستمروا على بغيتهم والتحق بالعصاة بعض القبائل كقبيلة الخزاعل وبني حكيم وجبور وابي سلطان وحاصروا العساكر في القلاع وفي بعض الاماكن وضيقوا الحصار على الفرقة المقيمة بديوانه ونهبوا الارزاق المرسلة الى العساكر من الخلة عن طريق الفرات فزاد اضطراب العساكر الى الزاد وقطعوا الاسلاك التلغرافية فتمسرت الخبايرة

ورأى مدحت باشا ان دوام هذه الحالة يزيد الطين بلة ويوسع الخرق على

الواقع فتوجه بنفسه وأخذ معه ثلاثمائة من العساكر واستصحب يحيى بك أركان الحرب الموجود اذ ذلك في بغداد

تبعه ديوانه عن بغداد (٣٢) ساعة وبين البلدين (الحلة) وقد وصل مدحت باشا الى الحلة وحادث الفريق وناصر باشا واللواء احمد باشا وغيرهم وبحث عن الطرق الموصلة الى مخاطبة العساكر المحصورين وكان مع الفرقة طاهر بك (طاهر باشا الآن) فبدل قيافته وحضر مع عدد من العساكر ومعه مضبطة مصدق عليها من الضباط فخواها ان العصاة قد جمعوا جموعهم ومعهم السلاح اللازم فيجب الصلح معهم حقناً للدماء ومنعاً للكساد الحاصل بسبب تعطيل الاشغال الزراعية والتجارية وقال طاهر بك ان العساكر قد عقدوا الهدنة مع العصاة وكتبوا شروط الصلح وارسلوا لهم رهناً وان الفريق قد كتب أمراً وارفته بالصحف وفعل أفعالاً لا تنطبق على عظمة الحكومة ولا توافق شرفها وهذه الاعمال لا تؤثر في تلك البلاد وحدها بل تحدد بالاهلين الى شق عصا الطاعة والخروج على الحكومة وكانت الطرق مسدودة بالعصاة بيد ان ياور مدحت باشا المدعو محسن افندي قد قطع الطريق في (١٤) ساعة ودخل في وسط العصاة المقيمين في ديوانه وكتب مدحت باشا الى القومندان فزله واحل محله اللواء احمد باشا وقال للمعزول ان المضبطة المعطاة للعصاة قد الغيت

أحضر مدحت باشا من بغداد (٣٠٠) من العساكر وزاد عليهم من افراد الحلة فبلغوا طابوراً وتوجه الى ميدان العصاة في اليوم التالي وخرج القومندان في عدد من عساكره فقابل مدحت باشا في وسط الطريق على شاطئ نهر الفرات وكان الزراع قد فتحوا فوهة لاسقاء اراضيهم فنوسمت وكونت بحيرة كبيرة وتكونت في وسطها شبه جزيرة تحصن فيها العصاة وكانت الجزيرة بعيدة عن مرمى المدافع ولا سبيل الى الاقتراب منها بالمرابك الشراعية وكان العرب يثرون اعتماداً على حصانة هذه النقطة وعليه فلا سبيل الى اخضاع العصاة الا بتجفيف تلك البحيرة وكان مدحت باشا قد أحضر بعض العمال فتمهدوا بسد تلك

الفوهة في أسبوع ونصف أسبوع وابتدأوا في العمل واجتمع العساكر من جهة
 وبينما هم على تلك الحال حاصرهم الاشقياء وأطلقوا عليهم الرصاص ثلاث
 ليال فلم تصيبهم مرميات البنادق لانها من الطرز القديم وقابلهم العساكر بالمدافع
 والبنادق فمات منهم خلق كثير وحضر شيخ جيور المدعو خليل وقدم الطاعة واقام
 هو ورجاله البالغ عددهم (٢٠٠٠) في محل قريب من المعسكر وفي احدى الليالي
 هاجم فرسان (منتفك) فاصابهم ببعض الضرر وقابلوه ففر بجنوده وعرف العصاة ان
 العساكر المنظمة لا تبيح لهم التعرض لها ولا يهزمها كثرة عددهم وكان عددهم
 يربو على المائتي الف فاغثروا بسبب ما رأوه من التسامح من فرقة ديوانيه وحضر
 الشماشجي عبد الكريم من حلب وعلموا ان سد الفوهة يوتر في زراعاتهم فهاجموا
 العساكر ليل نهار فارسل مدحت باشا عدداً من العساكر تحت قيادة احمد باشا
 فقابلوا العصاة واستشهد منهم ستة وجرح بعضهم ومات من العصاة (٥٠٠) وفروا
 من وجه العساكر وحاول بعضهم اقتحام النهر ففرق منهم خلق كثير وتفرق شمل
 الباقين عند ما رأوا انهزام رفاقهم

وعينت الحكومة عدداً من الفرسان والاكراد لتسكيل الاشقياء فقبضوا على
 اكثرهم وجاوا بقاطعي الاسلاك التلغرافية مع قطع من الاسلاك
 وبعد (١٣) يوماً انتهى السد وجف ماء البحيرة وشرع العصاة يظهرون الطاعة
 وانطفأت جذوة العصيان

هذه هي حادثة دغاارة وهي اكبر حوادث العراق الثورية فقد اجتمع فيها
 قبائل الشيعة وشقوا عصا الطاعة في وجه الحكومة وفاق عددهم المائة الف وقتلوا
 المنصرف والميرالاي والبكباشي وقطعوا المواصلات التلغرافية والسبب في هذه
 المذابح شيخ عفك ودغاارة وقد حاولوا بذلك ابتلاع أموال الحكومة فاحلهم مدحت
 باشا على المحكمة لمجازاتهم واصدر عفواً عمومياً عن بقية الاهالي واعاد مانهبه
 العرب من أمتة العساكر وبنادقهم وعاد الى ديوانيه

عاد الافراد الى ديوانيه واحضروا مانهبه العرب من الاواني والخيم وكان

بعض العرب قد رمي عربة الى الفرات بمدافعها فاخرجوها بشق الانفس واعادوها الى الحكومة وقبضوا على شينجي دغاره وعفك وسلموها الى الحكومة بهمة ناصر باشا وتشكلت لجنة فحكت عليهما بالاعدام وصلبوا على رأس جسر ديوانيه وأرسل بعض رؤساء القبائل العاصية الى الاستانة لتبعدهم الى الروميلي واظهر ناصر باشا وأخوه منصور باشا همة لا تنكر في هذه الحادثة

حضر عبد الكريم شيخ قبيلة شمر الى بغداد في اثناء هذه الحادثة للغارة والنهب ورأي المسألة قد انتهت فقابل مدحت باشا مدعياً انه قد حضر لمعاونة الفيالق العثمانية فلم يأبه لاقواله ولم يظهر له الامتناع بل أخذه معه وعاد الى بغداد في شهر كانون الاول

مسألة أراضي العراق

تعرضت بلاد العراق للحروب والغارات وتهديد الامن وكثر الثوار في جهات هندية والحله وغيرها كما لا يخفى على عارف أحوال تلك البلاد وقد اختلفت الافكار في شأن هذه الثورات فمن قائل ان أهالي البلاد هم من الشيعة وسبب شقهم عصا الطاعة هو ان رجال الحكومة يخالفونهم في المذهب ومن قائل ان رؤساء القبائل يحثون الافراد على مقاتلة الحكومة للتخلص من الاموال الاميرية وهذه الاسباب غير كافية لانه لا يعقل ان هذا العدد الكبير يثور ويهدر دمه باشارة المشايخ والذي ينظر الى حالة البلاد يتضح له ان سبب هذه الخاصات هي مسألة الاراضي

ان اراضي العراق واسعة وأهلها كثيرون ولكن الخراب قد اعتورها فأصبح الاهلون في ربة الفقر فالواجب اذاً ازالة الداء واجتثاث جرثومته فان الحكومة هي صاحبة الاراضي في العراق وهي تستخدم الاهالي لزرعها وتعطيهم الثلث وتأخذ الثلثين

والناظر الى أحوال الاهالي هناك يظن الاهالي متمعين بحقوقهم المدنية والحقيقة هي غير ما يظن لان الزارع في العراق لا يشتغل بتربية الحيوانات وغرس

الاشجار بل يكتفي بالزراعة ويشكو ظلم الرؤساء والمشايخ ولا يجد قوت اولاده فهو
يميل الى القتال ويرجع ترك البلاد لاقبل حادث

وليس هذا حال الافراد فالمشايخ أيضاً يأخذون الاراضي من الحكومة لمدة سنة
ولا يرون اعمارها فرضاً عليهم لانها ستعاد الى الحكومة بعد هذه المدة وهم ينتهزون
كل فرصة للقيام في وجه الحكومة

هذه هي الاحوال التي أوصلت أراضي العراق الى حالتها وجعلت أهلها
يتضورون من الجوع بعد ان وصلت بلادهم الى درجات العز قبل اليوم وكانت
مشهورة بين بلاد العالم بثروتها ومحصولاتها وجودة تربتها

ولا يخفى على اللبيب أن أهالي كل بلدة يحافظون على أملاكهم لانهم أصحاب
البلاد واذا لم تكن لهم أملاك وكانوا كالرحل لا يقيمون في بقعة من الارض عدوا
البلاد غير بلادهم ولم يحتفظوا بها

فتح الفاروق هذه الاراضي وفرقها على الصحابة اذ ذاك لانه عدها ملكاً
للحكومة وما ذلك الا لانه خاف صولة الاعداء وشقهم عصا الطاعة اذا صارت
الاراضي ملكاً لهم

وبعد كل هذا رأيت الاراضي العراقية كثيراً من التقلبات ودخلت في حكم
الاراضي الاميرية غير ان الحكومة العثمانية لم تعرها نظر الاصلاح فالاراضي
الكائنة على جانبي الدجلة والفرات تمتد نحو ٢٠٠ ساعة وهي خالية من الزرع ولم نر
في حكومة من الحكومات مثل هذا الاحتكار وطالما تبدلت مجاري الانهر وامتلاً
بعضها بالحجارة ولم تفكر الحكومة في اصلاحها الامر الذي حدا بالاهالي الى
الدخول في حال البداوة وترك الزراعة وعلى ذلك يجب النظر الى هذه الامور
لاصلاح أراضي العراق ولذا فان مدحت باشا قد وضعها نصب عينيه وكتب الى
الباب العالي طالباً قيد الاراضي باسماء أصحابها لان أراضي تلك البلاد لا تشابه في
تربتها أراضي بلاد الروميلي او أراضي الاناطول لان ارواءها متيسر بواسطة الانهر

وهي تعطى المحصول الجيد في كل عام مرة او مرتين وكان قصد مدحت باشا
 بيع بعض هذه الاراضي للاهالي بالاقساط
 وكان أصحاب الاراضي قبل اليوم يتركونها غير مبالين بقيمتها بسبب الكوارث
 والثورات التي لم تخل منها البلاد يوماً من الايام
 وابورات الدجلة والفرات

رأى مدحت باشا ان مسألة الاراضي هي التي يجب تقديمها على كل شيء
 وجعلها باكورة أعماله في العراق فظهرت محاسن نتائجها في البلاد بيد ان الرفاه
 والسعادة لايتان بهذه المسألة وحدها اذ المحصول في البلاد محتاج الى النقل والناس
 في حاجة الى بيع ارزاقهم واستجلاب ما يحتاجون اليه من الخارج والوسائط معدومة
 ولا سبيل الى بيع المحصول عند وفرة واذا كان العام عام عسر تسرع على الاهالي
 شراء ما يلزمهم من الخارج فمسألة النقل اذاً مهمة بل هي ثانوية بعد مسألة الاراضي
 وطرق المواصلات متيسرة في الدجلة والفرات بيد ان الانكليز قد اشتغلوا بهذه
 المسألة وانشأوا بعض السفن التجارية وابدلوا الجهد لتسييرها فلم يوقفوا الى بغيتهم
 ونهر الدجلة غير صالح للملاحة من بغداد الى ما فوق ولكنه صالح منها الى البصرة
 وهناك شركة انكليزية قد أخذت رخصة من الحكومة بتسيير وابورين فرخصة
 لها وحاول نامق باشا معارضتها فجلب آلات وابورين من اوربا وصنعها في بغداد
 وأراد تسييرهما فلم يوفق

وقد جرب مدحت باشا احد الوبورين لتسييره بين البصرة و بغداد وصدر
 له الامر من الباب العالي بصرف خمسة آلاف كيس من النقود سنوياً لترويج
 الامور التجارية فابلغ عدد وابورات الدجلة الى ثمانية وشكل لهم ادارة مخصوصة
 ونظم آلات الفابريكة التي كانت قد أنشئت في بغداد و بقيت عاطلة وخصصها
 لتصليح هذه الوابورات

وفي هذه الاثناء انشأ قتال السويس وراجت التجارة في البصرة وكان سير
 الوابورات في القتال وفي البحر الاحمر يؤثر في مركز الدولة تأثيراً مادياً وسياسياً

ولهذا قد اشترى مدحت باشا وابوراً كبيراً دعاه بابل واثنين آخرين أحدهما (نينوا) والثاني (نجد) وزاد عليهما وابوراً آخر اسمه (آشور) وجعل سفرهم مرة كل ثلاثة أشهر عن طريق البحر الاحمر وفي القتال من بغداد الى انكلترا ولما كان الفحم يجلب من انكلترا وجب مرور هذه البواخر على عدن ومسقط وبندر بوشير وعين الموظفين من العمانيين وأحضرت لهم الادوات اللازمة لشركات الملاحة وكانت الحكومة توجد في مستودعات الشركة عشرة آلاف طونلاته من الفحم بصفة دائمة أما وابور بابل فقد صنع في انكلترا للسير بينها وبين استراليا وأفلسنت الشركة التي صنعتها وبيع بالمزاد فاشتراه مدحت باشا بمبلغ ثلاثة وثلاثين ألفاً من الليرات بعد انشائه بستين وكان ثمنه جديداً (٨٨) ألف ليرة وصادف سفره من الاستانة موسم الحج الشريف فبلغ مجموع ما حصله من أجرة نقل الركاب (٣٥) ألف ليرة وكان اسم هذه الشركة (شركة عمان العثمانية) فاشتهرت بهذا الاسم في تلك الانحاء أما الواورات التي كانت تشتغل في النهر فكان صافي ايرادها الشهري يبلغ الالف ليره وبذا ظهرت فوائد الشركة واستفاد الاهالي منها مادياً وادياً ولم يكتف مدحت باشا بالطريق البحري بل عطف نظره الى الطريق البري الموصل الى بحر الروم عن طريق حلب

تطهير نهر الفرات

ذكرنا ان الانكليز قد بذلوا جهدهم لتسيير السفائن في الفرات واشتغل الكولونيل ششني بهذه المسألة زمناً طويلاً فلم يحظ بطائل وكان قد أنزل بعض الواورات في جهة البراجيك ففرقت في نهر الفرات وعد غرقها من باب القضاء واقدر لان نهر الفرات جسيم وصالح للملاحة ولا يوجد مانع سوى في جهة بلدة (هيت) ومنها الى (عانه) وسبب ذلك انهدام بعض المباني الكائنة على ضفتيه وبقاء الاجمار في قاع النهر وقد توجه مدحت باشا بنفسه ورأى ان ازالة الاجمار ممكنة وأرسل في السنة التالية شاكر بك مهندس الولاية (شاكر باشا الآن) وأرسل معه عدداً من الخبراء لسبر غور النهر فماد شاكر بك قائلاً ان نهر الفرات مساعد على

مرور السفائن ثم أحضر بعض العمال فاشتغلوا بتطهيره مبتدئين بهيت ومجاوراتها والفرات مشهور بسرعة جريان مائه فالسفن السريعة هي التي تقدر على السير فيه ولهذا السبب فإن مدحت باشا قد طلب وابوراً من نوع الواورات التي يستعملها المساويون فحضر الوابور بعد انفصاله من ولاية بغداد وسموه مسكنة وهو يسير لليوم بين بغداد ومسكنة

مسألة سد الجزائر

من المسائل المهمة التي تجب ملاحظتها لاصلاح بلاد العراق مسألة سد الجزائر وذلك ان نهر الفرات يفيض في كل سنة فيغرق الاراضي الكائنة على ضفتيه من جهة (منتفك) الى (قورنه) ومن البصرة الى الجهة المسماة (هور عبد الله) فيتلف الاراضي التي يبلغ طولها خمسين ساعة وكانوا قد صنعوا سدوداً لحفظ هذه الاراضي غير انهم أهملوها فانهدمت وغير النهر مجراه واحاط بالبصرة فأضر بهوائها وكانت منفعة البلاد وزراعتها تقتضي تجديد هذه السدود وهي طويلة لا تقاس بسدود (دغاره) و(هنديه) فطولها يمتد اكثر من عشرين ساعة ولا سبيل الى اصلاح هذا الرق الا بتطهير الفرات وهو يحتاج الى (الكراكت) والعمال الذين لا يقل عددهم عن مائة الف عامل يومياً وذلك لا يتم الا بهمة رجل كناصر باشا وقد أحضره مدحت باشا وحادثه في هذه المسألة وقرر الذهاب الى تلك البلاد في الصيف واحضر الكراكت والآلات اللازمة فحضر في ذلك الوقت شاه العجم الى بغداد لزيارة البقاع المقدسة واشتغل مدحت باشا ومعيته باستقباله فتأخرت مسألة السد

انشاء صندوق الامنية والمستشفى والاصلاحخانه (مكتب الصنائع) وغيرها

من الملاحي النافعة

لما فرغ مدحت باشا من مشكلة التجنيد وثورة القبائل وأصلح الاراضي وانشأ السفن وطهر نهر الفرات وحفر جهة (الكنمانية) وخفف ويلات الاهالي التي سببها القحط في السنين الاخيرتين ورتب الولاية طبقاً للقانون الجديد ثم وضع نظاماً

للتحصيل وانشأ البلديات ولم يكتب بكل ذلك بل احدث صندوقاً للتوفير كصندوق الاستانة وانشأ مكتباً للصنائع كالمكاتب التي أنشأها في بقية الولايات وأسس جريدة باسم الزوراء وجلب لها مطبعة وجعل المطبعة تابعة لمكتب الصنائع وانشأ مستشفى للغرباء وقد بذل ناصر الدين شاه (ملك العجم) الفين من الليرات لاعانة المستشفى ومكتب الصنائع

جنيذة البلدية مكنة الماء فابريقة الغاز وفابريقة الارز

من اثار مدحت باشا جنيذة البلدية وانشاء جسر (كبري) الدجله الكبير وانشاء فابريقة لتنظيف الارز وجلب المكينات البخارية لرفع المياه واحضار آلة لتصفية معدن البترول الموجود بحجة (مندلى) واطاعة القرى والبلدان بمصايح البترول

ترام الكاظمية

احدث مدحت باشا في السنة الثانية ترام الكاظمية لان البلدة تبعد عن بغداد ساعة ونصف ساعة وأهلها يشتغلون بالتجارة والصناعة في بغداد وهم يركبون الحخير في ذهابهم ومجيئهم وقد أحصى مدحت باشا عدد الذين يحضرون يومياً الى بغداد فثبت له ان عددهم كاف لانشاء ترام فانشأ لتسهيل المواصلات واطهار آمار المدينة لاهل بغداد وكان طوله سبع كيلو مترات وجعله شركة مركبة من ستة آلاف سهم كل سهم بليرتين ونصف ليره وأحضر أدواته وعربات من لندره واتم انشاءه في سنة فبدأ بنقل الركاب في ختام تلك السنة

وقد بلغت نفقات عربات الترام ولوازمه وخيوله (١٨) الف ليره وبقي على رجال الشركة دين يبلغ ستة آلاف ليره ولكن أرباحه كانت تربو على عشرين في المائة ولذلك فان أرباب السهوم قد سدّدوا ديونهم من صافي الايراد

المكينات المشتراة لتسج ملابس العساكر وأعمال الدقيق

كان مدحت باشا يريد صنع ما يلزم لافراد الفيلق السادس من الملابس الاحذية في بغداد وبالفعل توفّق الى ذلك فكان لايجلب سوى الطرايش من

خارج بغداد وكان نامق باشا قد أحضر آلة لطحن الحبوب فلم تأت بالفائدة المطلوبة بل صاروا يحضرون الدقيق بواسطة الطواحين اليدوية الامر الذي لم يشاهده احد في بلاد متمدنة وكان عدد الفيلق سبعة آلاف فبلغ العشرة آلاف بعد احداث القرعة العسكرية ولم يبق ثم مجال لاحضار الدقيق لهذا العدد بما كانت اليد فأوصى مدحت باشا احدى الفابريقات الاوربية بصنع ماكنة بقوة سبعين حصاناً لاعمال الدقيق وغيرها لاعمال الجوخ والقماش وأرسل أحد المهندسين لهذه الغاية

وصادفت الحرب الافرنسية الالمانية فلم تحضر هذه الماكينات من فرنسا وانفصل مدحت باشا عن بغداد وبعد هنيهة أرسلت الماكينات وأخرجت بالبصرة فلم ينظر اليها احد بل بقيت في الرمل تحت الشمس والمطر ولم تنفع بها الحكومة ولا الامة ويقول بعضهم ان حسين فوزي باشا قد اخرجها من الرمل بعد زمن وبني لها المكان اللازم واستعملها للغاية التي جلبت لها وهو قول يحتاج الى الاثبات

حضور شاه ايران الى بغداد

في سنة (١٨٦) حضر شاه ايران الى بغداد فقبول بالحفاوة والاكرام وصحبه مدحت باشا كما اقتضت ذلك ارادة السلطان عبد العزيز وكانت السنة سنة قحط وغلاء فاضطرت الحكومة الى اطعام رجال معية الشاه الذين حضروا معه وكان عددهم يتجاوز العشرة آلاف واحضرت ايضاً علف دوابهم وفرشت للشاه قصرأ فبلغت كل هذه النفقات (٣٠) ألف ايره ولا يفوتن القارئ ان الشاه قد أقام بهذا العدد من الرجال ثلاثة شهور في بغداد وضواحيها

مسألة العملة الايرانية

انتهز مدحت باشا فرصة زيارة الشاه هو ووزراؤه وحل الحوادث المحتف فيها بين بغداد وحكومة العجم من قديم فن تلك الحوادث النقود العجمية المتداولة في بغداد كالقران الذي يساوي ثلاثة غروش ونصف غرش في بلاد العجم وأهالي بغداد يتعاملون به بخمسة قروش فبعد الاخذ والرد بين الوزراء قرروا تنزيله الى ثلاثة قروش وربع قرش

وقرروا أيضاً نقل الاموات الذين يموتون في ايران ويريد ذروهم دفنهم في الاماكن المقدسة بعد سنة من تاريخ موتهم لان نقلهم في اسبوع الوفاة ينتج اضراراً وخيمة بسبب الروائح الكريهة

دفائن النجف

ومن هذه المسائل الذخائر الثمينة التي كان يهدبها الهنود والايраниون الى مدافن شهداء النجف من قديم فان هذه التحف قد دفنت في مغارة منذ (٨٠) سنة يوم هجوم الوهايين فاخرجها مدحت باشا بحضور شاه العجم ووجدان المصاحف وغيرها من الكتب القديمة قد حل بها البوار أما اليواقيت والجواهر فقد بقيت على حالها وهي تساوي ما يربو على الثلاثماية الف ليره واقترح مدحت باشا اقتراحاً وهو بيع هذه المجوهرات واتشاء خط حديدي من النجف الى ايران لتسهيل طريق الحجاج فلم يوافق العلماء فاعاد مدحت باشا هذه الاشياء الى مدفنها وختم بابه هو ورفاقه وزراء ايران

مسألة هموند

وحادث مدحت باشا في هذه الزيارة وزراء ايران عن قبيلة هموند تلك القبيلة المتوحشة التي تشتغل باقتل والغارة والسلب فاذا حاولت الحكومة العثمانية ارجاعها الى الرشيد والصواب لجأت الى البلاد الايرانية فلم يوفق الى حسم هذه المسألة واضطرت الحكومة الى استعمال السلاح لحفظ التخوم العثمانية من شر افراد هذه القبيلة بالقوة

الغاء طريقة الخرص من البصرة وتحويل الضرائب الى مقدار الاراضي كانت الحكومة تحصل الاموال الاميرية من أهالي البصرة أرباب النخيل بالتخمين وهذه الطريقة تضر الاهالي وتضر خزينة الحكومة معاً لاسيما وان المحصول الوحيد في تلك الولاية هو التمر وقد اشتهر المحمنون بدسائسهم وارتكاباتهم وكان مدحت باشا قد توجه بنفسه الى البصرة بعد مسألة دغاره وعلم ان مسألة التخمين هي ظلم صريح لان مال الخزينة ومال الاهالي يكون بين شفهي المحمن

وقد جمع مدحت باشا زعماء العشائر وتذاكر معهم في هذه المسألة وأخيراً اتضح له ان هذه القاعدة قد وضعت بعد زمن عمر بن الخطاب وبعد الاخذ والرد قرروا بالاتفاق تقسيم هذه الضريبة على المقدار المزروع من النخيل نقل البصرة الى ساحل شط العرب

اشتهرت مدينة البصرة بهوائها الرديء وكانت على نهر يقال له نهر عشار وهو متشعب من شط العرب وكانت كثرة الاشجار والمستنقعات يجعل هوائها غير صالح للاستنشاق اما أهلها فمشتغلون بالتجارة وعليه فشط العرب أحسن موقعاً لهذه المدينة وكانت الحكومة قد قررت بناء مقر لها غير البيت الذي كان مستأجراً ولهذا الاسباب أمر مدحت باشا ببناء بيت الحكومة على شط العرب وبني بعض التجار بيوتاً حوله

تأسيس بلدة الناصرية

تحول سنجاق المنتفك الى متصرفية واكثر اهاليه من سكان الخيام الرحل وليس فيه من القرى سوى قرية صغيرة تدعى بسوق الشيوخ وقد تداعت بيوتها للخراب ولا سبيل الى تعميمها ولهذا السبب فان مدحت باشا قرر انشاء قرية تلي شاطئ الفرات مجاورة لتلك الانحاء وحدث ناصر باشا في شأن انشائها فتعهد ناصر باشا بصرف ما يلزم لتأسيس مكان للحكومة في القرية الجديدة وثكنة للعساكر وجامع ومكتب من جيبه الخاص فأنشأ مدحت باشا تلك القرية وبني بعض الناس البيوت والدكاكين وسماها الناصرية وهي اليوم مقر حكومة متصرفية (منتفك)

الحاق الكويت بالبصرة بعد جعلها تابعة للدولة العثمانية

تبعد الكويت عن البصرة (٦٠) ميلاً في البحر وهي كائنة على الساحل بالقرب من نجد واهلها كلهم مسلمون وعدد بيوتها (٦٠٠٠) وليست بتابعة لاية حكومة وكان الوالي السابق نامق باشا يريد الحاقها بالبصرة فأبى أهلها لانهم قد اعتادوا عدم الازعان للتكاليف والخضوع للحكومات فبقي القديم على قدمه ونسل هؤلاء العرب من الحجاز وكانوا قبل (٥٠٠) سنة قد حضروا الى هذه

البقعة هم وجماعة من قبيلة المطير وواضع اول حجر في تلك البلدة رجل اسمه صباح وقد كثر عدد أهلها على تمادي الايام وشيخها اليوم اسمه عبد الله بن الصباح وهو من هذه القبيلة

والاهالي هناك شوافع وهم يديرون أمورهم معتمدين على الشرع الشريف وحاكمهم وقاضيهم منهم فهم يعيئون شبه جمهورية وموقعهم مساعد على الاحتفاظ بحالتهم الحاضرة

وهم لا يشتغلون بالزراعة بل بالتجارة البحرية وعندهم الفان من المراكب التجارية الكبيرة والصغيرة فهم يشتغلون بصيد اللؤلؤ في البحرين وفي عمان وتساير سفاتهم الكبيرة الى الهند وزنجبار للتجارة

وقد رفعوا فوق مراكبهم التجارية راية مخصوصة بهم واستعملوها زمناً طويلاً غير ان خوفهم من غارة الاجانب عليهم قد حدا بهم الى رفع الرايات الاجنبية فرفع بعضهم راية الفلمنك وآخرون راية الانكليز واعتادوا على هذه العادات بالتدريج وبدأت مقدمات الحماية الاجنبية تظهر فيهم وقبولهم الحماية الاجنبية يعد ضربة قاضية على استقلال البصرة ولهذا السبب فقد دعاهم مدحت باشا واعفاهم من الرسوم الجزكية وغيرها من التكاليف الاميرية فوافقوا على قبول حماية الدولة العلية ولذا فقد جعلهم تابعين لولاية البصرة ودعا عبد الله بن الصباح بقائم مقام الكويت وابقاه كما كان وابقى غيره من الموظفين أيضاً ولم يغير شكل حكومتهم بل احضر لهم من الاستانة البراءات الرسمية وما يثبت اتباعهم للدولة العثمانية وأمر بالرايات الاجنبية فأنزلت عن سفاتهم وحلت محلها الراية العثمانية

احوال نجد

انتهت مسألة الكويت القريبة من نجد غير ان نجداً لم تزل في حالة سيئة من اختلال أمن وسوء ادارة وهي متصلة تمام الاتصال بالكويت والناظر اليها من بعيد يعين الحذر يرى انها ستصل يوماً ما الى ما وصلت اليه عدن وعمان ومسقط وقد نظر مدحت باشا الى هذه المسألة بعين الاعتبار وفي العام الثالث من وصوله

ارسل الى نجد مقدارا من الجنود وامر باحتلال الحسا ولا بد لنا من شرح هذه المسألة لما لها من الاهمية

ان قطعة نجد هي خمس جزيرة العرب وفي زمن السلطان سليمان الكبير بعد ان فارق البورتقاليون البلاد التي احتلوها في خليج العجم ارسل السلطان الى نجد والحسا وجزيرة البحرين والياً عثمانيا وبقيت هذه البلاد تحت ادارة الدولة زمنًا طويلاً ولكن الوهابيين تغلبوا عليها قبل توجه مدحت باشا بمصر وبقى النفوذ فيها لابناء سعود واستقلت حكومة البحرين ودخلت تحت حماية الاجانب

ولما كبر امر الوهابيين وظهر منهم ما ظهر ارسلت القوى العسكرية من مصر وعادت قطعة رياضي والحسا ودرعية نوعا ما الى حوزة الدولة وانسحبت العساكر المصرية من هناك واشتغلت الدولة العثمانية بغوائلها الداخلية وصرفت النظر عن تلك البلاد فعادت الى قبضة الوهابيين

وكان ابن سعود المدعو عبد الله الفصيل من قبيلة الوهابيين ولكنه لم يخذل حذو اسلافه في نشر مذهبه ولا عاكس الدولة العلية وكان معتدلا في اعماله اما احد اخوته المسمى سعود فكان يسعى في اغتصاب الامارة من اخيه ولذا فانه توجه الى الهند للاستعانة بالانكليز وألب العشائر وحثمهم على شق عصا الطاعة في وجه اخيه وفي سنة ٨٦ جبه اخاه بالعصيان وبعد حرب طويلة انتصر عليه واستولى على الحسائم احتلت عساكره قلاع (هفوف) و (المبرز) و (القطيف) وتقدم الى بلدة (الرياض) وهي مقر الحكومة (اي الامارة) فبقى عبد الله بلا معين ولا نصير ولم ير نفسه ماجأ سوى الاستعانة بالمرحوم مدحت باشا وارسل له مكتوبا مع رسول وكان سعود اقدر من اخيه على ادارة البلاد وله حزم وتجارب ولذا فان اغاثة اخيه لاتم بارسال عدد من الجنود بل تحتم ارسال حملة كبيرة وحالة الحكومة المالية والادبية لا تساعد على القيام بمثل هذه الاعمال لاسميا وان الباب العالى لا يأذن لمدحت باشا باجراء مطالبه اذا هم بتحقيقها فرأى من الواجب السكوت وانتهاز الفرصة الملائمة

وكان سياح الانكليز يكثرن التردد على نجد ويكتبون عنها المقالات الطويلة اما الثورة في داخل البلاد فكانت مستمرة ومن عوائد الانكليز التقرب من امراء العرب واستماتهم وترك بلادهم على حالها وحمايتهم باسم الانسانية لحفظ وطنهم من الغارات وابتلاع البلاد بعد تدريب اهلها على الخضوع للعلم الانكليزي ومخادعة الاهالي تارة بالمال وطورا بالهدايا وغير ذلك الامر الذي يحدو الى الشك والارتباب في امر نجد

جری الانكليز على هذا النحو في بلاد مسقط ومكلا وعمان وحضرموت وفي جزيرة البحرين ووضعوا كل هذه البلاد تحت حمايتهم بهذه الطريقة وكانت بعضها تابعة للدولة العثمانية وكان مشايخ تلك القبائل يديرون بلادهم كما شاءوا وشاءت اهواؤهم ولكن القول الفصل في الامور الهامة فيها للانكليز والاعجب من هذا وذلك ان القتل والغارة والنهب والسلب وتطاحن القبائل انقطع ولم يبق للشقاق أثر بعد دخول تلك البلاد تحت حماية الانكليز ومتى رأى عربان نجد وشيخهم الذي هو من صنائع انكلترا هذه الحالة مال بالطبع الى الحماية الانكليزية

كان الانكليز يمانون الامير سعود بالمال والعدة وكانت البلاد القرية من نجد قد دخلت تحت حمايتهم واذا حكم سعود على النجديين ادخل البلاد تحت حماية انكلترا وصارت صاحبة الحول والطول في العراق بسبب ما تملكه من الاراضي الجسيمة ولذا فان مدحت باشا كتب الى الباب العالي وشرح له هذه المسألة الحيوية

منع الوهابيون اهالي بغداد عن نجد وقاطعوهم في مدة حكمهم فلم يرسلوا سلع تجارهم الى بغداد ولم يبق لهذا السبب في المدينة من الاهالي ولا من الموظفين من يعرف نجداً وأهلها وعوائدهم ولا يمكن ارسال مقدار من الجند الى بلاد مجهولة قبل الوقوف على قوة أهلها وعددهم ومواقمهم ولذا فان مدحت باشا قد احضر بعض الموظفين واشترى لهم سلعاً وارسلهم على ابور آشور الى نجد في زي تجار فذهبوا واقاموا هناك شهرين ووقفوا على قوة سعود الحربية وقلاعه وعدد رجاله وعرفوا

الاما كن التي يمكن التقرب منها بالسفن الكبيرة واخراج العساكر وكان عالي باشا الصدر الاعظم قد وضع المسألة على بساط البحث في مجلس الوكلاء وطالب من مدحت باشا عدم اصدار الامر وتوسيع الخرق فأعطاه التأمينات اللازمة وعليه ارسلت الحكومة المركزية وابوري لبنان واسكندرية من الطوبخانة وأمرت ألياً من مشاة الفيلق الخامس بالسير الى بغداد ليحل محل عساكر فيلقها الذين سيتوجهون الى نجد طبقاً لاشارة مدحت باشا

ان الحسا هي اكبر بلدة في نجد ولها على الساحل بلدة تابعة لها تسمى (القطيف) وهناك قلاع مبنية على الطراز القديم وفي الداخل بلدتان محاطتان بالاسوار يقال لاحدهن (المهوف) والثانية (المبرز) وهناك قرى مختلفة وحول البلاد عشائر وقبائل يسكنون بيوت الشعر ولا توجد هناك مرافق تمكن السفن الكبيرة من الدنو يد انه توجد جهة تدعى برأس التنور صالحه لرسو السفن كما استدلت من تقارير الموظفين الذين توجهوا بزبي تجار

والتاريخ يثبت لنا ان الحكومة العثمانية حاولت مرة ارسال قوة لاختراع عبد العزيز سعود الوهابي احد حكام نجد من بغداد وكان الوالي اذ ذاك سليمان باشا الكبير وكان ارسال القوة عن طريق البر مقابل العربان جيش الحكومة والجاره الى الفرار واخذوا منه مقداراً من المدافع واعادوه بخفي حنين

وموقف البلاد السياسي لايساعد على الاعمال الحربية الكبيرة وموقعها الجغرافي ايضاً يحول بين الحكومة وبين مثل تلك الاعمال ولكن اسكلة القطيف تبعد عن البصرة بثلاثمائة وستين ميلاً وعلى ذلك فارسل المهتمات العسكرية سهل مع ان القلاع محتوية على بعض المدافع القديمة الباقية من زمن الوهابيين وعساكر امير نجد غير مدرين على الاعمال الحربية وليس بيدهم من الاسلحة الجديدة ما يستحق الذكر

وقد ارسلت الحكومة اول قافلة من الفيلق السادس سنة ٨٧ وهي مركبة من خمسة طواير من المشاة مع بعض الفرسان ورجال المدفعية تحت قيادة نافذ باشا

الذي اخذ معه منصور باشا وغادر مع الحملة البصرة وتوجه مع الجنود جماعة من اهالي الكويت اتابعين لولاية البصرة كمتطوعين للاعانة على نقل مرافق الجيش ومؤنّه وخصص مدحت باشا للحملة ثمانين سفينة بين صغيرة وكبيرة لنقل اللوازم الحربية وكانت هذه السفائن تابعة لعبد الله الصباح المسلوب الامارة وبقيت تخدم الحكومة بلا اجرة الى يوم انتهاء المشكلة

توجهت الحملة توّأ الى رأس التنور وتحركت متوجهة الى القطيف فتحصن اعوان سعود بالقلعة وعبثاً حاولوا الدفاع فقد تفرقوا ايدي سبا بعد رمي القلعة بمدفعين وفتح العساكر البلاد بلا حرب ولا مشقة وضبطوا القلاع الموجودة في طول البلاد وعرضها وتحركت الحملة من القطيف متوجهة الى هفوف وهبرز وقبل وصولها اليها فرسعود مع اعوانه فاستولى عليها رجال الحملة بلا حرب ولا كفاح انتهت مسألة نجد على هذا النحو من الوجهة العسكرية ولكن بقاء سعود في تلك الانحاء يهدد أمن البلاد اذا لم تكن فيها حكومة مؤسسة على قواعد متينة ولذا فان مدحت باشا عزم على التوجه الى نجد بنفسه وينا هو يتهيأ للسفر ظهرت حادثة شمر

حادثة شمر

خلا اشيوخ قبيلة شمر ولافرادها الجوف كانوا يغيرون على البلاد الكائنة في حدود ولايات حلب والموصل وديار بكر وقادهم شيخهم مراراً الى القرب من بغداد ولما بلغه خبر توجه العساكر العثمانية الى نجد توهم ان البلاد أصبحت خالية من القوة فجمع من عشيرته ثلاثين ألفاً وهاجم مدن (اورفه) و (سورك) وغيرها من البلدان التابعة لولاية الموصل ونهب القرى وسبي النساء والذرياري وقتل خلقاً كثيراً وفي شهر تموز بلغ مدحت باشا خبر توجهه الى مدينة بغداد وكان على اهبة السفر الى نجد فأخّر سفره

اصابت شقاوة عبد الكريم شيخ قبيلة شمر البلاد بمصائب واهلكت الحرث والنسل وكانت ولاية ديار بكر قد اصبحت شر مصيبة بسبب حملاته ومنه وسلبه

وكان واليهما في ذلك الوقت (قورت اسماعيل باشا) فجمع جموعه وعزم على اقتفاء اثر عبد الكريم واعوانه بيد انه قد تبص لينظر ما سيكون من امر مدحت باشا ولما كتب له تحرك من الموصل في طابورين من العساكر وقامت من بغداد ثلة من الجنود تحت قيادة الفريق اشرف باشا وانتظر الجنود العدو على ساحلي دجلة والفرات واتخذت الحكومة التدابير اللازمة بقرب (دير الزور)

أما الاشقياء فقد اقترب قسم منهم من دير الزور وتوجهت منهم جماعة الى بغداد اما الذين توجهوا الى دير الزور فقد قابلهم هناك الاكراد فانهمزموا شرهزيمة وتوجهت طائفة الى جهة (شراق) القريبة من الموصل فأفناها اسماعيل باشا ولما رأى الذين توجهوا الى بغداد عساكر الحكومة رجعوا ادراجهم وطلبوا الماء فلم يوفقوا للوصول اليه فقصدوا الآبار ووجدوها خالية من الماء فمات اكثرهم عطشا وفي هذه الاثناء عاد عبد الكريم مع اعوانه وعددهم يبلغ الألفين فاراً الى جبل شمر مقر اجداده فكتب مدحت باشا الى ابن الرشيد رسالة شديدة اللهجة فطرده ابن الرشيد وكان كلما توجه الى جهة كربلاء والحلة رأى الجنود أمامه وفي اختتام عزم على الالتحاق بعربان نجد ودخل الى حدود متصرفية المنتفك فقبض عليه ناصر باشا وسلمه الى بغداد مجروحاً ولا يذكر احداً ما قدمه ناصر باشا من انخدم للدولة في هذه المسألة

جرت محاكمة عبد الكريم بصورة علنية في مجلس التمييز ببغداد وصدر عليه الحكم بالاعدام ولما كان من اصحاب الرتب ارسلت صورة الحكم الى الباب العالي وكان في النية ارساله الى دار السعادة وارسل وبينما هو في طريقه بالقرب من الموصل وصل امر اعدامه الى بغداد فاعيد واعدم شتماً وابعد الكريم اخ لافرق بينه وبين عبد الكريم في الشقاوة وقد قضى عليه في الحادث اما اخوه الكبير المدعو فرحات باشا فقد قرأ في دار السعادة وترى تربية حسنة وقد اجتمعت حوله بقايا القبيلة فاصدر لهم مدحت باشا امراً بالاقامة في الاراضي الكائنة بالقرب من الموصل وامرهم بزراعتها ونصب فرحات باشا

رئيسا عليهم وخصص له عشرين الف غرش مرتبا يأخذه من الاعشار المتكونة من الاراضي المعطاة لافراد القبيلة فزرعوا مقدارا كبيرا من الاراضي واستفادت الحكومة من الاعشار ولكن دار السعادة قد قطعت مرتب فرحات باشا كما سيجيء ففرق افراد العشيرة شذر ومذر وعادوا الى سابق عهدهم وانضم اليهم العربان وكثر القتل والنهب في تلك الانحاء

توجه مدحت باشا الى نجد ونجاحه

انتهت مسألة شمر على هذا الشكل وجاء دور مسألة نجد وكان مدحت باشا قد ابان لنافذ باشا قائد الجند الغرض من ارسال الحملة الى نجد قائلا اننا لا نقصد الاستيلاء على نجد بل نريد توثيق الروابط الكائنة بين تلك البلاد وبين الدولة بابقاء سيادة الحكومة العثمانية على تلك الامارة ونريد توطيد دعائم الأمن في الحال والاستقبال بقطع اعمال سعود المدوانية وعليه فسنولى عبد الله الفيصل شيخ نجد متصرفية تلك البلاد ونعطيه ثلاثين الف غرش شهريا ونحکم ادارة البلاد المالية والادارية وقد ارسلت الى تلك البلاد قوة من رجال الضابطة وارسل اليها نائب شرع ومأمور مالية كما ارسل الى متصرفية المنتفك ودعي عبد الله فيصل الى نجد ولقب بلقب متصرف واجرى عليه المرتب ولكنه قد اعتاد الحكم المطلق عن آباءه واجداده وكان طريد اخيه فلما تخلص منه طمحت عينه الى القديم وكان جل مقصده الاستقلال واعادة موظفي الحكومة العثمانية

اما قوة السعود فقد تفرقت ولكن رجاله يتهمزون الفرصة ويؤليون جمعهم للهجوم على (الحسا) واهالي تلك الجهات لا يدعون لحكومة ولا يعطون جزية ولا تقودا كما هي الحال في عدن وفي البلاد الكائنة تحت سيطرة الانكليز وكان مدحت باشا قد زود قائد الحملة بتعليمات تقضى عدم اخذ شيء من الضرائب سوى الاعشار والزكاة لان الاهالي هناك يظنون ان الحكومة تنوي تجنيدهم اذا احدثت ضرائب وكانت جزيرة البحرين داخلة تحت حماية الانكليز فلما اعلن سعود العصيان في تلك الانحاء اخذ البعض يقولون ان البلاد تحت حماية الانكليز مع خلوها من الزراعة

كل هذه الاسباب حدثت بمدحت باشا الى التوجه بنفسه فتوجه في شهر ايلول من تلك السنة وفي هذه الاثناء فر عبد الله الفيصل من الحسا بقتة وتوجه الى جهة الرياض فزار مدحت باشا سواحل القطيف وجزيرتي ناروت ودارين ووصل الى هفوف ومن هناك ارسل الى عبد الله الفيصل مكاتيب ورسلا فلم يلب طلبه واضاع حقه بما ابداه من الجبن ولذا فقد عين مدحت باشا القومندان نافذ باشا متصرفا على الحسا والقرى التابعة لها وارسل الموظفين الملكيين لاجراء اللازم واعمار تلك البلاد

وفي هذه الاثناء جمع اعوان سعود جموعهم وهم ثمانية آلاف وهاجموا على الحسا ولكنهم ردوا على اعقابهم اذ ارسل لهم اللواء حمدي باشا طابورين من العساكر فزقوا جموعهم ولم يبق لسعود أثر وجرت المحاربة بين مدحت باشا وبين حاكم الهند عن (القطر) المدعي انها تابعة للانكليز وانتهت المسألة بابقاء تلك البقعة تحت حكم الدولة العلية ورفعت فوقها الاعلام العثمانية وانزات الاعلام الانكليزية ان بلدي (هفوف) و (مبرز) كاثنتان على ساحل البحر اذ تبعدان عن القطيف اثنتين وعشرين ساعة وعن نجد ١٥ ساعة وبينهما وبين نجد رمال غير ان في مكانها منبع انهر يبلغ عددها سبعة بين صغير وكبير وفي اطراف البلديتين خمسون قرية مملوءة بالساتين والمزارع ويكثر هناك محصول الأرز والتمر وهما ثروة الاهالي الوحيدة وفي توابع (الحسا) ٢٨ قبيلة تسكن بيوت الشعر وثروتها الوحيدة الابل والغنم وطعامها التمر والأرز وهي تشتريه من الحسا بالحيوانات عرضا عن النمود وكل اهالي تلك البلاد في القرى وفي بيوت الشعر يدينون بدين الاسلام ومذاهبهم خمسة وقد ترك الحنابلة مذهبهم واتبعوا مذهب الوهابيين وقويت شوكتهم في البلاد واستولوا على كل شيء ولما دخلت (الحسا) في قبضت الحكومة عاد اليها اصحاب بقية المذاهب وكانوا قد فارقوها فرارا من ظلم رجال المذهب الوهابي واكثر العشائر في تلك الانحاء على المذهب الوهابي اعلن مدحت باشا بصفة رسمية ان الاهالي لا يؤدون الى الحكومة سوى

الزكاة والعشر الشرعي فجمع عمال الحكومة الاعشار بكل سهولة اما اصحاب الحيوانات فهم سكان الوبر وبعدهم عن مركز الحكومة يحمل جباية الزكاة متمذرة فقررت الحكومة اخذ ريال عن حمل كل بعير يرد الى القرى ووافق المشايخ على هذا القرار وانفض المشكل

وجهت الفرقة العسكرية الى تلك البلاد سنة ٨٧ هجرية المصادفة لما قبل مارس الرومي فاعتبرت الجباية من ذلك التاريخ ومع ان الاحكام كانت جارية على غير المطاوب فان واردات الحكومة هناك قد بلغت في سبعة اشهر ثلاثين مليوناً وسبعماية الف من القروش واذا تمت الاصلاحات وزادت ثروة الاهالي واستتب الامن زاد ايراد الحكومة بلا شك

لا يأكل اهالي تلك البلاد القمح ولا الذرة ولا الشعير وطعامهم الوحيد التمر حتى حيواناتهم لا تأكل غير التمر فالاهالي هناك لا يعرفون زراعة هذه الحبوب والعساكر يحتاجون الى الخبز ولذا فقد زرعوا مقداراً من الاراضي وقلدهم الاهلون فزرعوا مثلهم واعيدت الاراضي التي اغتصبها الوهابيون الى الحكومة فزرعها الاهالي وانتفعت منها مالية الحكومة في العام التالي

وكان الوهابيون قد هدوا القبور واخذوا يدفنون الموتى في البساتين فاعادت الحكومة انشاء المقابر واباحت السعوط وشرب الدخان وكان الوهابيون يمنعون تعاطيها وهدم الوهابيون الجوامع فاعادها قائد الحملة بأمر مدحت باشا والخلاصة فقد اقام مدحت باشا هناك اربعين يوماً بدأ في اثنائها بعمل ما يلزم لبقاء الحكومة وامر الموظفين باتمام ما بدأ به ثم عاد الى القطيف

فارق مدحت باشا بغداد وفي نيته التوجه الى نجد ثم الى البحرين وعليه فقد ركب وابور بابل واستصحب وابوري اسكندريه ولبنان ولا حظ ان الكولونل (بلي) قومندان فرقة خليج العجم الانكليزي يتبعه ومعه اربع وابورات انكليزية اينما توجه فمدل عن الذهاب الى البحرين وارسل قومندان فرقة البصرة البحرية عارف بك الى البحرين لبناء ما يلزم من مستودعات الفحم اللازم للسفن العثمانية

ومعاينة منابع المياه وغير ذلك من الضروريات

توجه عارف بك الى البحرين وقابل شيخها فاطهر له الحفاوة وفرح اذ رأى سفينتين عثمانيتين قائلًا اننا لم نر مذ قرنين سفينة عثمانية في هذا البحر ثم تبرع بما يلزم من الاراضي لبناء مستودع للفحم اللازم للسفن العثمانية وقدم حجة بتلك الاراضي وطلب اهالي الجزيرة اخراج العساكر العثمانية طائفة بعد طائفة وقدموا لهم الاطعمة اللذيذة وانواع التحف وبعد معرفة مياه البحرين كان مدحت باشا قد عاد من (هفوف) فاستصحب تلك السفن وتوجه بها الى الكويت التي التحقت بالبصرة مذ سنتين قلنا في غير هذا المكان ان الكويت كائنة على ساحل البحر وعدد منازلها يبلغ ستة آلاف واهلها محرومون من المعارف يدل ظاهرهم على الهمجية ولكنهم كالعائلة الواحدة تضامنا واحكامهم تجري على ما يقتضيه الشرع ولذا فانك لاترى بينهم سوء الأخلاق والامن قائم فيها على اساس متين فهي غير محتاجة الى نفر من انظار الضابطة ويأتي اليها اهل هولاندا واهل ايران للتجارة وهم يعرفون اخلاق الاهالي وعوائدهم فالبلدة غير محتاجة الى قوة لحفظ الأمن ويديرها قائمقام وقاضي وازقتها نظيفة قيمة وبيوتها منتظمة واهلها يذهبون الى اوربا للتجارة فيتعلمون من الافرنج عاداتهم التي لاتغير آداب الدين وليس عندهم تعصب أعمى وكان القاضي المقيم في تلك البلدة يحكم بين الناس بالقسط وله على تلك الحالة (٤٥) سنة وهو لا يأخذ في نظير عمله اجراً وقد ارضى الكبير والصغير فرأى مدحت باشا ان البلدة غير محتاجة الى عمل وغادرها عائداً الى البصرة

وكانت الحكومة قد ارسلت قبل حفر ترعة السويس بخمس سنين وابوري (بروسه) و (ازمير) عن طريق رأس الرجا الصالح وكان الوابوران قد تحطما ولزم اصلاحهما فأرسل الوابور (ازمير) الى دار السعادة اما الوابور (بروسه) فبقى هناك لانه في حالة لاتساعد على نقله الى بلاد بعيدة فارسله مدحت باشا الى بومباي وجدد كل آلاته وصرف عليه عشرة آلاف من الليرات وزد عليه ان الوابورين لبنان واسكندريه قد احضرا من الاستانة وكانت السفن المخصصة للتجارة (بابل)

و (نينوا) و (نجد) و (آثور) فالخمت السفائن السالفة المذكور بهذه الاربع و بلغ عدد ابورات النهرين (الدجلة والفرات) عشرة و بهذا الاعتبار صارت سفن البصرة ذات عدد يذكر ولا سبيل الى اعالتها الا بايجاد حوض لاصلاحها و انشاء الحوض غير ممكن يسد ان المد والجزر في شط العرب يساعدان على انشاء حوض فبدئ بمخمر الحوض في جهة كوت الفرج و تقرر نقل البصرة الى شط العرب و اجراء ما يلزم لهذا النقل و عاد مدحت باشا الى بغداد و كتب له السلطان يشكره على اجراءاته الاصلاحية و ارسل اليه عالي باشا الصدر الاعظم مكتوباً بخط يده قال له فيه ان نجدا ستكون جنة تجري من تحتها الانهار كمصر بهتمكم في زمن قريب و ارسل السلطان عبد العزيز الى مدحت باشا سيفاً مرصعاً اقراراً بما اجراه من الاعمال الاصلاحية في نجد و محاوراتها

انتهت مسألة نجد في مدة سنة و كانت العساكر ترسل بانتظام و لم تزد مصاريف تلك الحملة عن خمسة آلاف من الليرات و كانت ايرادات تلك البلاد تكفي مرتبات الموظفين و العساكر و الضباط و يبقى منها جانب لخزينة الحكومة و لكن الذين خلفوا مدحت باشا من المشيرين العظام اعادوا الجنود الى بغداد و اقاموا مقامهم طائفة من الاكراد و العربان و ارسلوا اليها رجلاً من اشراف الاهالي لا يعرف قوانين الحكومة و لا نظاماتها اسمه عبد الرحمن و كانت الحكومة قد وعدت الاهالي باعفاهم من كل شيء عدا الزكاة و الاعشار فاراد المشيرون الاكثار من الايراد و وضعوا الضرائب و احدثوا رسوماً جركية فقام الاهالي قومة رجل واحد و طردوا موظفي الحكومة و قتلوا منهم عدداً غير قليل و كانوا قبلها قد لبوا طلب الحكومة صاغرين فخابت الآمال و التوت الامور

ارسلت الحكومة بعد هذه الحادثة ناصر باشا متصرف المتفك و اطفا نار الفتنة و عزمت الاستانة على ارسال متصرف و حاكم جديدين فلم توفق الى بغيتها لان العشائر قد حكمت على الحكومة بسوء الادارة و خلف المواعيد

سد الجزائر

ذكرنا تأخر سد الجزائر بسبب زيارة شاه العجم ثم ظهرت مسألة نجد وشمر فتأخر ايضا ولما انقضت هذه المشاكل وجه مدحت باشا عنايته الى امر السد ولا يمكن البدء بهذه الاعمال الا في فصل الصيف اما تطهير نهر الفرات واتمام الجداول التي لم يتم حفرها فكانت فيها الاعمال سائرة بسرعة وكانت تلك الجداول تروي قسما من اراضي العراق فردها بعض الولاة وكثرت شكايات الاهلين من جراء ردها وبقيت مزارعهم بعيدة عن الماء وكان مدحت باشا قد باشر حفر تلك الجداول من سنتين بعد اخذ رأي المهندسين والزراع واتم بعضها فزرع الاهالي مزارعهم بسبب قرب المياه ثم اشتغل بهذه المسألة المهمة

تزييف اعمال مدحت باشا في استامبول

واستعفاؤه

يعلم قراء التواريخ ان الانسان مهما بالغ في خدمة ابناء جنسه يجد من يزييف اعماله وقد فشت تلك العادة في بلادنا بسبب الجهل والغباوة فلا حاجة بنا الى اثبات هذه النظرية

ومن هذا القبيل ما اشاعه اعداء مدحت قائلين انه افرغ خزائن الاستانة بشراء الواورات واعمار الاراضي وحفر الانهر وكان الذين يروجون تلك الاشاعات من اعداء مدحت باشا وحساده واراضي العراق هي اكبر من اراضي القطر المصري واذا اثرى اهلها اثرت الحكومة وطالما اسف الناس على خرابها وضياع مستقبل سكانها وتركها مأوى للبوم ومسرحا للغربان ولكن الغرض يعمي ويصم واعداد الوطن العثماني هم هؤلاء الذين يريدون جعل البلاد واهلها كالبقرة الحلوب ولا يجبدون حركة من يصرف درهما على البلاد ولو اخذت الحكومة مكان الدرهم مليونين بعد عام

وقد رد عالي باشا هذه المغتريات ولكن محمود نديم باشا قد تولى امور الصدارة بعد وفاة عالي باشا واخذ يرسل الى بغداد الاوامر تلو الاوامر محذرا من صرف

الدراهم لاعمار البلاد وكان مدحت باشا يرسل دفاتر الايرادات والمصروفات الى الباب العالي كل سنة والذي ينظر الى ما صرفه مدحت باشا لا يجد زيادة مصرف بل يتضح له ان ايراد الولاية كان في زيادة مستمرة وقد قلت المصارف في زمنه بكثير وكانت الايرادات يوم توجه مدحت باشا الى بغداد (١٤٨) الف كيس فبلغت بعد ثلاث سنين بسبب سعيه (٢٢٠) الف كيس وكان عدد الجنود يوم وصوله الى بغداد (٧) آلاف فبلغ عددها (١٣) الفا في زمنه وكان مدحت باشا قد قرر ارسال (٥٠) الف كيس من النقود في كل سنة الى الاستانة بعد حجز مصارف الولاية

والذي ينظر الى ما اجراه مدحت باشا وما كان مصمما على ارساله الى دار الخلافة في كل سنة وينظر الى نامق باشا الذي اقام سبع سنين في بغداد وتوجه بعد هذه المدة الى الاستانة وحمل معه (٣٠) الف كيس الى الحكومة التي لم تر غيرها من تلك الولاية في مدة الباشا المذكور يرى البون بعيداً بين ايراد بغداد في زمن مدحت باشا وفي زمن نامق باشا ولكن قاتل الله الاغراض فانها تعمي القلوب اعمر مدحت باشا الولاية وتعهده بارسال (٢٥٠) الف ليرة سنويا فلم يقدر احد خدمته بل اخذوا يذمونهم ويسفهنون اعماله وكان محمود نديم باشا قد عقد جمعية في الباب العالي تحت اسم لجنة الاصلاحات فانزلت من مصارف ولاية بغداد (٢٤) الف كيس وطلبت ارسال المبلغ فوراً الى الاستانة وكانت هذه المبالغ مخصصة للزراعة وتطهير الانهر وغير ذلك من الاعمال التي لا يتم عمران البلاد الا بها وقد نزلوا مرتب القائم مقام من (٢٠) ليرة الى عشرة وقطعوا من كل نائب من نواب الشرع ثلاث ليرات وكان النفر من نفرات الضابطة يقبض تسعين غرشاً فانزلوا مرتبه الى خمسين فكتب مدحت باشا الى الباب العالي عدة بريات فلم يجاوبه الصدر ولا غيره بما يشفي الغليل لان نية محمود باشا كانت معلومة اذ كان يريد السوء لمدحت باشا كما بينا في غير هذا المكان من الكتاب

هذه احوال توجب الاسف وتوقع الولاية في ارتباك وتجمل الاعمال الاصلاحية

عقبة الأمر الذي حدا بمدحت باشا الى الاستعفاء فقبل محمود نديم باشا استعفاءه بلا تردد وعين رؤوف باشا واليا لبغداد ومشيرا لبعثها فحضر على جناح البرق وفارق مدحت باشا بغداد بعد حضور الوالي الجديد وكان خروجه منها في شهر مايس من سنة (٨٨)

عودة مدحت باشا الى الاستانة

وفظائع محمود نديم باشا

كان مدحت باشا قد طهر نهر الفرات وجعله صالحا للملاحة فركب احد وابورات ذلك النهر المسمى باسمه (فرات) ووصل الى مسكنة (هي بلدة بالقرب من حلب) ثم غادرها متوجها الى حلب وهناك سمع عن سوء حركات محمود نديم باشا الصدر الاعظم وبلغه انه قد تسبب في نفي حسين عوفي باشا وشرواني زاده رشدي باشا وحسني باشا مدير الضابطة ودواججي اسماعيل باشا والي اشقودره وحيدر افندي وامين بك وبلغه ايضا ان محمود نديم باشا عازم على ابعاده هو الى سيواس ووصاته مكاتيب من دار السعادة تؤيد هذه الحوادث فلم يصدق مدحت باشا ان محمود نديم يضع تحت قدميه خط الكونخانه ويدير الملك كما شاء له الهوى وحضر الى الاستانة غير هياب ولا وجل

سمع مدحت باشا في حلب وفي بغداد ان محمود باشا يروج سياسة روسيا ولما حضر الى الاستانة رأى بعيني رأسه صدق تلك الاشاعات فان محمود اتبع اشارات اغنائيف سفير الروس وفرق بين كنيسة الباغار وبطركية الروم وجعل لها اكسرخية مستقلة وحاول ادخال الدولة في شكل جديد بتغيير ما اتاه اسلافه من الاعمال النافذة للبلاد ففسخ المساولة المعقودة بين الحكومة وبين شركة خطوط الروميلى الحديدية وغير نظام الولايات محاولا تشكيل ولايات صغيرة ومن هذه الاعمال سلخ صوفيه عن ولاية الطونه و (قره حصار) عن ولاية طرابزون ومرعش عن ولاية اطنه واسس ولايات جديدة وسلخ عن البوسنه بلاد الهرسك ووجد اعمالها باعمال في بازار وشكل هناك ولاية جديدة ونزل ميزانيات الولايات الى

درجات غير موقولة فتوقفت حركة الاعمال وكثرت الشكايات من تعدي الموظفين وتجاوزهم حدودهم ومن الغريب انه لم يكتف بذلك بل بدل موظفي الولايات فعزل منهم عددا غير قليل ونقل بعضهم من ولاية الى ولاية فصاروا كالرمل في الولايات لا يقر احدهم على قرار واوجد أمور لم نسمع بها في قوانين الحكومات والخللاصة فانه اوقع البلاد في داهية دهاء بسوء تدبيره

كان محمود باشا يعمل مثل هذه الاعمال والسلطان عبد العزيز راضي عنه ويند كان الناس يظنون ان السلطان سيسأله عن تبعة هذه الافعال استصدر امرا بنفي حسين عوني باشا احد عظماء الدولة وشرواني زاده رشدي باشا وابعدهم بكل سهولة ولما بلغه خبر تحرك ركاب مدحت باشا من بغداد اصدر ارادة بنفيه الى سيواس ولكن السلطان عبد العزيز استعاد تلك الارادة وكان محمود باشا يعرف حق المعرفة ان الجو لا يخلوله مادام مدحت باشا باقيا في الاستانة فلم يمض اسبوع على وصوله من بغداد حتى وجه اليه محمود باشا ولاية ادرنه واستصدر ارادة بتعيينه للوظيفة الجديدة بغير علم منه

وكانت اعمال مدحت باشا في ولاية الطونه وبغداد قد جعلت الناس يذكرون اسمه بالثنا والتعظيم اما روسيا فقد كان رجالها يعضون الاصابع لانهم يريدون بقاء ولاية الطونه خالية من العمران فكان محمود نديم باشا يبذل جهده لاعادة تلك الولاية الى حالتها الاولى من الخراب لمحو اسم مدحت باشا واخفاء اعماله وارضاء لصديقه روسيا فغير نظام الولاية وعزل اكثر موظفيها واتقص مرتبات الباقين واحال امور التحصيل الى افراد الضابطة وانفى وظائف المحصلين وكانت مرتبات رجال الضابطة قد انزلت الى خمسين غرشا ولما احيات عليهم مسائل التحصيل اشتغلوا بالنهب والسلب وحذا حذوهم بقية الموظفين وامر نديم بصرف رجال الشرطة الذين كانوا يحرسون الطرق فعمت الفوضى ولم تلتفت الحكومة الى اصلاح الطرق فصعب العبور وتقل المحاصيل ووصل الاهلون الى اقصى دركات التعاسة

والغيت فرق الحرس المكونة من اهالي البلاد فاختل الأمن وعمت الفوضى وكثر القتل وتجاوز الاشقياء على الحدود

ظهرت اثار اعمار محمود باشا في ولاية الطونة على هذا المنوال في السنة الاولى وكتب الى رؤوف باشا والي بغداد يطلب منه طمس معالم اصلاحات مدحت باشا فكانت با كورة اعمال رؤوف باشا الغاء شركة الملاحة هناك فارسل وابور پابل هدية للترسانة وباع الوابور (نينوا) بمشرة الاف من الليرات وثمنه الاصلي عشرون الفا وباع الفحم الموجود في عدن وغيرها بسرعة عجيبة و بدل في شركة وابورات الدجلة والفرات وكانت تعود بفائدة قدرها الف ليرة شهريا و اخر تطهير نهر الفرات والاغرب من هذا وذلك ان قبيلة هموند قد اشتهر افرادها بالنهب والغارة والسلب وكانت الحكومة تطاردهم في زمن مدحت باشا فكانوا يتركون مواظهم ويلجأون الى الحدود الايرانية ولكن رؤوف باشا قد احضرهم و بذل لهم انواع الحفاوة وعين اشقياءهم بوظائف مختلفة في ادارة الضابطة فاستمانوا بوظائفهم على قتل العباد ونالوا من الايرياء باسم الحكومة واشتهرت فظائهم وامتدت سيطرتهم الى الموصل والخلاصة فان رؤوف باشا قد اتبع اشارة ولي نعمته محمود نديم باشا ولم يترك عملا من اعماله او اثرا من آثاره بلا تبديل

على ان ار باب الرأي والحصافة لا يوافقون القائلين بان ازالة الاعمال الحسنة تمنع الثناء على فاعل تلك الاعمال لان آثار الاعمال النافعة ايضا تدل على حسن نية صانعيها والهادم معروض للهلكة

صدارة مدحت باشا الأولى

عاد مدحت باشا من بغداد بعد اجهاد الفكر وكان يوده البقاء في الاستانة ولكن ارادة محمود نديم اقتضت ذهابه الى ادرنه واذا تأخر عن قبول هذه الوظيفة كان ذلك داعيا الى سخط السلطان عبد العزيز فقد كان السلطان يحبذ اعمال محمود نديم باشا وكانت السراي السلطانية في الداخل وفي الخارج راضية عن حركاته

واعماله فرأى مدحت باشا من الواجب قبول الوظيفة الجديدة والتوجه الى السراي لتقديم الشكر لجلالة السلطان

كان السلطان يحب محمود نديم باشا ولكن الشعب كان ساخطا عليه وكانت اعماله المخالفة للعدالة تبلغ مسامع جلالته فعزم على عزله ولما مثل مدحت باشا بين يدي جلالته اظهر له سوء نتيجة ادارة الرجل فصمم على عزله وفي تلك الليلة اصدر ارادته بالعزل ووجه مسند الصدارة الى مدحت باشا وكان ذلك في شهر جماد الاول من سنة ٨٩

عزم مدحت باشا على تبديل اصول ادارة الولايات في اليوم الذي وجه اليه فيه مسند الصدارة ولما كان البناء لا يشبه الهدم في السرعة اخر ذلك الاصلاح لوقته المرهون وكتب تعليمات مفصلة ارسلها الى الولايات واعاد الولاة والموظفين الى وظائفهم الاصلية وكان محمود نديم باشا قد جعلهم كالتبائل السيارة لا يقيمون في بلد بسرعة التغيير والتبديل والعزل والنصب وكان العفو قد صدر عن حسين عوني باشا وشرواني رشدي باشا ورفاقهم قبل تبديل الصدارة فاستصدر مدحت باشا عفوا عن بقية المنفيين واعاد جودت باشا وراسم باشا وكانا قد ابعدا عن الاستانة فعين احدهما واليا لمرعش والثاني واليا لقره حصار وعين شرواني رشدي باشا لنظارة الاوقاف وجودت باشا لنظارة المعارف وعين لنظارة الخارجية جميل باشا سفير الدولة في باريس وعين لنظارة المالية صادق باشا والي ازمير فسكنت الافكار العمومية وتعلقت آمال الشعب بمستقبل البلاد وعادت مياه الأمن الى مجاريها

الاحوال المالية وسوء ادارة محمود نديم ومحاكلته

ان سياج الدولة في الداخل والخارج لا يحفظ الا اذا اتظمت امور المالية وكان الشعب ينظر الى هيئة النظار الجديدة ويأمل منها وضع حد لنظام الدولة المالي وكان نديم قد جعل المالية على شفا جرف الخراب فاصبح اصلاحها متعذرا لانه كان يقيد الوارد والمنصرف في كل سنة ويصرف اكثر منه مليونين فوق الايراد واذا اضفنا الى ذلك فوائد القرض الذي عقده محمود باشا من اوربا بواسطة

(كوجك اوغلي آغوب افندى) البالغ قدره عشر ملايين من الليرات بلغ مقدار الزائد عن الميزانية في كل سنة ثلاثة ملايين من الليرات رأى محمود نديم باشا كل ذلك وشكل في الباب العالي لجنة باسم لجنة الاصلاحات وقدم الى السلطان ميزانية ساوى فيها بين ايراد الحكومة ومصارفيها واطهر زيادة قدرها نصف مليون من الليرات بعد كل هذه المصاريف وهذا المبلغ قدمه المرابين الهيايوني نظير مصاريف فوق العادة عدا المحصصات السنوية وطلب من انكلترا سفينة بثلاثماية وخمسين الف ليرة

ولما صدرت الارادة السنية الى نظارة المالية وقدمت الى مدحت باشا دفاتر الحساب لم تظهر في الدفاتر هذه الزيادة وليت المسألة بقيت عند هذا الحد فاننا لو اضعنا فرق المبالغ المقطوعة من المرتبات الى ايرادات الحكومة فان العجز يكون بعد ذلك ثلاثة ملايين من الليرات

وقد جمع مدحت باشا اعضاء اللجنة المسماة بلجنة الاصلاحات وسألهم عن سر هذه الميزانية فقالوا انها مكتوبة بأمر محمود نديم باشا وانهم لم ينظروا قبل كتابتها لا في دفاتر المالية ولا في غيرها بل كتبوا ما املاه عليهم محمود نديم باشا من الارقام فظهرت الحقيقة ناصعة كالصبح لذي عينين

كان السلطان عبد العزيز قد سر اذ قدم اليه محمود باشا هذه الميزانية واذا اخبره اليوم احد بعجزها تكدر وظن ان الغرض من هذه الاذاعات حمله على التقدير وترك البذخ والاسراف

وهنا يقف اللبيب حائراً اذ يرى السلطان قد صدق ان الايرادات التي كانت تنقص كل سنة (٣) ملايين من الليرات تصبح في زمن صدارة محمود نديم باشا مساوية للمصروفات وتزيد زيادة لا نظير لها في اساطير الاولين والآخرين بالاهام والاحلام والاقوال المخالفة للعقل

كانت هذه العبارة من حيل محمود نديم باشا ودسائسه التي يختلقها لارضاء السلطان عبد العزيز ولكن كيف واقفه عليها صفوت باشا وجودت باشا وكاني باشا

أعضاء لجنة الإصلاح المعهودة وهم من رجال الدولة المعدودين ولما ظهرت الحقيقة أخيرا كان السلطان عبد العزيز غير ميال الى تصديقها كل هذه الامور يجب النظر اليها بعين الاعتبار والاسف

حصل كل ذلك بحيل محمود نديم باشا ووسائله فقد كان يعرف ميل السلطان عبد العزيز الى البذخ والاسراف وهو في نظارة البحرية في زمن عالي باشا حتى ان الواورات التابعة للخزينة الخاصة التي تديرها الترسانة كان ايرادها اذ ذاك اقل بكثير من مصاريفها ولكن نديما كان يصرف عليها من مال الترسانة ويقدم كل ايرادها لعبد العزيز ليصرفه على لذاته ومشتهياته وكان في ذلك الوقت معدن فخم اركلى تابعا للخزينة الخاصة السلطانية وايراده لايقوم مقام جزء من مصاريفه فكان محمود باشا يصرف على المعدن من مال الترسانة ويقدم كل ايراده للسلطان عبد العزيز ايضا ولما وجه اليه مسند الصدارة اقترض عشر الاف من الليرات بفائدة (١٠) في المائة ظاهرا و (٢٠) باطنا كل ذلك لارضاء السلطان عبد العزيز واحضار المبالغ اللازمة لمصاريفه ومن ذلك تقيص مرتبات موظفي الولايات

ومن الاسف ان استبداد السلطان عبد العزيز كان يقضى عليه بعدم التقييد بقانون ولكنه لم يتعرض لتقويض قرارات الحكومة في الباب العالي ولا في غيره ومع هذا فاعمال محمود نديم باشا قد جعلت قوانين الدولة غير معتبرة في نظر عبد العزيز وحدث به الى الاعتبار بان ارادته فوق كل شيء ولهذا كان يظن اعمال محمود باشا حسنة وكان سكان سرايه ورجال معينته وخدمه وحشمه وجواريه وكل سكان السراي يمجدون نديم باشا

خلا لمحمود نديم باشا الجوا واصبح امينا من السراي واهلها في الداخل وفي الخارج اما رجال الدولة وعظماؤها في الخارج فكان نصيبهم النفي اذا هم لم يوافقوه على نياته واعماله التي لايرضاها من في قلبه ذرة من حب الوطن فكان رجال الحكومة في خوف شديد وصار محمود باشا بهذه الوسيلة آمنا على نفسه من السراي ومن الخارج واستمرت صدارته سنة خرب في اثائها البلاد وسبب شقاء العباد ومع

كل ذلك لم يترك استفادة نفسه الشخصية فقد اخذ من مصر ومن شركة طرق
الروميلي الحديدية ومن معدن فحم اركلى مبالغ طائلة واخذ من القرض (٣٠٠)
الف ليرة عدا المبالغ الغير معلومة

تبدت الصدارة وانتهت كل هذه المشاكل وتنفس الشعب ولكن السلطان
عبد العزيز كان يحلم في منامه بايام نديم اما الشعب فقد استبشر غاية الاستبشار
ولكن السلطان كان يأخذ في زمن نديم الاموال جزافا من الماينة وكان لايسأل عن
شئ الا اوجده نديم الذي كان يشتغل لارضائه ليل نهار وسواء عليه عمرت البلاد
او خربت فكل مساعيه كانت لارضاء مولاه وولي نعمته السلطان ولا مرية في ان
السلطان يفكر في ايام رجل هذه صفته بعد عزله ولم يكن السلطان وحده ميالا
لاعادة محمود نديم باشا في الاستانة وفي السراي رجال لا يهتمهم ايراد الحكومة
وميزانيتها واستقبالها واعمارها وخراجها بل تتوق انفسهم الى صرف الاموال جزافا
ونيل شهواتهم ولم يحرمهم نديم باشا من ذلك في ايام صدارته فقد سد عجز الميزانية
البالغ قدره ثلاثة ملايين من الليرات في سنة على زعمه وزعم السراي وارسل
الملايين الى الماين ولم يترك بابا لارضاء السلطان الا طرقة كل هذه العبارات كان
يكورها رجال السراي في الداخل وفي الخارج بعد ان امتنعت عنهم وعن عبد
العزيز اموال الماينة وزاد بعضهم على ذلك ان قال ان مدحت باشا يظهر عجز الماينة
لقطع مرتبات السراي او بالخرى للتذرع الى عدم ارسال نقود للسراي الهيايونية
وكان نديم باشا يسمع هذه الاذاعات فيسر ويبشر نفسه بالفوز ويرسل الرسل الى
والدة السلطان عبد العزيز فتحث ولدها بحديث القوم وتذكر له الرخاء وكثرة
الاموال في زمن محمود نديم وقلة الاموال في زمن مدحت وظهور عجز ميزانية الدولة
بين يوم وليلة ثم تبنت له كذب هذه المسألة مبرهنة بما كان يرسله محمود نديم باشا
من الوف الليرات الى السراي قائلة اذا كان المال غير موجود في خزائننا فكيف
كان يوجد محمود نديم باشا وزيرك الاكبر وسندك الوحيد

ذكرنا ان محمود نديم باشا قد اخذ مبلغا من النقود عند عقد القرض ولما اعيد

حساب القرض ظهر عجز مائة الف ليرة لم تقيد في دفاتر الخزينة و بقي مكانها خاليا وظهر ان هذا المبلغ قد قبضه محمود نديم باشا و قدّم به سندا ولم يبين محل صرفه فستل عن المبلغ و اجاب ان المقرضين قد اعطوه اياه بكتشيش و قد كتب مقدار اجرة الوسيط والفوائد في مقابلة القرض و حذفت المبالغ من رأس المال عند تسليمه للخزينة و لا محل لاعطاء البكتشيش وغيره بعد هذا الحساب فاعطاء المائة الف ليرا من الخزينة لا موجب له اذ لا توجد هنالك ارادة سنوية تبيح ذلك و لا قرار رسمي فقد اخذ هذا المبلغ بسند من محمود نديم باشا و الذي قدمه له سرا هو امين باشا فلم يبق في المسألة شيء يعسر حله سوى استعادة المبلغ من مقتضبه و لا سبيل الى ذلك الا بالمحاكمة فصدرت الارادة السنوية بذلك بعد الاستئذان و احضر نديم الى الباب العالي و بعد السؤال و الجواب في مجلس الوكلاء ثبت عنده هذا المبلغ و صدر حكم المجلس عليه باعادته

خرج محمود باشا من مجلس الوكلاء بعد الحكم و كتبت اليه محررات بطلب المبلغ فاجاب بانه لا يقدر على تأديته مرة واحدة لان حالته لا تساعد على اعطاء مبلغ جسيم كهذا المبلغ دفعة واحدة فيجب تقسيطه و بعد مدة من الزمن توسطت والدة السلطان عبد العزيز في المسألة قائلة ان محمود نديم باشا قد ارسل هذا المبلغ فيما ارسله الى السراي السلطانية فلا يجب على الوكلاء مطالبة به و كل من طلبه منه يعمد مطالبا للسراي السلطانية او معترضا على اعمال السلطان و قد ذاع هذا الخبر في السراي و صدرت ارادة سلطانية باعفاء محمود نديم باشا من تأدية هذا المبلغ و لیت محمود نديم قد اكتفى بهذه المسألة فانه اخذ مبالغ طائلة من المالية تحت ستار اسم السراي السلطانية و ثبت ذلك عند السلطان فرأى من الواجب ارساله الى خارج الاستانة منعا للقييل و القال و عينه و اليا لولاية ادرنه و بعد مدة قصيرة توسط بعض اهل السراي و انضمت الى ذلك شفاعة والدة جلالة السلطان فصدر لامر باعادته الى الاستانة و عاد ولم يحافظ على السكينة بل اخذ يعاكس الوكلاء و يدس دسائسه و يتوسل بانواع الحيل و ضروب الخداع و ظل على هذه الحالة الى ايام

صدارة رشدي باشا فرغ الوكلاء في حقه معروضا الى السلطان فارسله منقيا الى طرابزون ولكن والده السلطان قد استصدرت الارادة باعادته في هذه المرة ايضا فعاد على شرط ان يقيم في مصيفه ولا يتعرض لأمر من الامور بعض الاعمال العمرانية

اشتغل مدحت باشا ببعض المسائل المهمة الخارجية وبعد ان حسم مسألة قولاشين والجبل الاسود وارسل الجنود ففض هذا المشكل في عشرة ايام وحسم مسألة الخلاف الحادث بين الدولة وبين حكومة ايران بسبب مرسي حدود بغداد نظر الى مسألة اعمار البلاد وتزويد ثروتها فن ذلك اشتغله بمسألة طريق بغداد الحديدية فان بغداد بعيدة عن مركز الخلافة ولا بد من انشاء خط يربطها بها ولا ينكرن احد فائدة الخط التجارية ولزومه حياة البلاد ولا سبيل الى انشاء هذا الخط من مال الدولة العثمانية لان مايتها لاتساعد على مثل هذا المشروع الخطير المحتاج الى الملايين من الليرات والخط بين طرابلس الشام وبغداد اقرب من غيره اذ يبلغ طول الخط اذ ذاك (٨٠٠) كيلومترا وكان مدحت باشا قد ارسل رجلا من بغداد لاكتشاف الطريق والنظر الى ما يصادف في طريق الخط المزمع انشاؤه من العقبات فعاد الرسول ورأى مدحت باشا الوقت قد آن لاجراجه هذا العمل الى حيز الفعل اما المبالغ التي يجب صرفها لانشاء هذا الخط فكان اخذها متيسرا لأن انكثرتا كانت مصممة اعطاء (٣) ملايين من الليرات لثقل بوسته الهند بواسطة هذا الخط ولا يصعب بعد ذلك تدارك ما يلزم من المال لاتمام المشروع والانكليز انفسهم قد وعدوا بايجاد المال اللازم والذي يلزم اولا هو ارسال احد المهندسين لرسم خريطة الخط فاناط مدحت باشا هذه الوظيفة بالموسيو برسيل مهندس طرق الروميلي الحديدية في نظير (٢٠٠) الف فرنك وأمره باحضار الخريطة في مدة قصيرة فاحضر الموسيو برسيل المهندسين وعزم على ارسال جماعة منهم الى طرابلس لابتداء العمل واتمامه بالسرعة اللازمة

ومن هذه الامور خط (ودين) الحديدي فقد كان من المقرر الصاق خط

الروميلي الحديدي بخطوط النمسا عن طريق البوسنة ولما فسخت المفاوضة وحالت بعض الموانع السياسية دون اتمام المشروع انقطع الامل في هذه المسألة واذا مد خط من جهة ودين والتصق بخطوط النمسا تمت الفائدة فاتصل خط الروميلي بخطوط النمسا واستفادت تركيا واوربا بسبب هذا الخط وكانت النمسا تعد بالمساعدة على تمديده وقد رتب مهندس خطوط الروميلي الحديدية خريطة الخط وتشكلت لجنة للبدء في انشائه وتم شراء بعض ما يلزم له من الآلات

ومن تلك الامور الهامة تآخراف الحجاز فان وضع الاخشاب اللازمة لمد الاسلاك غير ممكن بسبب العشائر والقبائل غير ان المسألة تصبح متيسرة اذا انشئت الطرق الحديدية بين الشام وبغداد فان الأعراب الذين تعينهم الحكومة لحراسة الخطوط الحديدية يقدرون في الوقت ذاته على حفظ الخطوط التلغرافية وصيانتها واذا امتدت الاسلاك بين دمشق والحجاز واليمن حصل من مجموع ايراداتها في السنة عشرون الف ليرة من الحجاج وحدهم واصبحت الدولة غير محتاجة الى الخايرة بغير واسطة هذه الخطوط وعلى هذا فقد أمر مدحت باشا باحضار الآلات اللازمة لمد خط من القدس الى جدة واحضرت له اللوازم وأمر صبحي باشا والي الشام باحضار الاخشاب اللازمة لمده فاحضرت من قضاء عجلون ومنها مسألة المكاييل والموازين وتحويلها الى اعشارية وكان مدحت باشا قد بدأ بهذا المشروع ايام كان رئيسا لشورى الدولة وكتب الى الولايات تعميمه وصرفت الحكومة ما يلزم لذلك من المال وارسلت الاوراق اللازمة لتفهم الاهالي كيفية استعمال هذه الموازين والمكاييل ولكن محمود نديم باشا قد اخر هذه المسألة في ايام صدارته فصدرت اوامر مدحت باشا الى الولايات والى من يلزم لمراعاة هذه القواعد في الاستانة أيضا

بقاء الاصلاحات عقيمة

سندكر فيما يلي ان صدارة مدحت باشا في هذه المرة كانت مدتها (٧٥) يوما اشغل في اثنائها ليل نهار لاجراء الاصلاحات السالفة الذكر وبدأ فعلا هذه الاعمال

الاصلاحية ولكن الاعمال تعطلت يوم انفصاليه لان البلاد خالية من القوة التي يكون الانسان امامها مسئولاً عن افعاله والذي يتولى وظيفة في بلادنا ينقض ما قرره سلفه وهي عادة جارية الى يومنا وبهذا خسرت الحكومة المبلغ (٢٠٠) الف فرنك المعطى للموسيو برسله مهندس خطوط الرويلي لاحضار خريطة خط بغداد ولم يطالب احد من المهندس لا المبلغ ولا رسم الخريطة وتلفت الآلات المشتراة لانشاء خط ودين وبقيت الاسلاك المشتراة لانشاء الخط التلغرافي في جده ملقاة في العراء مع الاخشاب ولم يسأل احد عن سبب احضارها

وتمت مسألة شراء الخط الكائن بين ازمير و (أله شهر) في زمن صدارة مدحت باشا هذه المرة أيضاً وذلك لان الباشا عرج على ازمير حين عودته من بغداد وتوجه الى مغنيسا وتحديث مع مؤسس الخط ومديره واتضح له ان الخط يبعد عن البلدة (٢٠) كيلومترا واذا وصل اليها كثر ايراده وتخلصت الدولة من المبلغ (٢٠) الف ليرة الذي يعطى للشركة سنوياً كما هو الاتفاق وكانت الشركة غير قادرة على تمديد الخط الى (أله شهر) ووقف والي ازمير على المسألة في وقتها وهو ناظر المالية في صدارة مدحت باشا ولذا قد دعاه اليه وأمره باحضار مدير الشركة واتفق معه على تمديد الخط الى (أله شهر) على ان تصرف الخزينة (٥٠٠) الف ليرة الى الشركة وتسلم هذه الخط الى الحكومة بعد (١٥) سنة وهو يمتد من ازمير الى (أله شهر) وطوله (١٤٠) كيلومترا واقرضت الحكومة المبلغ من اوربا وقسطته على (١٥) سنة فكانت تدفع (٣٥) الف ليرة سنويا عن رأس المال والفائدة وعلى هذا الحساب تخلصت الحكومة من المبلغ الذي كانت تدفعه للشركة وقدره (٢٠) الف ليرة سنويا وصار الخط مع ادواته وقيمه اكثر من مليون ليرة ملكا للحكومة بعد (١٥) سنة وقد استصوب مجلس الوكلاء هذا الاتفاق وصدق عليه باتفاق الآراء ودخل الخط بعد المدة المقررة في حوزة الحكومة

قرض اسماعيل باشا خديوي مصر وعزل مدحت باشا
من الصدارة وتعيينه لنظارة العدلية

طلب اسماعيل باشا خديوي مصر من السلطان عبد العزيز فرمانا يبيح له عقد قروض من الافرنج وكان الخديوي قد حضر الى الاستانة لهذا الغرض في زمن صدارة محمود نديم باشا وقدم طلبا للصدارة وكانت الارادة بالاذن له بعقد القروض على وشك الصدور فمزل في هذه الاثناء محمود نديم باشا وبقيت الارادة الى زمن مدحت باشا وتكرر طلب اصدارها فقال مدحت باشا ان مصر قد اقترضت مبالغ طائلة لليوم باسم الاصلاح وقد ثقلت الديون على مآلتها واذا ابيح لاسماعيل باشا عقد قروض تداخل الاجانب في شؤون القطر المصري وضاع استقلاله الاداري والسياسي معا وتداخل الاجانب يوما ما في شؤون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم وستكون هذه المسألة سببا لنفوذ فرنسا وانكلترا في مصر فان هاتان الدولتان تراقب احدهما الأخرى في نفوذها وتحذو حذوها واذا عقد قرض باسم مصر بعد اليوم صار ضعفا على ابالة وزاد نفوذ الدولتين المذكورتين وخرجت مصر من قبضة الدولة العثمانية وهي مسألة لا تحتاج الى برهان وكانت خديوية مصر قد طلبت مثل هذا الطلب في زمن صدارة مالي باشا فرفضه رفضا باتا تدل على ذلك الاوراق الرسمية المحفوظة في دوائر الباب العالي

اخر مدحت باشا هذا الفرمان ولكن السلطان عبد العزيز كان يرسل كل يوم رسله الى الباب العالي لانه وعد خديوي مصر وعدا صريحا وارادات السلطان واجبة التنفيذ ولكن ضياع بلاد واسعة كلقطر المصري يلقي الدولة في هاوية الدمار ولذا فان مدحت باشا قد اشتغل بكتابة فرمان يبيح لخديوي مصر عقد القروض في المستقبل ويحمل له املا في الحصول على غرضه في الأجل واقنع عبد العزيز فصدر الفرمان طبق اشارته وكتبته الجرائد وارسل الى خديوي مصر على واور مخصوص مع الباشكاتب حلمي افندي فلم يقبل اسماعيل باشا الفرمان وكتب تفرافا الى المايين طالبا الصراحة التامة في الفرمان فارسل له السلطان فرمانا في الحال وبه

دخلت الحكومة المصرية تحت اعباء الديون و بعد مدة قصيرة وفي زمن شرواني زاده رشدي باشا صدر فرمان للحكومة المصرية يبيح لها عقد مقاولات ومعاهدات مع الدول الاجنبية فووقت مصر في الكوارث الاخيرة بسبب هذين الفرمانين كان السلطان عبد العزيز يقدر خدمات مدحت باشا قدرها ولكن مسألة فرمان اسماعيل باشا خديوي مصر تركت في قلبه أثرا وكانت مسألة اختلاس محمود نديم قد أثرت في فكر السلطان عبد العزيز أيضا وانتهم اعوان مدحت باشا فرصة استياء السلطان من مدحت باشا وزادت وشاياتهم فلم تمض سوى مدة (٢٥) يوما حتى صدر أمر عبد العزيز بعزل مدحت باشا من منصب الصدارة وتعيين رشدي باشا الكبير صدرا اعظم

دخل مدحت باشا الى خدمة الحكومة واستمر في كل وظائفه بلا عزل وهذه هي اول مرة عزل فيها (يريد انه كان يستعفى) وتخصص له مرتب قدره عشرون الف غرش و بينما هو في منزله وجه مسند الصدارة الى شرواني زاده رشدي باشا وتعيين مدحت باشا ناظر للعديلة

احوال البلاد السيئة وتصور احداث مجلس المبعوثين

كان السلطان عبد العزيز مشهورا بالعقل والدراية ذا هممة عالية وكان يعرف أن الحكومة لا تستقيم امورها الا بالقوانين والنظامات غير ان اخلاقه قد تغيرت فخلت العظمة محل عاو الهمة وبدأ يبذر اموال الامة تبذيرا ولما مات عالي باشا وحل محله محمود نديم باشا تغيرت اخلاق عبد العزيز تغيرا محسوسا فوضع كل قوانين الدولة تحت قدميه وزاد تبذيرا واسرافا فووقت خزينة الدولة تحت اعباء الديون

وصلت ديون الدولة في آخر ايام السلطان عبد المجيد الى (٢٥) مليوناً من الليرات فووقت الحكومة في ازمة مالية و بعد (١٢) سنة وصلت ديون الدولة الى (٢٥٠) مليوناً من الليرات فووقت الحكومة في هاوية لا سبيل الى الخلاص منها واذا اختلت المالية في الدولة فقد اختل كل شيء لان المال هو روح الدولة وكانت مصائب الدولة في زيادة مستمرة يراها العوام والخواص وفكر الوكلاء

في هذه المسألة اذ رأوا ان المستقبل يندرهم بخطر مدلم ووجه عابس فرأوا ان الطريقة الوحيدة للخلاص من الكوارث المتكاثرة متعذرة الا اذا تشكل مجلس مبعوثين واذا تم اتفاق الوكلاء على هذا القرار فالسلطان عبد العزيز لا ينزل من عرش عظمته الى سماع كلمة شورى ومجلس مبعوثين ودستور او اصلاح او قانون اساسي ولا يجسر احد على عرض هذه المسألة على مسامعه وحالة الدولة في خطر والدوام على تلك الحالة يوقع البلاد في ازمة لا سبيل الى الخلاص منها

كان الوكلاء يذكرون هذه المسائل وفي الختام قرر شرواني زاده رشيد باشا جمع الوكلاء في محل مصيفه وبعد الاخذ والرد قرروا كتابة لائحة لحفظ ميزانية الدولة وصيانة كيانها من الانحلال واتفقوا على تقديم تلك اللائحة الى السلطان عبد العزيز (المترجم) تقدمت هذه اللائحة في الصحيفة ٩٧ من هذا الكتاب وقد قرر الوكلاء فيما قرروه احالة امر كتابة هذه اللائحة الى مدحت باشا

وزار الصدر الاعظم شرواني زاده السلطان عبد العزيز وحادثه في مسائل عدة وتدرج بمديته الى ذكر تلك اللائحة الاصلاحية فاحفظت كلمة الاصلاح السلطان واصدر في الحال ارادته بعزل مدحت باشا من نظارة العدلية وعينه واليا لولاية سلانيك في رمضان تلك السنة واثر حديث شرواني زاده في نفس السلطان فلم تمضي ايام حتى اصدر ارادته بتعيينه واليا للحلب فابعد الاثني عشر عن الاستانة بسبب كلمة الاصلاح

مدحت باشا في ولاية سلانيك

ابعد السلطان عبد العزيز مدحت باشا الى ولاية سلانيك انتقاما لانه كان عازما على كتابة لائحة اصلاحية لاستبقاء ملك اجداد عبد العزيز وحفظه من البوار والواضع الاصلاحية في بلاد الدولة العثمانية كثيرة لا يمكن احصاؤها ولو عدنا الاوراق الصادرة من يوم خط السكوخانة الى هذه الايام لظير لنا ان الدولة العثمانية قد تأسست على وضع اللوائح واهمالها وطالما دفعت الحكومة للاجانب الاموال الطائلة وطلبت منهم وضع اللوائح الاصلاحية فكتبوا منها الألوف فوضعتها الحكومة في

خزائنها ومضت عليها السنون وكرت العصور حتى تمزقت اللوائح وبقيت الحكومة على سابق عهدها ولو قبل السلطان عبد العزيز لألحمة مدحت باشا ووافق رشدي باشا على طلبه ثم صبر اسبوعا او اسبوعين واخذ اللائحة وامر باعلانها بواسطة الجرائد ثم عزل مدحت باشا وشرواني زاده لالتحقت اللائحة بخط التنظيمات الخيرية واصبحت حبرا على ورق لان الصدور العظام والوزراء الفخام في تركيا لا ينظرون الا الى ارضاء سلطانهم وولي نعمتهم وهم يقبونه بألقاب الجلالة التي لم نسمع بها في معجمات اللغة لغير الله جل جلاله والسلطان ينعم باللقاب فيوجه الى هذا رتبة صاحب الدولة والى ذلك رتبة صاحب العزة والى الآخر رتبة السعادة والسعادة والعزة والدولة لله

ارسل مدحت باشا الى سلايك وكان يشتغل باسم الامة ويريد وضع حد فاصل بينها وبين استبداد السلطان والامم الحية في ايام عزتها وعظمتها تطلب الاصلاحات وتكثر من طلب اللوائح الاصلاحية من الملوك لتكون تلك اللوائح حدا فاصلا بينها وبينهم اذا حفظها التضامن العام وحرسها الشعب وما قولك ايها القارئ في قانون يضرب به القاضي عرض الحائط ولا يعاب به الرئيس وتساها الامة ان ذاك القانون يكون كاقلم يرميه الكاتب ولا يكتب به حرفا واحدا او كالكاغذ تعطيه الجاهل فيطرحه على الارض او كالثوب تقدمه للفيل لنفرض جدلا ان قوانين الحكومة العثمانية منتظمة لا يتطرق اليها النقص وانها لا تخالف قوانين المدينة الحديثة في اوربا

لو فرضنا ذلك جدلا فمن الذي يقوم بتنفيذ تلك القوانين فالقاضي يبرىء القاتل ويحكم على ذوي المقتول والذنب ذنب القاضي لاذنب القانون فالاعمال اذن بالرجال لا بالقوانين واذا كان الناظر من نظارنا يضع قانونا ويذيمه في الولايات بواسطة البرقيات وتمهله العمال فالذنب ذنب العمال لا ذنب القانون ان القاضي لا يقيم في بلدة من بلاد الدولة اكثر من ربع سنة ورب قضية نظرها اربعون قاض بالتناوب فما يكون شأن هذه القضية وكيف يكون شأن التاجر اذا صرف عشرين

سنة بين جدران المحاكم لاستصدار حكم ضد خصمه وطالما تغيرت احوال الرجل المالية ومات الشهود في هذه المدة فقد يفتر زيد ويفتني عمرو في خمس سنين فاذا ذهبت ثروة غريم التاجر قبل اخذه الحكم النهائي فهل الذنب في ذلك على القانون او على القاضي الذي لا ذنب له سوى ان الحكومة تنقله من بلد الى بلد فيصرف مرتبه بين اجور عربات وقطارات وبواخر وربما عزلته فحضر الى الاستانة بلا ذنب ولا اثم وبقي مع عائلته الى ان تعطيه الحكومة وظيفة بعد ابقائه في الاستانة سنة او سنتين فاذا ارتشى هذا القاضي واضاع حقوق المتخاصمين فهل الذنب يومئذ للقانون او الذنب للحكومة

يتداخل العضاء في امور المحاكم والقاضي لا يقدر على اصدار حكم ضد المستبدين لان مركزه مهذب بالعزل الاداري كل ساعة فاذا حكم على ذي النفوذ عزلته نظارة العدالة بلا تردد وبغير تحديق وقد خلقه الله للتنقل من بلد الى بلد واذا سألت احد القضاة العثمانيين عن مدة خدمته وفي اي بلاد قضى المدة قال لك قضيت نصف سنة في بيروت وشهرين في بغداد وشهرا في حلب وشهرين في قونية واسبوعا في دير الزور واسبوعين في انطاليا ونصف شهر في الحجاز فالقاضي مكلف بذرع البلاد وقضاء نصف ايام حياته في البوادي والقفار فكيف يطبق القوانين ويراعى العدالة مع المستبدين اذا كانت حياته الادبية والمادية مهددة بالخطر في كل ساعة وفي كل دقيقة

فالقوانين في البلاد العثمانية قد وضعت للفقراء لا للاغنياء ولذا فالانسان يتعجب من خوف السلطان المستبد العثماني من كلمة قانون ولائحة وقد ملأت اللوائح صناديق حكومتنا العثمانية من يوم تأسيسها الى هذه الساعة واذا اراد احد اخذ ميراث هذه الحكومة فانه لا يجد سوى اللوائح والقوانين لان المال مفقود في بلادنا وثروة البلاد محبوسة بين اراضي غير مزروعة وغابات مهملة ومعادن مدفونة فالوائح والقوانين هي ميراث هذه الحكومة يتناقلها الابناء عن الآباء والاجداد والاعمال القانونية في بلادنا غير موجودة الا في القاموس لان الامة التي يستبد بها فرد كهبد

الحمد ثلث قرن لا تحمي قانونا ولا تنال ثروة ولا تعمل عملا والام الحية تطلب العدالة من القاضي باسم القانون وتعيده الى الصواب بل تعيد الى الحكومة رشدها واذا ماتت الامة وقضى عليها سوء الطالع بالتقهقر ووصلت الى الهرم والشيخوخة تلاعب القاضي بالقانون واستعمل الجندي سيفه اقتل اخيه واشتغل الكبير والصغير والغني والفقير بخدمة الحكومة فان الحكومة غير الامة والامة غير الحكومة واذا نظر الانسان الى امة هذا حالها وقال لافرادها اي لافراد الحكومة انتم الامة ايها الحكام فآين الامة انتم الامة لاني ارى كل ذي عقل وذكاء يترامى على خدمة الحكومة واراكم تسون القوانين لانفسكم ثم تضعونها تحت اقدامكم ولا تأبهون بانتقاد منتقد لان الامة قد فقدت قوتها امامكم فانتم الامة فآين الحكومة ارى للام جرائد ايها المستبدون تزيف اعمال حكوماتها وتعيد حكامها الى الصواب اذا ضلوا الطريق والحاكم لا يقدر على ارضاء الشعب مهما استقام فلا بد من جرائد تنتقد اعمال الحكومة وارى جرائد بلادكم ايها الحكام تمدحكم وتنزف اليكم فانتم الامة اذ لان الانسان يشئ دائما على اخلاق نفسه وهذه الجرائد بمدحها اعمالكم تثبت ان الامة قد ماتت او انكم قد امتموها باستبدادكم وجوركم واعتسافكم ونيهكم وسلبكم

لهذا كان يجب على عبد العزيز عدم الاكتراث باقوال شرواني زاده

رشدي باشا

ولنعد الى مدحت باشا في سلانيك فتقول ان ابعاده عن الاستانة لم يؤثر في همته العالية فقد ذهب بصدر مملوء غيرة على الوطن وهمة لاتعرف الكلل كما هي عادته فعمل اعمالا في ثلاثة اشهر يعجز عن مثلها غيره في سنين فاصح الضابطه والملكية واسس مدرسة للصنایع واوجد للمدرسة (٢٠٠) الف غرش ايرادا سنويا وفتح جادة في وسط المدينة يبلغ طولها (١٣٠٠) مترا واشترى مكان السوق الموجودة في وسط المدينة من اصحابه وكان قد خرب وبنى هناك سوقا جديدة واجر هذه السوق بثمانائة ليرة لستها الاولى وخصص هذا اليراد لمكتب الصنائع

ونظم المدارس الصغيرة وعين لها معلمين ورأى استعداد اهالي سلانيك المسلمين وغير المسلمين وذكاهم ففتح مكتبا اعداديا يسع ثمانين طالبا من ابناء المدينة وطلب له المعلمين من الاستانة وينا هو في انتظارهم فصل عن تلك الولاية في شهر ذي الحجة وتمطلت مسألة هذا المكتب

وقد قابل اهل سلانيك اعمال مدحت باشا الاصلاحية بكل سرور ولكن الاستانة كانت تنظر اليها بعين السخط ولذا فقد عزلته بكل سرعة وبقى بعد عودته سنة ونصف سنة بلا وظيفة ولا عمل فاشترى اراضي في ضواحي الاستانة واشتغل بها هذه المدة الطويلة

صدارة اسعد باشا - حادثة الهرسك

لا يوجد في بلادنا شيء اكثر من تبديل الموظفين والوكلاء والولاة فقد فتحنا هذه البلاد ونحن فيها لليوم رحل متأهبون للانتقال بين وقت وآخر وانك لترى الانكليز يرسلون الوالي الى الهند فيقيم في عاصمتها ثلث قرن ويرسلون مندوبهم السياسي الى مصر فيقيم هناك الى ان يدركه الاجل ويعرف طبائع البلاد وعوائدها ويطلع لغتهم ويتم ما بدأ به من الاصلاح وضباط الانكليز وموظفهم ومهندسهم في مصر يشتررون المنازل ويتمتعون بخيرات البلاد كابنائها وطالما اقام الواحد منهم في القطر المصري عشرين سنة او اكثر من تلك المدة وهم يقيمون في البلاد كحتمين اذ ليسوا بأصحابها بخلاف رجال حكومتنا اصحاب تلك الولايات الطويلة العريضة التي لا ترى فيها موظفا يقيم اكثر من شهرين وهذا هو الداء العميم الذي اعيا نطس الاطباء وجعل الثقة ضعيفة بين الحكام والمحكومين في الاستانة وبيروت وازمير وفي كل ولايات الدولة لا يملك الموظف منزلا الا اذا كان من اهالي البلاد وعدد موظفي اهالي الولايات قليل واذا وصل ابن بغداد الى درجة قائمقام في الملكية او العسكرية نقلته الحكومة الى ازمير وارسلت ابن ازمير الى بغداد وقس على ذلك كل اعمال الحكومة فالموظف في شقاء مستمر (والشعب ايضا) وكان يجب على اهالي الولايات بناء فنادق لاقامة الموظفين وعلى الموظف

يضاً عدم شراء لوازم بيته كاثاث منزل بل يجب عليه عدم التزوج لانه يكون سبب شقاء عائلته بنقلها من ولاية الى ولاية

لم يسمع احد بمثل هذه الاحوال حتى في البلاد البربرية وقد استولى الداء وعز الشفاء وبات الناس يشكون من هذا المرض ولا يجدون له دواء والظاهر ان الفلمين قد اعتادوا تلك العادة ايام الفتح فكانوا يتركون البلد المفتوح ويقصدون غيره من البلدان فحذا اسلافهم حذوهم وانتقلت العادة من الالباء الى الابناء وبقيت الى يومنا والناس يشكون شر هذه العادة والحالة في البلاد يرثي لها العدو ولا سبيل الى اسماع رجال الحكومة ولو سمع احدهم اقوال مقبحي تلك العادة وحاول اتباع ضدها خلفه غيره وقضى على اعماله لأن الحكماء والرؤساء هنا لا يسألون عن تبعه اعمالهم

هذا هو الداء العياء واحد المصائب التي قد نخرت عظم الدولة العثمانية التسعة وجمت اهالي البلاد في شقاء مستمر وهذه هي المصيبة الكبرى التي جعلت الحكومة العثمانية تنشئ المدارس والجامعات ودور الصنائع وتجعل لها نظارة معارف وتعين المعلمين وليس لها كتاب ولا برنامج تعليم الى يومنا وكيف يوجد كتاب والمعلم لا يقيم في مدرسة اكثر من شهرين وقس عليه مدير المدرسة وبوابها وخادمها قضى مدحت باشا ايام حياته سائحا كأمثاله الولاية فن الطونة الى بغداد الى بورصه فازمير فسلانيك ولو اقام في ولاية واحدة لرأت منه الدولة اضعاف ما عمله من الاصلاحات ونال بسبب اعماله السعادة والرفي قسم من اهالي هذه البلاد التسعة انظر الى مصر فقد كانت كاحدى الولايات العثمانية لأن دار السعادة ترسل اليها الوالي تلو الوالي فيقيم احد الولاية في ارض الفراغة شهرا والثاني اسبوعا ولما استقر الامر لمحمد علي باشا جد العائلة الخديوية عمرت البلاد واصبحت القرى والمزارع كجنات عدن تجري من تحتها الانهار ولو بقيت ليوم في يد ولاية الدولة العثمانية لهجر اهلهما وطنهم وقصدوا الاقطار الامريكية لتحصيل قوتهم وقوت ابنائهم كما هي حال اخوانهم السوريين وبعض اهل ولايات الاناطول الشرقية

سرى في شوارع الاستانة وسل عن اصحاب البيوت ومنازل الموظفين فانك
لا تجد الموظف منزلا للسكن وذلك لانه يقضي اكثر ايام حياته بين البصرة وبغداد
والاستانة واذا ساعده الحظ واخذ وظيفة في استامبول وعاشر معشر السعداء
استأجر منزلا واقام فيه الى ما شاء الله

ولنعد الى الصدر فنقول عزل عبد العزيز محمود نديم باشا ولم يبق رجلا بعده
في مسند الصدارة زمنا طويلا فن مدحت باشا الى شرواني زاده رشدي باشا الى
رشدي باشا الكبير الى حسين عوني باشا ولم ترضه خطة هؤلاء الصدور لانه كان
يطمح الى اعادة محمود نديم باشا والشعب يبغض الرجل ويرى في اعادته شقاء
الوطن وخراب البلاد وعبد العزيز يعرف ذلك ولا يجمله ويفكر في حل هذه العقدة
وبعد رأي ما رأي من مصلحته توجيهه الصدارة الى رجل من صنائع نديم وهو
اسعد باشا

واسعد باشا لا يعرف سوى ارادات السلطان ولا يطيع غير اوامره الامر
الذي جعل السلطان ينظر اليه بعين الرضى بيد ان جذوة ثورة الهرسك اشتعل
لهيها في ايام هذا الصدر وعلم ان روسيا هي المسببة لاشتمال نارها فقد كانت تثير
الفتنة في بلاد البلغار والصرى ورأت من اللازم لمصلحتها ايقاظ الفساد في الهرسك
ايضا فوقف اسعد باشا عاجزا امام تلك الحركة الثورية وهي عبارة عن قيام ستين
من السلافيين بمظاهرة عدوانية في وجه الحكومة وهم من اهالي قرية نوسين التابعة
للهرسك وكانت الثورة تشتد كلما مرت الايام وكان سفير روسيا (ايغنائيف) يرتب
الذسائس ويسبب الثورات ثم يقصد الباب العالي ورجال السراي السلطانية ويبدل
لهم النصائح وينال من وراء ذلك مقاصده ولما حصلت هذه الحادثة توجه الى قصر
السلطان وافهمه بوجوب فض المشكل بلا سلاح ولا سفك دماء وذلك بتفويض
هذه المهمة الى قناصل الدول الاجنبية في بلاد البوسنة وبينهم قنصل الحكومة
الروسية واتباع هذه الخطة يدل على عجز الدولة عن ادارة امورها وتفويضها الاعمال
الى الاجانب واذا دخل القناصل بين الحكومة وبين متبرعيها كوسطاء واصلحوا

بينهما وبين شردمة من الاشقياء كبر امر قطاع الطريق والثوار في البلاد وتفاقم الخطب وكان هذا قصد (ايغنايف) وهو ظاهر كالشمس ولكن الوكلاء لم يبدوا اعتراضا لانهم طوع ارادة المايين وقد احييت المهمة الى القناصل فامتدت الثورة في طول البلاد وعرضها قبل عودة القناصل الى مقر وظائفهم فقد توجهوا للإصلاح الى البلدة التي ظهرت بها الثورة فعم الخطب جميع البلاد وكثر القتل والنهب والغارة وتم لاغنايف قصده ومبتغاه

صدارة محمود نديم باشا الثانية - امتداد ثورة البوسنة والمهرسك

وظهور ثورة البلغار ومسألة السهوم

لا يقر احد في هذا الكون بمعجز نفسه عن ادارة الامور فالكتاب اذا اخطأ يقول خاتني القريحة ولا ينسب الخطأ الى نفسه بل ينسب اليها الصواب وحده واذا اخطأ المحامي او قصر في طلب حقوق موكله نسب الخطأ الى القاضي قائلا انه خالف القانون والقاضي يحكم باعدام الشخص البريء واذا سأته قال لك ان الشهود خانوا المتهم فقصوا عليه بالاعدام والوزير يجلس امام المرأة ويكتب القوانين فاذا اصاب مقاتل الشعب قال ان العمال اساءوا استعمالها ولم يقدروا على تطبيقها والجاهل الذي لا يحسن القراءة يأخذ الكتاب بيده ويقول ان الطابع لم يحسن طبعه ويدعى انه يحسن القراءة ولكن المطبعة قد طمست معالم الحروف ولم تخرجها ظاهرة بارزة لتقرأ نفسها وبعض الجهلاء يدعى ان عينه لا ترى الكتابة لشيخوخته اولانه اكثر من قراءة الكتب في ايام صباوته فضعف بصره وهو يستعمل النظارة المكبرة ليرى الكلمات كبيرة في الكتاب واذا عجز عن القراءة قال لك ان كتابة الكتاب معقدة وجملة متقاطعة واذا كان المطبوع شعرا قال لك ان الشاعر مخملي، في اوزان الايات الشعرية

والملك الظالم يدير المملكة باستبداده ويشرك في امور ملكه النساء والعييد والاماء واذا اخطأ في اعماله ووقعت المملكة في هاوية الدمار عزا اغلاط نفسه الى الوزراء والقواد والامراء وقال ان سياسته صالحة لادارة الف مملكة ولكن الوزراء

لا يحسنون السير طبق ارادته وعزل وغير و بدل
وهكذا شأن الجماعة اذا استبدوا بحكومة او قرية او ولاية لان احكام الجماعات
لا تسمى شورية في كل وقت الا اذا وافقة الرأي العام واجمع عليها العقلاء بعد
تمحيصها والذي يفتح البلدان باعانة كتبية من الاشقياء يحتاج دائماً الى ارضاء افراد
تلك الكتبية وارضاء الشعب غير ارضاء الجماعات لان هؤلاء يحتاجون الى الاموال
وهي في خزائن الاهلين والشعب لا يقدم امواله للفاتح جزافاً وهذا قد فتح البلاد
للمتمتع بخيراتها وصرف الاموال لاخذها مضاعفة ولم يعرض نفسه للهلكة لفائدة
الشعب بل لفائدة نفسه وكل من ادعى غير ذلك من المتغلبين كذب واقترى على
الله وضل ضلالاً بعيداً

لذلك نرى الشعوب لا تتفق مصالحها مع مصالح الملوك والامراء الا بالشورى
او الاحكام الدستورية التي تحتم على السلاطين والامراء اشراك المحكومين في
امور البلاد لان المحكوم ادرى بالداء والحاكم اقدر من المحكوم على ايجاد الدواء
وما مثل الحاكم والمحكوم والعاقل والمستبد الا كمثل الطيب والمريض فالملك
العاقل كالطيب الحاذق يسأل المريض عن محل الألم ويصف له الدواء والملك
العاقل يجمع عقلاء الشعب ويشاورهم في امور المملكة ويعرف مواطن الداء ويذيل
الشعب مبتغاه والملك الظالم كالطيب يقيم بمكة ويصف للمريض الداء والمريض
في العراق فاذا اتسعت مشقة الخلاف بين الشعب وبين الحكومة كانت الحكومة
المستبدة مثل هذا الطيب

ظن السلطان عبد العزيز كغيره من الملوك ان الذنب للوزراء لاله وانتهز
الفرصة لاعادة نديم باشا الى مسند الصدارة وعرف ان الشعب حاقد على نديم
فجعله رئيساً لشورى الدولة وجعل حسين عوني باشا ناظر للحرية ومدحت باشا للعدلية
وبعد مدة لا تزيد عن اسبوع عين نديماً لمقام الصدارة

عاد نديم الى مقام الصدارة ولم يحد عن خطته القديمة قيد شهر وكان اول اعماله
ابعاد حسين عوني باشا عن الاستانة وارساله الى مدينة بروسه بتعيينه والياً لتلك

الولاية وكان يضمم الشر لمدحت باشا ولكنه اخر ذلك لتخدير اعصاب الشعب وحصر محمود باشا مساعيه في ايجاد الاموال وتقديمها للسلطان واطاعة اوامر الجنرال ايغنايف سفير الروس واتسع الخرق على الراقع فامتدت الثورة في البوسنة والهرسك وتحفزت بلاد الجبل الاسود والصرب للثورة وتوجه جماعة من الروس والصرب وسكان الجبل الاسود الى بلاد البلقار لحث الاهالي هناك على العصيان والقيام في وجه الحكومة فلم يابه محمود باشا بهذه الثورة ومقدماتها وما ستكون عليه نتائجا بل اشتغل بالأموال المالية فنزل مرتبات الموظفين واشتغل بايجاد منابع جديدة ورتب ميزانية الدولة ترتيبا مطابقا لغاياته ومقاصده الخبيثة وعزم على قطع فوائد القنصليد والاوراق المالية والدولة مضطرة الى تأدية ديونها ولا سبيل الى الخلاص من تسديد الاقساط لان ارباب الاستحقاق هم من الاجانب اما نديم فتقدم الى السلطان قائلا ان الاتفاق على المسألة قد تم بينه وبين سفراء الدول وقال مثل ذلك للوكلاء وخرج من حلقة الجدال فائزا فتعجب الشعب من هذه الحركات والدسائس الشيطانية

اشتغل الروس باثارة الرأي العام ضد الدولة العثمانية بعد حرب القرم وصارت المعاهدات الدولية بعد مؤتمر باريس حبرا على ورق واشتغلت جرائد العالم بانتقاد اعمال الحكومة العثمانية وكتب الكتاب المجلدات ونشروها بين شعوب اوربا ولما ظهرت الثورة في البلقان تركت على حالها واحتج محمود نديم باشا بوجود عدم استعمال السلاح ضد رعايا الدولة المسيحيين اتسكين الرأي العام الاوربي وفي محاولته اليوم قطع فوائد القنصليد تبعا لاشارة سفير روسيا ما يثير عواطفهم فزاد الطنبور نعمة في اوربا وقامت الثورة على ساق وقدم فرجبح مدحت باشا الاستعفاء على البقاء وقدم استعفاه في شهر شوال سنة ٩٢

صورة استعفاء مدحت باشا

ان معروض العاجز لا يحتوي على شيء يختص بشخصه ومع هذا فاني اشكر رفاقي الاكابر والاصغر غاية الشكر وقد اشرت الى اسباب استعفائي المشروعة في

معروفي ايضا وهي المشكلات الحاصلة في احوالنا العمومية فان امورنا المالية قد وصلت الى درجة غير مساعدة على الاصلاح وخرجت امور ادارتنا الملكية عن مجراها الطبيعي وصارت الادارة العسكرية في حالة يعجز القلم عن وصفها ولهذا الاسباب اختل الأمن في كل انحاء المملكة واطهر رعايا الدولة غير المسلمين ميلهم الى الاجانب والخلاصة فان الاغلاط والمساوي المتوالية على هذه الدولة من عشرين سنة ستظهر اليوم نتائجها كما تدل على ذلك المقدمات ومع ان غوائلنا الداخلية كافية لالقات نظرنا الى الداخل انقلبت ضدنا الافكار العمومية في اوربا وصارت دول الغرب كلها ضدنا ونظرت الينا الدول المتحابة بعين الاحتقار وقد تأثر عبيد جلالة السلطان الصادقين من هذه الحالة اذ نظروا الى ما ستقع فيه الدولة من الكوارث بعد ثلاثة اشهر ولما كانت همة الصدر الاعظم منصرفة الى اصلاح هذه الاحوال كان يجب على هذا العاجز مؤازرته ومشاركته ايضا ولكنني قد قضيت جل ايامي خارج دار السعادة في الولايات البعيدة ولا اقدر على النظر الى امور الحكومة في الازمات الشديدة التي نحن فيها اليوم فاطلب من جلالة مولاي وولي نعمتي الاعظم الاحسان علي بخدمه موافقة لاقتداري وقد قدمت معروفي متوسلا بشفقتة ولي نعمتي بسائق المجبورية

٢٩ شوال سنة ١٢٩٢ مدحت

خلا محمود نديم باشا الجولان حسين عوني باشا قد اهدى الى بروسه ومدحت باشا قدم استعفائه فقطع فوائد القنصليد وفوائد السهوم وظن امور الدولة المالية قد وصلت الى الغاية المطلوبة بهتمه وذكائه وحسن تديره ثم اشتغل باصلاح الامور الداخلية وقدم اليه اغناتيف سنير الروسا لامحة ممسوخة من اللوائح التي كان مدحت باشا قد احضرها ومن محتويات هذه اللائح ان يكون الحاكم القاضي في البلدة من جنس الاكثرية وان تشكل عساكر من اهالي القرى في البلاد التي يقطنها الباغاروان ينقل الشراكسه من الروميلي الى الاناضول وان يؤخذ من واردات الولايات مقدار معلوم في المائة للحكومة المركزية ويترك بقية اليراد

لمصاريف الولاية وان يقيم العساكر في الاماكن المحتوية على قلاع وثكنات ويتركوا غيرها وغير ذلك من الامور التي لا تنفع البلاد ولا تفيد العباد ولاجل التصديق على هذا النظام احال نديم امر النظر فيه الى احد صناعته وهو امين باشا ناظر المالية الاسبق فشكل قومسيونا تحت رياسته وعدد اهالي الروميلي المسيحين يربو على عدد المسلمين في كل الاقضية واذا طبقت مواد هذه اللائحة كانت نتيجتها تسليم كل الولايات الروميلية الى البلغار وقد اعترض اكثر الوكلاء على هذه اللائحة اعتراضاً شديداً فبقيت غير نافذة وعرف الناس نيات محمود نديم باشا الخبيثة وكثرت المقالات والانتقادات واعلن القرار الصادر في مسألة السهوم وهو يقضى بتوقيف النصف واعطاء النصف وعرف الافرنج ان النصف الثاني لا يعطى ايضاً فبدأت الشكايات ترد من اوربا كالمطر وكثير القيل والقال في الاستانة بسبب المخطوب التي تتوالى على الدولة منذ ثلاث سنين وتعرضت ثروة الكثيرين للضياع وزادت هذه المسألة الطنبور نعمة والطين بلة

وبما كان الشعب مشتغلاً بمسألة السهوم اصدر محمود نديم باشا امر اعلان فيه ان السراي مستثناة من هذه المسألة واخرج من خزانة المالية فائدة سبعة ملايين ليده كان السلطان عبد العزيز قد ادخر بها سهوماً اخرج محمود فائدة هذا المبلغ من خزانة المالية على صراى ومسمع من الشعب وقدمها الى المايين فتمتعب الناس من هذا الحادث الخطير

كانت الثورة في البلقان تتقدم وتمتد فمن (قزائلق) الى (فلبه) و(زغره) و(الساميه) و(جربان) و(بزارجق) وكانت البرقيات ترد الى الباب العالي كالمطر الوايل طالبة ارسال الجنود والامداد بالمال فلم ترسل الحكومة جندياً واحداً وتوجه الى والي ادرنه والى (زغره) و(قزائلق) في عدد من العساكر وقبض على بعض الاشقياء وحذا حذوه عزيز باشا متصرف فلبه فعذبهم محمود نديم باشا ولاهم اشد اللوم وعزل عدداً كبيراً من القاعماين لانهم تعرضوا للاشقياء فوقع الاهالي في مصيبة وتأهبوا للدفع عن انفسهم وبعد ايام هجم البلغار على قرى المسلمين

واحرقوا منازلهم واطفالهم ونساءهم وشيوخهم وبعد كل ذلك وصلت الاخبار الى السلطان عبد العزيز فامر بارسال الجنود بمد خراب البصرة فارسلت الى بعض البلاد وكانت المسألة قد وصلت الى دورها الاخير فقال عنها محمود باشا انها ناتجة عن خطأ الاهالي وظلم العساكر فسبحان من قسم العقول وكانت حكومة روسيا وحدها قد ربت هذه الثورة واذاعت في جرائد اوربا بواسطة سماسرتها ان الاتراك يقتلون المسيحيين فقامت قيامة الجرائد وخطب الخطباء الخطب الثورية في العواصم المتمدنة قطعت اوربا الأمل في اصلاح بلادنا وبرهنت على ذلك بكذبنا في كل اعمالنا ومخالفتنا الحقيقية فلو سمو لنا السعادة والثروة والرفي وكل شيء حسن باسم الاصلاح لرفضناه رفضاً باتاً لاشيء سوى اسمه القبيح على مسامعنا فنحن اعداء الاصلاح اي اعداء انفسنا وعدو نفسه هو عدو ربه وعدو اخوانه وعدو المرأة وعدو الانسانية وعدو كل شيء ولما ارسلت الحكومة بعض الموظفين للبحث عن اسباب الثورة ارسلت روسيا بعض جواسيسها الى تلك البلاد وخدمت الموظفين فقدموا الى الباب العالي تقارير مغايرة للحقيقة واذاعت جرائد الهند وامركا ان الاتراك يذبحون النصراري ويظلمونهم وكانت الاحوال في الداخل تساعد على تصديق تلك الاشاعات لانتشار الظلم وسوء الادارة وتعامي الحكومة عن كل شيء كل ذلك بسبب سوء ادارة محمود نديم باشا واستسلام السلطان له ولسده اذنه عن سماع ما يعزى اليه من المسائل الظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار

كانت حالة الروميلي الثورية تنذر بالخطر ومحمود باشا لا يعير تلك المسائل نظرة بل يشتغل ليلاً ونهاراً بما يسميه باصلاح المالية وقد جمع كل ديون الدولة واراد توحيدها وحاول عقد قرض قدره (١٠) ملايين من الليرات وعين المتدربين والسماصرة لعقد القرض وقرر ارسال مليون من الليرات الى المايين بمد اخذ المال وقدم بذلك صكاً الى السلطان وقد وجد الصك بين اوراق عبد العزيز بعد خالعه .

الاسباب والتاثير

ذكرنا في اول الكتاب مسألة السلطان عبد العزيز وذكرنا ايضاً في مدحت باشا وقته في الطائف واحببنا ايضاً القاري الآن على الاسباب التي حدثت برجال اصلاح الى خلع عبد العزيز وذكرناها واحدة بعد واحدة وكل من قراء هذا الكتاب يتف على احوال الدولة العمومية في زمن عبد العزيز على وجه الاجمال وسنذكر في غير هذا الكتاب (اي في كتاب محاكمة مدحت باشا) اسباب خلع عبد العزيز مفصلة بزيادة ايضاح مع ذكر محاكمة مدحت باشا في محاكمة يلدزلي قاضي القاري على الاسباب التي سببت وقوع الدولة العثمانية في هاوية الافلاس والحرب والياس والجزع فاصبح كل عثماني يندب حظ دولته عالماً ان مصيرها الى الاتقراض والانحلال

على ان العثمانيين من مؤسس الدولة الى السلطان محمد فاتح الاستانة قد حافظوا على كيان هذه البلاد بالعدل والحرية والمساواة فقد دخل محمد الفاتح الاستانة وترك لأهلها حرية العبادة ودعا اليه بطريق الأروام واعطاه افراميين الباقية ليوم في يد هذه الطائفة واراد السلطان سليم قتل مسيحي الروميلي وطاب من زنبيلي على افندي شيخ الاسلام اصدار فتوى شرعية بقتلهم فقال له الشيخ ان الدين الاسلامي لا يأمر بقتل هؤلاء فلهم ما لنا وعليهم ما علينا فعدل السلطان عن نيته

وخلف السلف قوم اضعوا الملك واتبعوا الشهوات وارادوا جعل الارمن والرومى واليهودي والشركسى والعربي والكردي اتراكاً قبل اصلاح الحكومة واعداد اللغة التركية لقبول المتمدنين وجعلها لغة علوم وفنون فان الارمن يقولون نحن رجال عمل وفي يدنا التجارة والصناعة فان الرجل منا يتوجه الى باريس ويعمل اعمالاً يجارى بها اهلها فيصير تاجراً واليهودي قد اشتهر بالاقتصاد والرومى يشغل مركزاً تجارياً في بلاد الدولة العثمانية وفي كل عواصم الدنيا من امريكا الى السودان المصري والعربي يقول انا ولي نعمة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها

فعمى اخذوا التمدن والعلوم والفنون والصنائع وعنى انتقلت المدنية الى اوربا فقد احيا اجدادي العلوم وهذه اثارهم في الاندلس وفي بغداد تشهد بها اوربا قبل تركيا وكل هذه العناصر من ارمنية وعربية تقول لهؤلاء ياهؤلاء كيف اكفل مستقبلى اذا تركت لغتي وقومى وتجنست بجنسيتكم فهل اكون تركياً وتاجراً وانتم لا تعرفون التجارة ام اكون تركياً وعالماً ولسانكم بعيد عن العلوم والمعارف او هل اكون تركياً وصانعاً والصنائع مفقودة في بلادكم

كل هذه الامور لم يسمع بها احد في تواريخ الامم البائدة ولا في حكومات الاعلام ولم يرد عن ذلك نص في الشريعة الاسلامية او كلمة في الدين الاسلامي فقد قال النبي عليه السلام لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى وقال تعالى في كتابه العزيز ان اكرمكم عند الله اتقاكم

ومن العجيب اننا لم نسمع بذكر العناصر والعرب والتترك والشراكسة والاكرد والارمن الا عند وقوع الازمات وتوالي الكوارث ذلك لان الثورات في داخل البلاد تظهر بسبب استبداد الحكام رهنط الحكومة على الأهلين فاذا نار الكل ووقفت الحكومة عاجزة استعانت بالمسلم على المسيحي قائله ان نظر هذا المسيحي يطمح الى تسليم البلاد لدولة روسيا او فرنسا مثلاً ليستغل المسلم عن الظار الى ظلم الحكومة بما كسبه اخيه المسيحي واذا نار نائر الاكرد مثلاً قالت الحكومة لا تترك الاناضول ان هؤلاء الاكرد يريدون تأسيس حكومة كردية وغرضها بذلك اشغالهم عن طاب الاصلاح بمحاربة اخوانهم في الدين والوطن ولكن هذا العلاج لا ينفع فان العصر الحاضر قد ساق الناس بطبيعة تنازع البقاء الى التعلم رغم انف الحكومة المستبدة التي تريد ابقاء الشعب جاهلاً لتجتز صوفه وتحلب لبنة ويكون كالبقرة المدينة تحلب وتذبح وليس لها نصيب من صاحبها سوى اللبن

ولا بد ان يأتي على الكرة الارضية يوم يتجرد فيه الملوكة عن الزخارف ويساؤون افراد الشعب في مراتبهم ومعايشهم فقد قدمت هذه العادة واصبح الفقير لا

يتنزل الى احنا رأسه امام الملك ولماذا يحني رأسه امامه الآن اباه قد أمر جيشاً
 عمره ما وهو جالس على كرسي عظمته ففتح البلاد واجهد العباد فاذا كانت هذه
 الاسباب هي التي تحتم على الفقير التراف للملك والسجود بين يديه فقد كان جد
 الملك يوم فتحت البلاد جالساً فوق عرش عظمته بين جواريه وخدمه ووزرائه
 وعبيده وامائه وكان ابو الفقير وعمه وابن عمه في ميادين القتال فاجداد الفقير قد
 خدموا الوطن اكثر من اجداد الملك بكثير واذا اعلان العدو حرباً خارجية او نار
 الشعب في الداخل فان الفقير يندمج في سلك الجنود ويعرض صدره لرصاص
 العدو الخارجي ويقابل أخاه في الوطن وجهاً لوجه فيقتل ويقتل في الثورات
 الداخلية وفي الحروب الخارجية فالفقير افضل من الملك ولا بد للشعوب من
 القضاء على تلك المظاهر الفارغة في عصر التمدن والحرية والمساواة

فاذا كان المفكرون يمجدون انفسهم لايجاد وسيلة للتخلص بها من الملوك
 فكيف يرشى الحكومة مثلاً زيد المسلم أو عمرو المسيحي ويأخذ وظيفة وهو من
 افراد الشعب واذا جلس على كرسي عظمته صار من اكبر انصار الاستبداد وكيف
 يقبض هذا المستبد الاموال المتحصلة من عرق جبين التاجر والزراع والنجار
 والحداد ثم يستبد بمراقبتهم وهو يأكل خبزهم وينال اجرته من اموالهم
 ان الشعوب تسقط الحكومات وتخلع الملوك الذين هم اولى من غيرهم
 بالتعاضم والكبرياء والشعب يتحمل استبداد فرد ولا يطأطأ رأسه لآلاف
 وملايين من المستبدين • قد آن للجماعات عدم الخضوع للجماعات ولا للأفراد
 فلشعب فقيره وشنيه حق الاشراف على أمور نفسه والمرء باصغرية قلبه ولسانه
 لا بأبيه وجده ووظيفته وثروته واستبداده يشتغل التاجر بالمراباة فاذا صار من ارباب
 الثراء رشح نفسه للانتخابات وطالب الاندماج في سلك اعضاء مجلس الامة او
 الجمهورية فاذا ابذل الاموال والوف للبيرات للوصول الى بغيته شمش بأفقه وتعالى
 وتناول على حقوق الامة التي هو ربيب نعمتها ولم يشمخ بأفقه لان خزائنه مملوءة
 بالاموال والمال في خزانه الغني ملك له ولا شأن فيه لزيد ولا لعمرو فلم يشمخ

عليهم بأنفه الان اموال الامة قد وصلت اليه بالدسائس والفظائع والمراعاة وارشاء
الحكام فهو وایم الله نص قد لوث نفسه بدم الامة ويريد ان يشمخ عليها بأنفه بمد
امتصاص دمها وحجز اموالها

وهذه الادواء الاجتماعية هي من ادواء الامم لا من فظائع الاغنياء فقد
اعتاد الشعب اكرام الاغنياء بالتوارث فصارت عنده عادة اعزاز ارباب الثراء
ورائية واذا لم يترك هذه العادة ضاع مستقبل افراده بين سرقات الاغنياء وظلم
المستبدين فكيف تحفظ الشعوب حياتها بعد اليوم بين هاذين العاملين المهمين
رأى الملوك شدة الحاجة الى المال فقرروا الاغنياء وشاركوهم في التجارة والصناعة
وملأوا الخزائن بالذهب والفضة وهم لا يحجون الاغنياء لهذه الغاية وحدها بل لانهم
مستبدون والمستبد يجب المستبد

لم نر في تواريخ ثورات الامم التي خلصت بها حريتها من ايادي المستبدين
غنيا بذل امواله او جزءا من امواله لتحرير شعب ورأينا الكتاب والاطباء والمحامين
والشعراء يبذلون مهجهم على مذابح الحرية لتخليص بلادهم من ربة الاستعباد
ولذلك فنحن نرى مستبدي الملوك يفضون الكتاب والمحامين والاطباء والشعراء
لانهم خدام الهيثة الاجتماعية

قال لويس الرابع عشر عن جان جاك روسو لو اعطيت هذا النمس لقباً من
القاب الشرف والفت مجلساً علمياً وجعلته رئيساً له ترك تأليف كتابه العقد الاجتماعي
وكفاني شر نفسه ولكن ما الحيلة وقد نبه الامة الى المطالبة بحقوقها
فبمثل روسو وهيجو وديماس وغيرهم من الكتاب قد وصلت الشعوب الى
درجات العز ولم نسمع بان احد الاغنياء قد ساعد أمة على الخلاص من اغلال
الاستبداد

يقصد الكاتب من مصاريفه اليومية قسماً ليشترى جريدة او مجلة وترى
المجلات والجرائد مكدسة فوق طاولة الغني (ان كانت له طاولة) لم يفض غلافها
لانه لا يقرأ ولا يكتب فالعلم عنده هو مخادعة الناس وابتزاز اموالهم

وإذا كان الغني من الشريطين اخذ الجريدة من البريد وقرأها سنة او سنتين
وإذا طالبه صاحبها بقيمة اشتراكها رفض دفع الاشتراك واغتصب مال الصحفي
فالاغنياء هم اعداء الكتاب والشعراء بل اعداء الحرية ففي خزائن بعضهم انوف
المجلدات من الكتب الموروثة عن اباؤهم واجدادهم التي اشتروها يوم كان الاغنياء
يتنافسون بشراء الكتب وهم يحبسونها في بيوتهم ولا يتركونها للفقراء ولا لاحدى
المدارس فتنفع بها فهم اعداء العلم

في بيوت الاغنياء غيد حسان لم يمسهن انس ولا جان وفي البلاد شبان لم ير
احدهم امرأة في ايام حياته والغيد الحسان يمان طبعاً الى الشبان وطالما حصل ما لا
يليق ذكره بسبب منع البنات عن الزوج وحسنهن في بيوت ارباب الملايين
الذين قد تركوا المعاملة النسائية اذ بلغوا من العمر ارضله بيد انهم يريدون التمتع
بالذات البهيمية الى آخر ايام حياتهم الممقوتة فيسبون لغيد الحسان اسباب المحن
والاحن فالاغنياء هم اعداء العرض والشرف

يتقدم الغني الى القاضي فيطلب منه تعيينه وصيا على ايتام زيد المتوفي ويقدم
له الرشوة فيقبل القاضي واذا عينه سرق ما وصات اليه يده من مال اليتيم ورباه
تربية ابناء الاغنياء فلم يعلمه لانه لم يذق لذة العلم واذا كبر اليتيم سلمه امواله ناقصة
بعد اختزال قسم كبير منها ويكون اليتيم قد تعلم الخسة والدناءة وسوء الاخلاق
فيصبح عالة على الهيئة الاجتماعية وعلى الانسانية والشرف أيضاً فالغني اذن عدو
الهيئة الاجتماعية عدو الشرف

كيف بقيت اعمال مدحت باشا عقيمة

كان الشعب العثماني غير متعلم فأثرت فيه اختلاقات رجال السراي السلطانية
واقوال جرائد مصر والاسنانة المأجورة فقد اشاعت عن مدحت باشا خبر عزمه
على خلع السلاطين وابادة العائلة المالكة وجعل الحكومة العثمانية جمهورية فصدق
الشعب الجاهل تلك الاشاعات الكاذبة

وكان الكبراء والعظماء والاغنياء وهم عباد الملوك وشركاؤهم يسبون مدحت

باشا ابا الدستور الى يوم اعلان القانون الاساسي في تركيا واسس الكتاب الروايات التاريخية وذكروا فيها واقعة عبد العزيز وعزوا الى محمود نديم باشا الصدق والاخلاص والوطنية والاستقامة والى مدحت باشا الخيالة والمروق عن الوطنية واتباع دسائس الانكليز والعمل باشارتهم واكثر الكتاب في الشرق يخدعون افكار الملوك والاغنياء ويظنون ان مؤلفاتهم لا تلاقي رواجاً الا اذا نظر اليها هؤلاء بعين الرضى وهو فكر باطل لان الغني لا يشتري كتاباً ولا يقرأ صحيفة والملوك قد اشتهر اكثرهم بالجهل في الشرق واذا سمعنا ان ملكاً يقول الشعر او يشتغل بالعلوم وجب علينا عدم التصديق لأن الشعراء في البلاد الشرقية طالما نظموا قصائد وعزوها الى الملوك لذر الرماد في اعين الشعوب

نعم لانكر علم رجل كالخليفة المأمون او سيف الدولة وهم من النوادير التي لا يقاس عليها في الشرق

والشعراء والكتاب يسيئون الى المجتمع الانساني اذا اتبعوا في كتاباتهم ومؤلفاتهم افكار الملوك والاغنياء

بقي الشعب العثماني يرسف في قيود الذل ثلث قرن بعد خلع عبد العزيز بسبب اكاذيب الكتاب والسامسة ونام الشعب نومة طويلة الله اعلم متى يفيق منها فان الاغنياء يميلون الى الاستبداد كما قدمنا والكتاب والساسة لا يملكون شيئاً ومن اين يوجد كاتب في عاصمة كالاستانة التي لا توجد بها مدرسة منتظمة الى اليوم وقد امتنع افراد الشعب العثماني عن ذكر مدحت باشا فكان الوالد لا يسمى ولده بهذا الاسم فاصبحت الاستانة وعدد سكانها يناهز المليون لا تحتوي على من يدعى بمدحت سوى رجل صحفي من صنائع عبد الحميد سماه والده بهذا الاسم قبل حادثة الطائف المشأومة واشتغل الشعب العثماني بالتجنس ثلث قرن فكان الولد يقدم الى عبد الحميد تقريرا ضد والده والزوجة تتجنس احوال زوجها والجاويز بجاره لنيل الاموال والرتب والنياشين والوظائف لان الاستانة والولايات خالية من الصنائع والزراعة والتجارة والافكار العمومية لم تهفها التربية لليوم نخلوا البلاد من المدارس

وخلت الاستانة من الجرائد سوى جريدتين كانتا تذكران السلطان باسم وارث الفاروق وخبر الخلفاء وغير ذلك من الالفاظ التي لا يمكن ان يلقب بها غير الله جل وعلا

واشتغلت السراي اذ ذلك بارشاء جرائد اوربا فكانت سفارة باريس وحدها تصرف (٥٠) الف ليرة من مال الشعب العثماني لجرائد باريس بواسطة صالح منير باشا سفير الدولة العثمانية وانتشر الجواسيس في الاستانة في الاسواق والقهاوي وفي قصور اعضاء البيت المالك وفي بيت ولي العهد وبيوت الاصهار وكانت بين هؤلاء الجواسيس طائفة من النساء يدخلن البيوت لالتقاط الاخبار وامتلات نظارات المعارف والاقواف والخارجية والداخلية وغيرها من نظارات الدولة بالجواسيس وكان الوالي يأخذ كل شهر (٥٠) ليرة عدا مرتبه من مصاريف التجسس والعضو في مجلس شورى الدولة يأخذ مثل هذا المبلغ واشتهر جماعة من الجواسيس في الاستانة مثل عبد الغني بك وفهيم باشا ومحمد باشا الشركسي فكانوا ينهبون الاموال ويفتضون العذارى ويقتلون النفوس والسلطان ينظر اليهم من بعيد ولا بد من مرور نصف قرن على الامة العثمانية لتطهير الاخلاق العمومية من دنس التجسس فقد ابقى اثرا سيئا في الاستانة وفي العائلات الكبيرة وفي الشبان والشيوخ والنساء وفي كل مكان فافاق جماعة من ابناء الوطن لا علاقة لهم بالاستانة ولا يبلدز وليسوا من اهل الاناطول وتوجهت انظارهم الى الخطر المحدق بالوطن واجبروا السلطان على اعلان الدستور فتعجب الناس من جرأتهم واعمالهم لان مدارس الاستانة كانت مملوءة بالجواسيس وكان معلم التاريخ يقول للتلاميذ في اثناء الدرس ان بلغاريا وقبرص ومصر والصرب والجلب الاسود والبوسنة والهرسك هي من ولايات الدولة وكان التلاميذ يقرأون عن السلطان عبد العزيز انه مات شهيدا ولا يقرأون اسم مراد ولا رشاد فمن اين تعلم الذين قاموا بالثورة في الروميلى هذا الدرس الثوري واجتروا على تلك الحركة وحال المدارس كما ذكرنا

الجواب على السؤال السالف سهل وهو ان بلاد الروميلى مملوءة بالبلغاريين

وبلغاريا هي ام الثورات وهناك اساتذة البلغار الذين قد تلقوا دروسهم في صوفيا ومنهم
لا من غيرهم تعلم رجال الحركة الدستورية كيف تدار الثورة وحسبنا على ذلك ان
اهالي الاستانة قاموا بعد فترة من الزمن قومة رجل واحد وقتلوا عددا من
الدستوريين وارادوا قلب المملكة من دستورية الى ملكية وتحفز اهل الاناطول
في انقره وقونيه وقسطموني للثورة ضد الدستور حتى ان مفتي قسطموني أعمى زاده
محمد امين افندي قد افتي اذ ذلك بوجوب قتل الدستوريين شرعا لان الاحكام
الدستورية مخالفة للقرآن والسنة والدين الاسلامي على زعمه وبعد اصدار هذه
الفتوى مات الرجل خوفا ولولا دخول فيلق الحرية الى الاستانة لاصبح الدستور
حبرا على ورق وارسل الدستوريون الى الطائف وقلاع الاناطول وشنق اكثرهم
في ميدان السلطان احمد

فالافكار الثورية قد دخلت بلادنا من بلغاريا لا من فرنسا ولا غيرها من
البلاد وحسبنا ان اكثر رجال الثورة لم يفارقوا رجال الروميلي ولا توجه احدهم الى
اوربا الا بعد اعلان الدستور

لو بقي مدحت باشا

لو بقي مدحت باشا حيا واطاعه عبد الحميد لاصبحت تركيا اليوم من اكبر
بلاد العالم من حيث العمران والثروة والقوة والمنعة لان الرجل كان يشبه اللورد
كرومر وبسمارك ونمبتا وغيرهم من عظماء الرجال
ولو قسنا اعماله واعمال غيره من الرجال لرأينا الفرق كبيرا لان كامل باشا
وكوچك سعيد باشا لم يعملوا ربع ما عمله من الاعمال فقد كان السلطان الخلع
يوجه الى احد هذين الرجلين مسند الصدارة عند اشتداد الكوارث لا لسبب
سوى انهما يعرفان اللغات الاجنبية فكانا يرقعان الامور ترقيعا ويعقدان المعاهدات
بين الدولة العثمانية وبين الدول ولم يفعلوا شيئا يعود على الحكومة بالعمران ولو
توجه سائح الى بغداد وبيروت وسلايك ونظر الى آثار مدحت باشا لرأها باقية
اليوم وهذا كامل باشا قد عينه عبد الحميد (١٥) سنة واليا لولاية ازميز فلم يترك

جزءاً من عشرة من مثل الآثار التي تركها مدحت باشا في ولاية بغداد بعد ان
اقام بها ثلاث سنين

كان مدحت باشا اذا فكر في امر أقدم عليه من اول يوم وابتدأ باجرائه
بعكس رجال الدولة العثمانية الذين يقضون اوقاتهم باحضار اللوائح وشرب القهوة
والشاي ولا يعملون عملاً الا بعد المذاكرات الطويلة والاخذ والرد واذا اقدموا
على عملاً تركوه بعد المذاكرات الطويلة والقرارات التي تجلب الصداع

لم يسمع احد ان مدحت باشا مكث شهراً او شهرين لاحضار لائحة بل رأى
الناس السفن تملأً بالاسلاك بعد توليته مسند الصدارة باسبوعين وسألوا عن السبب
فقيل لهم انه عازم على مد الخط التلغرافي بين الشام والحجاز ورأوا بعد ذلك باسبوع
المهندسين يتوجهون الى طرابلس والى بغداد لترسيم خريطة خط بغداد الحديدي
رأى الناس رجلاً في يده المسبحة يقرأ الاوراد ويصلي الاوقات الخمس ولم
يتعلم سوى اللغة الافرنسية بعد ان جاوز سن الاربعين وتعلم في ايام صباوته في
مدارس الفاتح وقرأ دروسه على المشايخ ولكن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء

رأى الناس رجلاً واقفاً على قوانين الدولة يحضر له السلطان محكمة مخصوصة
لمحاكمته في يلدز فيجب القضاة بكل جسارة ويزيف مدعياتهم كاهر المحامين
ورأوه في مؤتمر الاستانة يحل مشاكل الدولة ويحادث السفراء فيقولون من اين
أتى هذا الداهية واين تربى وهل يوجد بين الاتراك رجل هذه صفاته وعلى اي
استاذ تلقى دروس السياسة وعرف المعاهدات السياسية فلو بقي مدحت باشا حياً في
منصب الصدارة (١٥) سنة لأوصل الدولة الى اعلى درجات الرقي ولكن عبد الحميد
ابى الا الاستبداد بالملك فحفر قبر الرجل بظلمه وحفر بجانبه قبر الامة فقضى على
الاثنين في يوم واحد لان تركيا لا تعود الى مجدها السالف ولن تعود ابداً الا اذا
من الله عليها برجل مثل مدحت باشا وهذا الرجل غير موجود لان الطبيعة لا تجود
بواحد من هؤلاء الامرة في كل قرن

الدين والاستبداد

من الذرائع التي يتذرع بها المستبدون للاستيلاء على الامم البائدة ضمهم السلطة الدينية الى السلطة الادارية وشراؤهم ذمم المعممين بثمن بخص دراهم معدودات وعزوهم ما لا يشعب جشعهم ويملى بطونهم الى مخالفة الدين فاذا قام الشعب وطلب الافراج عنه ومنحه القوانين العادلة والحرية التامة والمساواة الحقيقية جبهة المستبد بذكر الدين والدين يأمر بالعدل والاحسان ولكن الملوك يشترون ذمم المعممين باموال الشعوب البائسة فيقول هؤلاء ملك غشوم خير من فتنة تدوم والسلطان ظل الله والتوراة والانجيل والقرآن وكل الشرائع السماوية والقوانين الموضوعة لاتفرق بين الملك وبين رعيته ولكن الملوك يجدون لهم من الاغنياء والعلماء انصارا لم يكتفي الملوك بعمل عروشهم ميراثا لابنائهم يتوارثونها كايها عن كابر وقد كانت الامم في سالف الاعصر تنتخب الملوك انتخابا فلم يقع المستبدون بكتابة انصوك لابنائهم واحفادهم وجعل العروش كسلع يرثها الابناء عن الآباء بل ملأوا خزائنهم بالنضار لان المرتبات التي ينالها ابناؤهم من دماء الفقراء بعد هلاكهم تكون غير كافية على زعمهم وكانهم نظروا الى الامم التي قد ساقها سوء الطالع الى الخضوع لاستبدادهم وعلموا انها ستقرض على تمادي الايام او ينتقل الملك الى غيرهم فاقتنوا الضياع وجمعوا الاموال ليصبح ابناؤهم في عداد الاغنياء ذوي الملايين يوم تغير الدول القوية وتنتزع منهم الملك الموروث عن الآباء والاجداد

مات النبي العربي الهاشمي وقال قبل موته نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه فهو صدقة وكان الخلفاء الراشدون لا يملكون شيئا ولكن ملوك الشرق يتزرون اموال الرعية ويتركون ابناهم بين الاماء والجواري والخصيان فاذا تولى احدهم الملك بدد وغير وبدل واحاط نفسه بالعلماء فقتلوا عدوك عدو الله ومن عصاك فقد عصى الله ولذا فقد كثر قول القائلين بان الدستور لا يوافق الشرع في زمن عبد العزيز وعبد الحميد

ولم يستعن عبد الحميد وعبد العزيز وحدهما برؤساء الاديان بل كل ملوك

الشرق المستبدين قد اتخذوا الدين العوبة واستعانوا بالعلماء على ترويج مقاصدهم وجعل ابناء الشرق دينهم ولم تنشئ لهم الحكومات الاستبدادية المدارس لتعليمهم وتهذيبهم لعلمها ان الشعب الجاهل يطيع رؤساء الاديان ورؤساء الاديان يرضون بالقليل من المال ويعبدون المستبد عبادة ويطأطؤون له الرؤوس ذلاً وخضوعاً لانهم لا يجحدون ما عنده من الاموال في يد الشعب والشعوب في نشأتها الأولى لاتملك شيئاً بل يكون افرادها كالغنم السارحة في الليلة الماطرة ولو نظر الانسان الى نفوذ بعض المشايخ في صحاري افريقية وفي بلاد العرب لعرف السر في تقريب الملوك الرؤساء اندينيين فان في بلاد العرب اليوم مشايخ قد وصلت درجاتهم الى درجات الملوك فاصبحوا عالة على الشعب لانه يظن انهم هم الواسطة الوحيدة بينه وبين الخالق جل وعلا فهو يسجد امامهم ويطعمهم ويحارب اعداءهم للذود عنهم ويسمى حربه جهادا ظاناً ان بقاء الدين لا يتم الا بحياة الشيخ

يترك الشيخ ابنه وحفيده فيجلس على تحت عظمة ابيه ويتحكم في اموال الشعب باسم الدين والدين بعيد عن السلطة الادارية وفي القبائل البربرية عدد غير قليل من المشايخ يسميهم العامة بالسادة وهم كلوك البوادي

لعب المستبدون دوراً مهماً باسم الدين واستعان عبد الحميد على الطوائف الغير مسلمة بالمشايخ فكانوا ينشرون مبادئه الارستقراطية بين العوام والشعب يظن ان المعممين ينطقون باسم الله وباسم نبيه وطلما ذبح اجلاف الاكراد رعايا الدولة الارمن ذبح الاغنام وقد تكررت هذه الاعمال الوحشية مراراً باسم الدين حتى قال الافرنج وغيرهم ان الدين الاسلامي بعيد عن المدنية والدين بريء مما يقوله مشايخ الاستانة وانصار عبد الحميد

الدين قد كتب بلغة العرب وعلما الاتراك لا يعرفون كلمة من اللسان العربي فكيف يلقنون العامة عبارات تنفر منها الوحوش باسم الدين الحنيف وقد اجمع الفلاسفة على ان الدين الاسلامي مبني على الديمقراطية وان النبي العربي كان يجلس

على الارض وياً كل وينام عليها ويجالس الفقراء ويساوي بينهم وبين الاغنياء
لم يقل الافرنج الجهلاء وحدهم ان الدين الاسلامي بعيد عن المدنية بل جاراهم
على ذلك شبان الاتراك المتعلمين فان الواحد منهم يتعلم اللغات الاجنبية ويقرأ
كتب الافرنج ولا يفقه كلمة من القرآن ولا من الحديث ومع ذلك فهو يقلد الافرنج
ويطعن في الدين قائلاً انه السبب في تقهر الامة العثمانية وبقائها جاهلة بعيدة عن
الحضارة والعلوم والفنون والاختراعات

والافرنج أنفسهم يقرون بالحضارة العربية فلم لم يؤخر العرب دينهم كما اخر
الاتراك وحكم عليهم بالذل والجهل

اعتنى الخلفاء والعلماء في عصر الدولة العباسية بتدوين العلوم الاسلامية فوضعوا
اصول الفقه واستنبطوا احكامه ودونوا الاحاديث النبوية وتفسير القرآن وعلوم
العربية واستخرجت علوم البلاغة ووضعت لها القوانين والشواهد ووضع العروض
وحصرت اوزان الشعر العربية في دوائرها الخمس والفوا وترجموا كتباً في الطب
والهيئة وفي العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة وتقويم البلدان والتاريخ العام وتاريخ
الاشخاص واعتنوا باللغة وضبطها وتصرفوا فيما ترجموه ففتحوا وهذبوا وزادوا
واستنبطوا واصلحوا كثيراً من اغلاطه وقد وسعت اللغة العربية كل العلوم التي
الفت بها او نقلت اليها ولم يدخل من الالفاظ الاعجمية الا شيء يسير واكثر
ما وقع ذلك في الكتب التي عربها من لا يحسنون العربية

واول من اعتنى بالعلوم وتدوينها من الخلفاء العباسيين ابو جعفر المنصور فاخذ
في انشاء المدارس الطبية والشرعية وكان بارعا في الفقه ومع ذلك فقد خصص
جزءاً من زمنه لتعلم العلوم الفلكية وامر بكتاب اقليدس فترجم في زمنه في الهندسة
والهيئة والحساب واكمل حفيده الرشيد ما بدأ به جده وكان باذلاً جهده في احياء
العلوم والآداب ونشرها وكتب في ايامه مصنفات كثيرة في العلوم الاسلامية
وغيرها مما ترجم عن اليونانية ومن ذلك كتاب المجسطي الذي افه بطليموس في
الرياضة السماوية وكان المترجمون من السريان المسيحيين فاحسن الخلفاء صلتهم

وافاضوا عليهم النعم وكان اكثرهم غير متمكن من العلوم التي نقلوها الى العربية فوقع فيها الغلط الكثير فصحح الغلط الراسخون في العلم من العرب في زمن المأمون وما بعده كما صححوا كثيراً من غلط اليونانيين انفسهم وكان اشتغال العرب بالعلم للعمل به فتناولوا الكتب التي ترجموها من قوم كان حظهم منها حفظها على انها من نفائس الذخائر وماثر الجليل الغابر وقد ظهر اثر العمل في زمن الرشيد فمن ذلك الساعة الدقاقة المتحركة التي ارسلها الى شرملان ملك فرنسا عظيم اوربا لعده ففزع الاوريون منها لذلك العهد وتوهوا انها آلة سحرية قد كملت فيها الشياطين وان ملك العرب قد ارسلها اليهم لتقاتلهم وتوقع بهم شرايقاع وقد اجتمع في حضرة الرشيد جماعة من اكابر العلماء وكان يأتي بهم ويرفع منزلتهم وكلما ذهب للحج استصحب معه مائة منهم

ولما افضت الخلافة الى المأمون وجه عنايته الى العلوم والآداب وشغف بالعلم فلم يجالس غير العلماء وجمع وترجم كثيراً من كتب الفرس واليونان في الهيئة والطبيعات وتخطيط الاراضي والموسيقا وغرس للعلم والادب جناحاً ناضرة فزكا بنتها وتفتح نورها وطاب ثمرها ووصلت به دولة العلم الى أوج عظمتها وكانت بغداد في عهده مهد العلوم ومنبع العرفان ولما اصطالح مع ميشيل الثالث وضع ضمن شروط الصلح ان يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فاجابه الى بغيته ولف علماء العرب في زمنه ارسادا وازياجاً فلكية وحسبوا الكسوف والخسوف وذوات الاذنان وغيرها ورسدوا الاعتدال الربيعي والخريفي وقدروا ميل منطقة فلك البروج وقاسوا الدرجة الارضية واصلحوا بامرهم غلط بعض الكتب التي ترجمت في هذا العلم قبل زمنه

وجاء الواثق بعد المأمون وهدى هديه في الاشتغال بالعلوم واقتدى انوزراء والامراء بالخلفاء وحذوا حذوهم واخذوا جميعاً بناصر العلماء وشدوا أزرهم ورفعوا منزلتهم

فاخذ العلماء بالاشتغال بكل علم وكل فن امكن الاشتغال به في ذلك العصر

وبنوا علومهم على التجربة والمشاهدة قال احد فلاسفة الاوربيين ان القاعدة عند العرب جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا وعند الاوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما ومن العلوم التي كان للعرب فيها اليد البيضاء علم الهيئة والهندسة وسائر العلوم الرياضية فانهم زادوا عليها من مخترعاتهم واصلحوا من اغلاط اليونانيين فكان لهم الحظ الاوفر في هذه العلوم قال ديلامبر في تاريخ علم الهيئة اذا عدت في اليونانيين اثنين او ثلاثة من الراصدين امكنتك ان تعد من العرب عددا غير محصور ومن العرب اخذ الافرنج الارقام الحسابة وعلم الجبر والمقابلة الذي هو من وضع العرب وقد اخذوه باسمه وسماه وقال بعض المؤرخين : ان ديفوتوس الاسكندري من اهل القرن الرابع للميلاد هو اول من الف في الجبر وكتبه لاتزال موجودة الى الآن والحق ان هذه الكتب ليس فيها الا قواعد استخراج القوى وحل بعض المسائل وليس فيها اصول الفن وقواعده الاساسية التي امتاز بها وصار فنا مستقلا ومثل ذلك علوم البلاغة فقد قالوا ان مؤسسها وواضعها هو الامام عبد القاهر الجرجاني مع ان العلماء قد سبقوه الى الكلام في بعض مسائلها ولكنهم لم يبلغوا بذلك ان جعلوها علما ذا اصول وقواعد كما جعلها هو فهو صاحب القدر المعلي

واكتشف العرب قوانين اثقل الاجسام مائتها وجامدها ووضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة واخترعوا البندول للساعة اخترعه ابن يونس المصري والبوصلة البحرية واخترعوا بيت الابرة ايضا وهم اول من استعمال الساعات الدقاقة للدلالة على اقسام الزمن واول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض

ومن علومهم التي وضعوها ولم يسبقوا عليها علم الكيمياء الحقيقية فهي من اكتشاف العرب دون سواهم وعلم اخذها الافرنج وانك لا تجد عند اليونانيين محررا وتجد مئين من المجر بين في العرب

وقد اشتغلوا بالطب والصيدلة ولهم في ذلك المؤلفات العديدة النافعة ومربكات الادوية الصالحة وهم اول من استحضر المياه والزيوت بالتقطير والتصفيد واول

من استعمال السكر في الادوية وكان غيرهم يستعمل العسل وكان حكام الاندلس يعنون
 بادارة الصيدليات فيفحصون ادويتها ازالة للغش وقد برعوا في الجراحة فكان
 النساء في الاندلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية بغيرهن من الاناث وذلك
 ما بحث عليه اهل اوربا وامريكا اليوم ولهم في هذه الفنون مؤلفون يعدون في
 الطبقة الاولى من علماء العالم في العلوم التي اشتغلوا بها ولا تزال مؤلفات كثير منهم
 باقية الى اليوم كقانون ابن سينا ومفردات ابن البيطار واذا رجعت القول بان
 يونان اخو قحطان ترك بلاده ونزل بين الافرنجة والروم فاختلط نسه بنسبهم
 كانت الكتب اليونانية بضاعة العرب ردت اليهم

ولم يكن اشتغال العرب بالجغرافيا والتاريخ العام وتاريخ الاشخاص بأقل من
 اشتغالهم بالعلوم السابقة فلهم السياحات العديدة حول افريقية وآسيا وجانب من
 اوربا وقد رسموا ما اكتشفوه رسما حسنا ولهم في تقويم البلدان مؤلفات عديدة
 بعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع فمن الاول تقويم البلدان لأبي الفداء ومعجم
 ياقوت طبعا في اوربا ومن الثاني نزهة المشتاق للشريف الادريسي محمد بن محمد
 الصقلي كان في القرن السادس الهجري وهو الذي صنع لرجار الافرنجي ملك صقلية
 سنة ١١٥٣ اول كرة ارضية عرفت في التاريخ زنتها من الفضة ١٤٤ اقه رسم فيها
 جميع انحاء الارض في زمانه رسما غائراً مشروحاً بالاستيفاء وصنف له ايضاً كتاب
 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مرتبا على الأقاليم السبعة وصف فيه البلاد
 والممالك مستوفاة مع ذكر المسافة بالميل والفرسخ ومؤلفاتهم في التاريخ تفوق الحصر
 والفضل الاول في الاشتغال بهذه العلوم يرجع الى مدرسة بغداد التي كانت ينبوعا
 أصليا استمدت منه سائر المدارس الاسلامية قال بعض مؤرخي الافرنج ان العرب
 استقاموا عدة سنين على الطريقة التي وضعها علماء مدرسة بغداد واتبعوا قواعدهم
 وهي الانتقال من النظر في المسيدات الى اجتلاء الاسباب لا يعملون الا على ما
 اتضحت صحته وعرفت حقيقته

وقد انشئت المدارس العديدة تباعا وجمعت اليها العلماء ولم يخل منها قطر من

الاقطار الاسلامية وازدانت بها بغداد والبصرة والكوفة وبخارى وسمرقند وبلخ واصفهان ودمشق وحلب والاسكندرية والقاهرة ومراكش وفاس وسبته والقيروان في قارة افريقيه واشبيليه وقرطبه وغرناطه وغيرها من مدن الاندلس العديدة في قارة اوربا وكان بالقاهرة وحدها عشرون مدرسة في القرن الرابع وفي قرطبة وحدها من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة في مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٦٦ واصبحت الاندلس في اواخر القرن الخامس غاصة بالمكاتب والمدارس الجامعة ولم تخل مدينة من مدنها من مدارس متعددة قال جيون في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء وبسط يد الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان من ذلك انتشار ذوق العلم ووجدان اللذة من تحصيله من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة

اتفق وزير واحد لأحد السلاطين مائة الف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها خمسة عشر الف دينار تصرف في شؤونها كل سنة وكان الذين يفتنون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن اعظم العطاء في المملكة وابن افقر الصناع فيها غير ان الفقير يفتق عليه من الربيع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال ابيه والمعلمون كانوا يتقدون اجورا وافرة اه

وجميع المدارس الطبية في البلاد الاسلامية اخذت نظام امتحانها من مدرسة الطب في القاهرة وكان من اشد النظمات وادقها ولم يكن لطبيب ان يمارس صناعته الا على شريطة ان تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته وأول مدرسة طبية انشئت في قارة اوربا على هذا النظام المحكم هي التي انشأها العرب في ساليرت من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكي اقيم في اوربا هو الذي اقامه العرب في اشبيلية من بلاد الاندلس وقد تعددت المراصد في البلاد الاسلامية شرقاً وغرباً ومن اشهرها مرصد بغداد المنشأ على قنطرتها وقد رصدت به عدة ارصاء وصححت جملة ازياج ومرصد المراغة الذي انشأه نصير الدين الطوسي بأمرهولا كوخان ولما اتم كوبلاسي

خان اخو هولاء كو فتح الصين قتل مؤلفات علماء بغداد اليها ومرصد سمرقند الذي انشأه تيمورلنك ومرصد دمشق الذي انشأه مرزا محمد حفيد تيمورلنك وكان من اعلم علماء الفلك وله زيج مشهور معتبر الى هذا العصر وكان بمصر مرصد جبل المقطم انشأه ابن يونس الفلكي الشهير صاحب الزيج الحاكمي واما دور الكتب فلم تكن عناية الدول الاسلامية بها اقل من عنايتهم بالمدارس فقد كان في القاهرة في اوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة الف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير ومكتبة الخلفاء في الاندلس بلغ ما فيها ستماية الف مجلد وكان فهرسها اربعة واربعين مجلداً وقد اثبتوا انه كان ببلاد الاندلس وحدها سبعون مكتبة عمومية وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة واما ضخامة تأليف العرب فلا يحصرها العد وحسبك في المشرق كتاب قيد الأوابد للامام البنجديهي المتوفي سنة ٥٥٩ من قرى خراسان في ٤٠٠ مجلد وفي الاندلس كتاب لابن ابان نحو ١٠٠ سفر بدأ فيه بالفلك وختم بالدارة والاعجب من كل ذلك كتاب فلك الادب الذي تعاقب على تأليفه جهايزة الاندلسيين ١١٥ سنة آخرها ٦٤٥ هجرية

ولقد احرق اهل اسبانيا من الكتب الاسلامية بعد جلاء المسلمين عنها ما يدهش لبيان عدده السامع ويحار المتأمل ويتوقف قلم الكاتب

فقد امر الكردينال الاسباني سيمبربحرق الكتب فحرق (٨٠) الفا في ساحات غرناطة وهم لا يدرون عنها شيئاً حتى افنوا الف الف وخمسة آلاف على ما قال احد مؤرخيهم كلها مخطوطة باقلام العرب وليت الاسبان يجربون كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم يذروا وما يقولون عن السفن التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الفخمة وطالبة ديار سكان مراکش فسلبوها والقوا كتبها في قصر الاسكوريال سنة ١٦٧١ ميلادية حتى لعبت بها النيران فأكلت ثلاثة ارباعها ولم يستخلصوا منها الا الربع الاخير ثم استفاقوا من غفلتهم وعلموا مقدار جهالتهم ففوضوا الى ميخائيل القصيري

الطرابلسي الماروني ترتيبها وكتابة اسمائها فكتب لهم اسماء ١٨٥١ كتاباً منها فعلى ما في هذه الكتب وما بقي في افريقية والمشرق قصر اهل هذه الايام معارف العرب ولم يستوعبوا جميع ما في هذه

واما مكاتب بغداد فانه لما فاجأها التتار بالهجوم بعد قتل الخليفة المستعصم اخر الخلفاء العباسيين جعلوا دأبهم السلب والنهب واخذوا كتب العلم التي كانت في خزائنها والقوها في نهر الدجلة فعبرت عليها جنودهم واذا اضفنا هذه النفاس الى ما احرقه اهالي اسبانيا وتصورنا مقدار ذلك ونسبنا ما بقي الى ما اتلف فان هذه الملايين قد خطت بالقلم قبل احداث المطابع وانصفنا العرب حكمتنا بانهم لم تسبقهم أمة اعتنت بالعلم اعتنائهم واهتمت به اهتمامهم وكان اهل اوربا قد قصدوا في القرون الوسطى مدارس الاندلسيين التي كانت على غاية الاتقان فقرأوا فيها العلوم ونقلوها الى بلادهم وفي سنة ٨٧٣ للمسيح امر هرموت رئيس دير ماري غالان جماعة من رهبانه بدرض اللغة العربية لتحصيل معارفها وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لاضر يد علميه واشهر من تعلمها البابا سلفستر الثاني واصله من الافرنسيين يدعى جربرت ساح في اوربا لطلب المعارف حتى دبت قدمه في الاندلس فرجع في مدارس اشيلية وقرطبة وصرف رغبته الى العلوم وبعد ان تعلمها عاد الى وطنه وما زال يسمو بسبب تلك العلوم على انداده حتى جماعه في منصب البابا فشاد للعلم مدرستين الاولى في ايطاليا والاخرى في ريمز وادخل الى اوربا معارف العرب والارقام الهندية التي نقلها عنهم ثم نازت الحمية في اهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانكثروا فطلبوا الاندلس من كل فج وتعلموا العلوم من اهلها قال موتيكللا في كلامه عن العلوم الرياضية ولم يقيم من الافرنج عالم بالرياضيات الا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة فن جملة من نقل عنهم المعارف من اهل ايطاليا دوكر بمونا نقل علم الهيئة والطب والفلسفة بطليطلة وترجم عن المحسطي وكتب الرازي والشيخ الرئيس الى اللاتينية ولبوندار البيزي نقل عنهم الحساب والجبر ونقل عنهم ارنولد الفيلاونوفي الهيئة والطبيعات والطب ومن نقل عنهم من الانكايذ

راهب اسمه بلارد وآخر اسمه مورس وآخر اسمه اسكوت وكذلك روجر باكون الشهير فان ما حصله من المعارف في الكيمياء والفلسفة والرياضيات انما استخلصه من كتبهم وقد اقتبس من اقوال الحسن في البصريات فانه اخذ كثيرا من الحسن ولما عرف ملوك الافرنج قيمة معارف العرب امروا بترجمة كتبهم ومنهم قتل شيرلان فردريك الثاني والفونس الثاني القسطلي والخالصة ان الافرنج نقلوا عن العرب مما نقله العرب عن غيرهم او استنبطوه بأنفسهم الفلسفة والهيئة والطبيعات والرياضيات والبصريات والكيمياء والطب والصيدلة والجغرافية والزراعة والفراسة واخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر والخزف وتركيب الادوية ونسج كثير من المنسوجات وادخلوا منهم الى بلادهم دود القز وكثيرا من الحبوب والاشجار كالأرز وقصب السكر والزعفران والقطن والسبانخ والرمان والتين ونقلوا عنهم دبغ الاديوم وتجنيفه وقد استر الانكليز هذه المسألة بعد فقدها من العرب بعد جلائهم من الاندلس وما زالوا يسمون الجلود المدبوغة بها (موركو وكوردوفان) نسبة الى مراکش وقرطبة

ولا تزال الالفاظ العربية مستعملة في اكثر مباحث الافرنج الطبيعية كالسمت والتطير والسموت والمقنطرات واسماء النجوم والكحول والجبر والقطن والشراب والكيمياء وغيرها ولولا لغة العرب لبقيت لغة اهل اسبانيا قاصرة كما كانت فاسماء اوزانهم واقسمتهم اكثرها عربي محرف كالفنطار والرابع والشبر وكذلك اسماء قطع الماء ونحوها كالبحيرة والبركة والجب والكهف وغيرها كثير وقد قال احد كبار الكتاب ان المدنيين للعرب كثيرون وان قال غيرنا غير ذلك فالعرب هم الحلقة التي وصلت مدينة اوربا قديما بمدنيتها حديثا وبنجاحهم وسمو همتهم تحرك اهل اوربا الى احراز المعارف واستنفاقوا من نومهم العميق في الاعصار المظلمة ونحن لهم مدنون ايضا بترقية العلوم الطبيعية والفنون الصادقة النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفعت اوربا كثيرا ومدنية

فهذه هي مدينة العرب أخذوا عن اوربا واخذت عنهم ولم يتصد احد للطعن

في دينهم سوى عباد الملوك المستبدين فان انصار عبد العزيز كانوا ينعونه على
 الاصلاحات قائلين ان الدين الاسلامي التشبه بالافرنج فكيف يكون ذلك وهل
 خرج العرب عن دين اباؤهم أو اصابهم ما اصاب الدولة في عصر اقتراضها
 فعل العرب ذلك مع قربهم من عصر الخلفاء وكان ملوكهم يعضدون العلوم
 والفنون فهل كان العلماء في زمن الرشيد والمأمون اقل حظا من علمائنا عباد الملوك
 باعة الذم الذين لا يفرقون بين الجرة والتمرة

الامم والدساتير

لمترجم الكتاب

رأيت قياما بالواجب اختتام هذا الكتاب بنذرة صغيرة عملا بقوله تعالى
 (وذكرا ان نفعت الذكرى) فقد مات مدحت باشا وغيره من صناديد الاصلاح
 واعلان بعد قتله الدستور في البلاد العثمانية ولو اتاح الله له البقاء الى يومنا لرأى بعيني
 رأسه ما اصاب الوطن من الكوارث بسبب الانقسامات الداخلية لان كل ابن
 انثى يريد ان يكون واليا او مبعوثا او ناظرا في احدى النظارات وقد اختلط الخابل
 بالنابل لان الامة ورجال العصر الذين كسروا قيود الاستبداد ظنوا لاول وهلة
 ان الدستور يوصل الامة الى اعلى درجات الرقي اذا ركب رجال الحكومة السيارات
 وتكلموا باللغات الاجنبية واكثروا من الولائم واثقلوا كاهل الامة بالقروض
 وخيل لهم ان اوربا قد وصلت الى حالتها التي نراها بمثل هذه المظاهر الفارغة

وفي اعمال مدحت باشا عبرة لذوي الالباب تظهر لمن اطالع على آثاره في
 الولايات التي انيط به امر ادارتها فقد كان يشتغل باحياء الزراعة وينشئ الطرقات
 ويمخر الجداول والانهر ليجعلها صالحة للملاحة ولا يصرف قرشا واحدا الا لاحياء
 ثروة البلاد واستخراج كنوزها واسعاد الاهالي لان بثروتهم ثروة الحكومة التي
 تستقي ثروتها من منابع خيراتهم

والامم في اطوارها اعمار كاعمار الرجال واذا اعلن الدستور في بلاد ونال
 اهلبا حريتهم واجتمع مجلس نوابها وفاجأ نظار الحكومة نواب الامة بمذكرة من

احد دهاة ساسة اوربا عجز النواب عن الجواب على المذكرة كيف لا وهم لم يعتادوا الحكم الدستوري واكثرهم من الزراع الذين لم يفارقوا مزارعهم والمشايخ الذين لم يفارقوا ابواب المساجد واذا سألت احدهم عن احدى المسائل المختصة بحقوق الدول عجز عن الجواب عليها والظفرة من المستحيلات في كل عمل فالتمليذ الذي يسلمه والده الى المؤدب يقف حائرا مبهوتا اذا شرح له استاذ من اول يوم احدى مسائل ابن سينا او نظرية من علم الكلام ولا فرق بينه وبين النائب الذي تنتخبه طائفة من سكان القرى ليقوم للدفاع عن حقوقها في مجلس نواب حكومة حديثة عهد بالدستور كحكومتنا العثمانية

لا فرق بين تلميذ يترك معرفة الحروف اب ت ث ج ويبدأ عمله الدراسي بتعلم التفسير والحديث والفلسفة وبين نائب يترك طلب اصلاح اراضي البلاد الزراعية من حكومته ويشغل بالسياسة الداخلية والخارجية وانشاء الجامعات وسن القوانين وعقد القروض وبلاده خالية من المزارع وابن بلده يشكو الجوع ولا يجد كسرة من الخبز يسد بها رمقه

ملأنا البلاد بالصياح والتصفيق فلم يسمع احد من افواهنا سوى الفاظ لتحي الحرية ليحي الدستور لتحي المساواة وكان النائب من نوابنا يتوجه الى عواصم الغرب للسياحة فيركب البخار في البر والبحر ويرى عواصم اوربا ملتصقة بجبالها السائح مملكة واحدة لا كملكنتنا العثمانية الواسعة الارحاء واذا عاد الى بلاده رأى طرقا مهملة وجسورا مهدومة وارضاً متروكة يسرح فيها البوم واذا خلا الى اقاربه النواب اكثر من السباب والشتائم وامطرهم اللعنات وظن ان غاية ما يصل اليه الانسان من الحضارة يتم بالكاليات والمظاهر الكاذبة

لو قرأ نوابنا تاريخ مدحت باشا ابي الدستور ورأوا ما كان يجريه من الاصلاحات وشاهدوا آثاره في بغداد وسوريا وغيرها وعلموا انه قد فعل كل ذلك بلا مذكرة وبغير احضار لأئمة اصلاحية بل ابتداء اعماله وأنتمها من تلقاء نفسه لكفونا مؤونة اللوائح الاصلاحية التي نسمع بها كل يوم في قاعة مجلس النواب ولا

نرى لها اثرا حتى سئمت انفسنا سماع اسم الاصلاح وتوهم اكثرنا ان ما تدعوه اوربا بهذا الاسم لايهمم الا اذا تضارب اعضاء البرلمانات وتشامتوا وخربت البلاد وهاجر الاهلون واغلقت الجرائد واعيدت الانتخابات واعلنت الحروب وشقى العباد وضاع الوطن وقتل الابرياء وانتصر الاعداء

لم يعش مدحت باشا ولكن آثاره باقية لليوم ومذكراته التي بين يديك ايها القارئ تثبت لك انه لم يقرأ في احدى جامعات اوربا بل تخرج على بعض المشايخ المعممين وفاق اكبر ساسة اوربا وترك آثارا اذا رآها اسلافه اليوم وبحشوا عن امثاله فلا يذكرن الا اللورد كرومر وغمبتا وبسارك وغيره من الذين احيوا بلادهم بالفعل لا بالمقالات والخطب والشتائم والمنازعات

اذا ما تزايد المسلم او عمرو المسيحي وترك ولدا وحيدا واموالا وبيوتا ومزارع ثم قام محمد او توما وتولى امور الطفل فأضاع ثروته وبدد امواله وخرب مزارعه وتسبب في هدم بيوته بسوء ادارته فما الذي يفعله الطفل بعد بلوغه انه لا يكتب في بعض الوصي بل يناقشه الحساب ويقاضيه ويصدر ضده احكاما بالسجن والتغريم وربما قتله ايضا اذا ثار نأثر غضبه

الامة كالطفل والنواب كالوصي وبلاد الدولة ولاياتها ومزارعها كاموال والد الطفل وبيوته ومزارعه وقوانين العمران تحددو بالامم الى التقدم والرتي رغم كل حكومة فاذا ناب الشعب الى رشده فما الذي يقوله نوابنا وزعمارنا اذا بقينا على تلك الحالة

ليضع النواب انفسهم مكان الامة وليفرضوا ان بعض افراد الامة يبدون اموالهم ويتركون مراقبتهم بين اليأس والرجاء ويضيعون حاضرهم ومستقبلهم بالمناقشات والمناظرات فما الذي يفعله اذ ذلك نوابنا انهم يقومون بلا شك قومة رجل واحد لكسر تلك الاغلال والتخلص من ظلم هؤلاء الاوصياء للاحتفاظ باموالهم واستبقاء ميراث اجدادهم

لومات احمد المسلم او جبرائيل المسيحي وترك ولدا واموالا وضيعا وانفق

الولد كل ثروة والده في ملذاته فان الناس يلومونه لسوء تدبيره ولا يجازونه وهذا الولد هو كالمملك الذي يفتح اجداده البلاد الواسعة ويخضعون الممالك ثم يهدم ما بنوه ويفقد ما فتحوه فيسلم الملك للاعداء ويحمل الناس ذلك على سوء تدبيره وما مثله الا كمثل الرجل الذي يفتقد ما تركه اسلافه من الاموال فيكون معذورا اما لنقص في عقله او لسوء تدبير ساقه اليه تقصير المؤدبين او اوقعه فيه عدم التجارب اما الجماعات فلا يعذبون اذا اتفقوا على ضياع املاك الأمة ورموا بها من حالق بين احضان الكوارث والشعب يغفر للجاهل زلته ولا يعفو عن خطأ الجماعات

وصل العدو الى ابواب الاستانة قتلنا خدعنا وخدعنا اوربا والحرب خدعة ولم زلة الذي ترك العساكر يموتون جوعا وقد امتلأت مستودعات الاستانة بالموث ووربقتها الخطوط الحديدية بمواقع الحرب ولانسينا سوء الادارة في النظارات والولايات مذ اعلن الدستور لان الناظر في نظارته والوالي في ولايته لا يقيم اكثر من شهرين او ثلاثة اشهر واذا جاء خلفه بدل وغير في شكل الادارة والموظفين وهي مصيبة يقابلها الوطنيون بالصبر والثبات بيد انهم سيسألون يوما عن اسباب هذه التغييرات ويحاسبون الناظر والمسبيين على افعالهم لان الوطن ليس بالعبوة في يد جماعة من عشاق الوظائف وعباد الدراهم والحكومة هي عبارة عن جماعة ينتخبهم الشعب فان اساءوا التدبير ناقشهم الحساب وعاقبهم وان احسنوا فلا نفسهم واذا نام الشعب نومة وتلاعبت بمصالحه ايدي ذوي الاغراض كان التلاعب سببا لاستيقاظه فهب هبة الاسد وهدم صروح الاستبداد

لفرض ان الحكومة تعزل الناظر او الوالي لانه لا يقدر على القيام باعمال وظيفته فهل لم تهتد الحكومة من يوم اعلان الدستور الى وال او ناظر يحسن القيام بأمور وظيفته لتثبته ونظير للملا انها تبحث عن الصالح وتبعد الطالح وان غرضها الاصلاح لا عزل زيد لاقامة عمر مقامه وجعل الوظائف ابواب ربح تتناوبها طائفة من المترين ويبعد عنها جماعة العلماء وارباب الافلام واحرار رجال الامة وينتحر الوطن بسبب سوء الادارة

لكل ولاية اليوم خمسة ولاة يتفاضون مرتباتهم من اموال الامة العثمانية
 التبعة منهم اربعة معزولون يقبضون مرتبات معزولية وواحد يؤدي وظيفته الى
 ان ينتهي دوره في العمل فيخلفه صاحب القرعة وقس على الولاة القايمين
 والمتصرفين فهل يصبر الوطن على هذه الاعمال

امتلات خانات الاستانة وفنادقها بالموظفين والناظر الى كل وظائف الدولة
 من البين الى ازمير يرى هيئة الحكومة تبدل في القرية الواحدة في كل عام مرة
 او مرتين حتى قال عنا الافرنج انا ضيوف في عاصمتنا ضيوف في ولاياتنا ضيوف
 في القرى الصغيرة تنطبق اعمال حكومتنا اليومية على حركات قبيلة يسكن افرادها
 بيوت الشعر وهذا حالنا من يوم فتحنا هذه البلاد واسسنا الملك الى هذه الساعة

ترسل حكومة انكلترا واليا الى الهند فيقضي السنين في اصلاح البلاد وراحة
 الأهلين وترسل المصلح الى القطر المصري الذي احتلته فيقيم به ربع قرن أما نحن
 فوالينا يذهب الى البصرة لدرع الطريق ويعود ويذهب غيره ثم يعود وسيتيق هذا
 شأننا الى ان يقضي الله امرا كان مفعولا

ثارت الافكار وقام سكان الولايات يطلبون من المركز منحهم استقلالا
 اداريا قائلين انه عاجز عن ادارة امور هذه البلاد الواسعة وقد اثبت عجزه بما فعله
 من يوم اعلان الدستور لانه يرسل الى كل ولاية خمس ولاة في السنة فكل ولايته
 عاجزون عن ادارة البلاد ولولا ذلك لأبقى ولو واحدا منهم سنة او سنتين وهو
 رأي يجب على حكومة المركز ان تنظر اليه بعين الاعتبار وتجيهم عليه بجواب مسكت
 لا بالسيف والثار فقد مضى زمنهما ولم يبق لهما اثر بين الحكومات والمحكومين على
 وجه الكرة الارضية فاصبحت الحرب تعلن بين حكومتين لا بين الحكومة وشعبها
 وكيف يحارب الشعب ابناه ويقتل الجندي أباه وأخاه وعمه وابن عمه ويبقى
 الحكومة وجيشها في جانب والشعب في جانب اني لم اسمع بمثل ذلك في البلاد
 الدستورية ولا في الحكومات البربرية لان الجندي هو ابن الامة ومثله ناظر
 الحربية بل وكل ناظر وهذا الامر هو الذي ساق الشعوب الى الاستانة في الدفاع

عن الوطن وخلع طاعة الغريب الذي لا يشفق على غير ابناء جلدته واذا حاربت الحكومة الشعب كانت كمن يقطع رجل نفسه لان اموالها ورجالها وحكامها ليسوا باجاناب عن جسم الامة فاذا طحن الاستبداد هذا الشعب واقترض مات عظامه جوعا واحتاج ملوكه الى الخبز والامة قادرة على ايجاد الملوك والحكام ولكن الملوك ليسوا بألهة فيستبدلوا الشعوب بغيرهم

الشعوب في الحكومات الشورية تختار الحكومات وتولى أمورها المصلحين وتبعد المفسدين وليست الحكمة في الضرب على يد المركز وسلخ الولايات عنه بل الرأي عندي وعند العقلاء حمل المركز بقوة الشعب على اصلاح شؤون البلاد واعمارها واتباع خطة غير خطة التغيير والتبديل واصلاح الزراعة اولا والمعارف والتجارة ثانيا فقد اصبحت الحكومة العثمانية محرومة من المعارف ومن كل شيء بسبب تبديل الموظفين وكثرة القرارات والقوانين التي تطرح في زوايا الاهمال وتضيع الذين يكتبونها لتهمل ثم يجعلها اخلافهم طعمة للنيران واذا قضينا المثات من السنين بين وزارة تضع القوانين ووزارة تحرقها كفانا الاحراق والكتابة مؤونة الاصلاح وصرنا طعمة للآكلين بسبب جهل الامة التي ترسل الى مجلس نوابها جماعة من المستبدين فيسعون في توظيف اقاربهم ويطمح نظر الواحد منهم الى احدى النظارات واذا نالها اشتغل بترويج مقاصد الفرقة التي ينتسب اليها وترك الامة وشأنها

يأخذ الناظر المستعفي او المعزول من مال الامة العثمانية (٥٠) ايرة في كل شهر وكل نظارة يتركها في السنة اربعة نظار فاذا بلغ مجموع النظار المعزولين في بلادنا عشرين الفا ومثلهم من الولاة والمتصرفين والقائماتين واضفنا الى هذا العدد اصهار البيت المالك الذين يقبضون مرتبات من مالية الامة اذا بلغ عدد هذا الجيش الى الدرجة القصوى باستمرار الحكومة على خطتها المالية عشرة سنين استغنيانا عن الجنود والضباط والفيالق واكتفينا بمعزولي النظار فاشتغل فلاح الامة وتاجرها وصانعا وحقيرها لاطعام هذا الجيش الذي لا اظن ان ميزانية الحكومة

تساعدنا على صرف مرتباته فنحتاج اذ ذاك لعقد القروض واوربا لاتمتنع عن اقراضنا لاسيا اذا كثر عندنا عدد اصهار البيت المالك فهي تقرضنا الملايين بواسطتهم اكثر الله من امثالهم رحمة بهذه الامة التعمسة المحتاجة كثرة عددهم للتدرع بهم عند مصائب الدهر وغارات الاعداء

اكتب هذه الاسطر مدفوعا بعامل حب الوطن عالما ان مصيرنا الى الدمار اذا بقينا على تلك الخططة ولعل فيا مر عبرة لقوم يعقلون
على اني قد عاهدت الله تعالى وعقدت النية على تسطير كتاب في هذا الموضوع الحيوي بعد اتمام ترجمة كتاب محاكمة مدحت باشا اسأله تعالى التوفيق الى السداد باطفه وكرمه

خاتمة

الحمد لله على سرائه وضرائه والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى جميع رسله واصفيائه وبعد فيقول الراجي عفوره يوسف كمال حناته المصري مولدا الان في دمشق قد فرغت من ترجمة هذا الكتاب في العاشر من شهر رجب الفرد سنة ١٣٠١ هجرية الموافق ١٤ يونيه سنة ١٩١٣ ميلادية في الاستانة العلية وقد تنازلت عن طبعه واعادة نشره لحضرة خادم الادب امين افندي هنديه وقد اتبعته بترجمة كتاب محاكمة مدحت باشا اسأله التوفيق الى اقوم طريق

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0022592156

